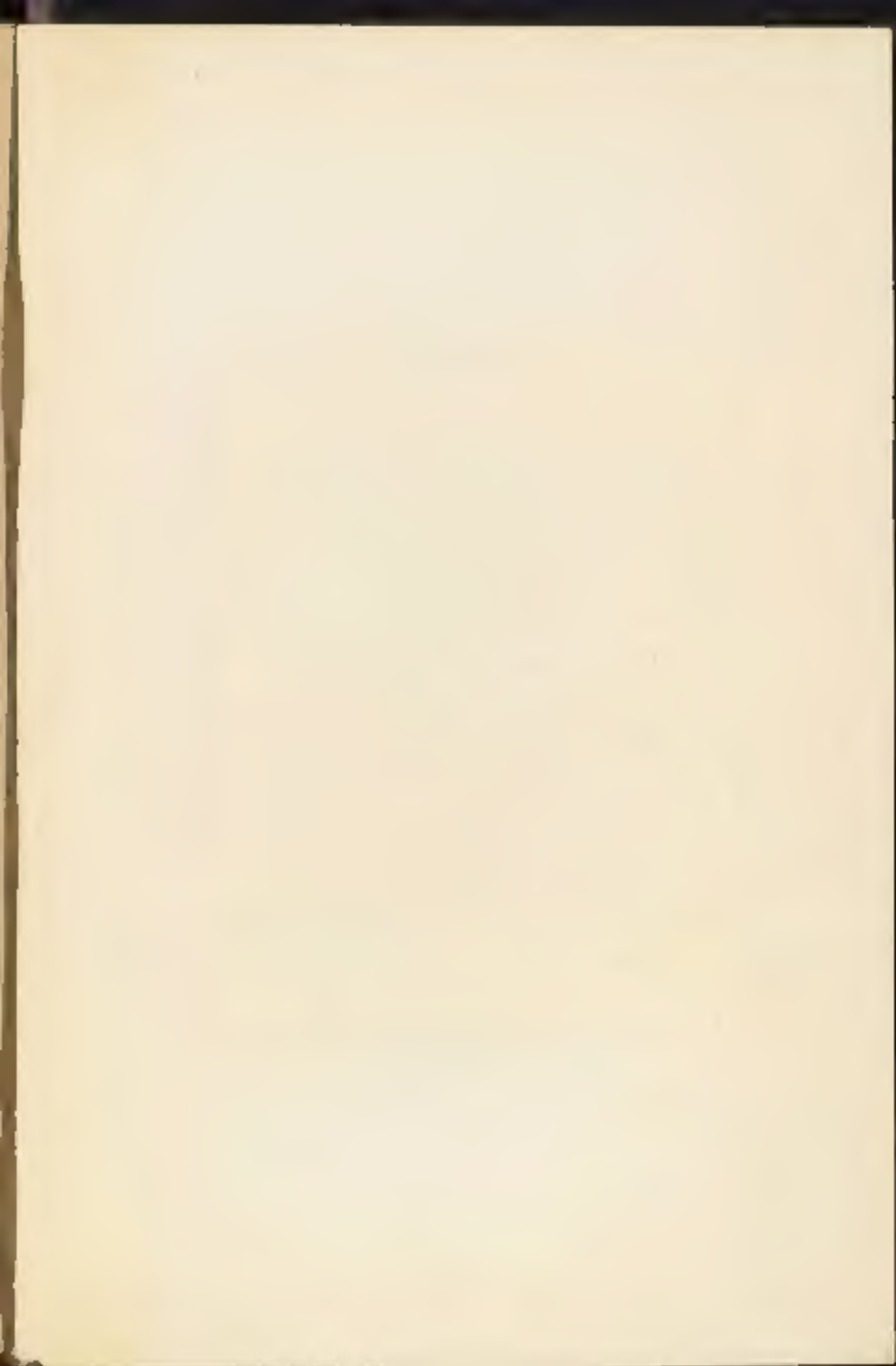


Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES







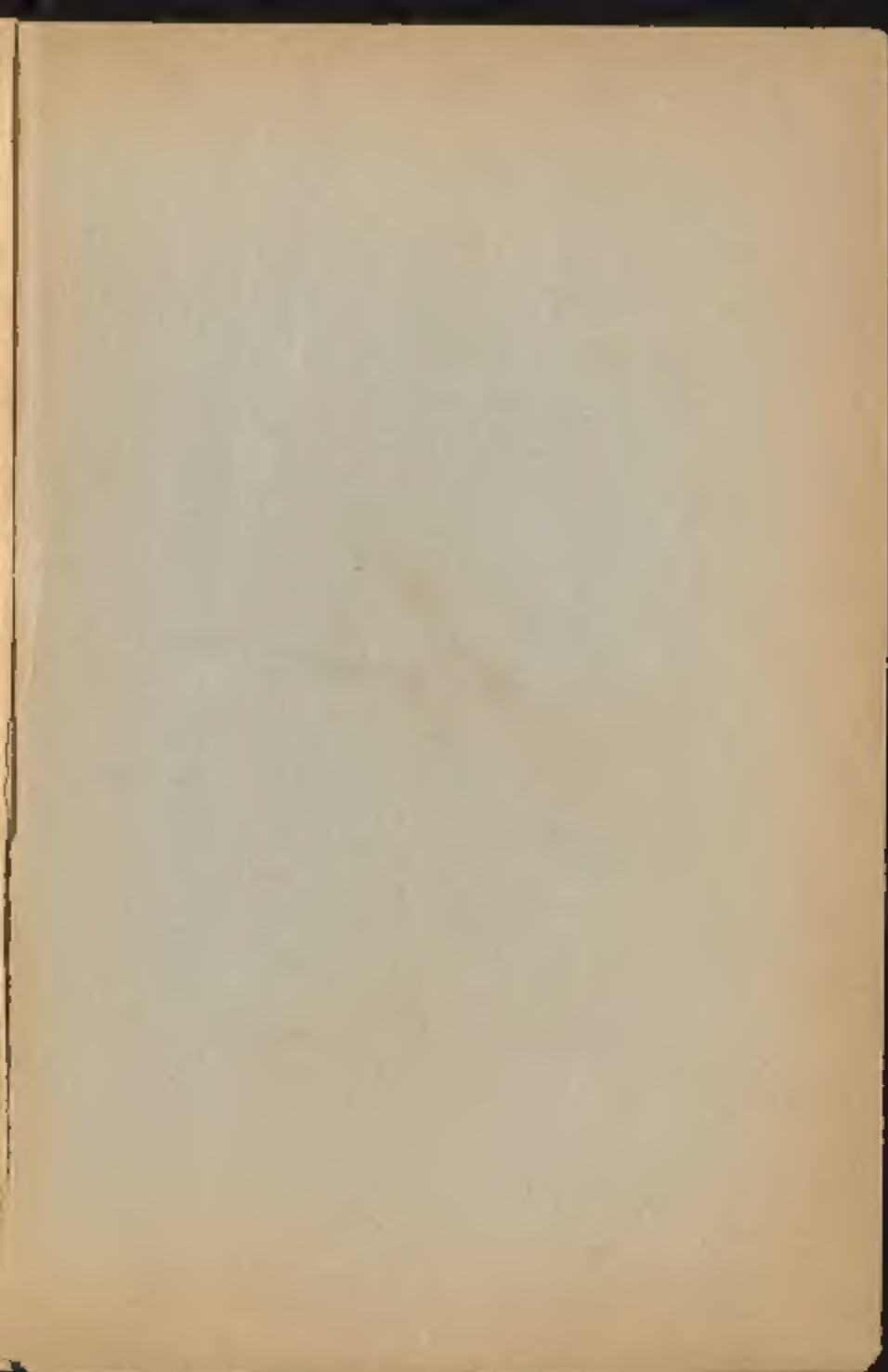
خالد محمد خالد
من العلماء

من هُنا.. نبداً

الطبعة السادسة

١٩٥٢

مقدم الطبع والنشر
دار الفكر العربي



خالد محمد خالد
من العلماء

مِنْ هُنَا .. نَبْدَأُ

الطبعة السادسة

١٩٥٢

مقرم الطبع والنشر
دار الفكر العربي

962
K5263.

1908H

اقرأ هذه الكلمات ..

شهد هذا الكتاب مؤامرة دنيئة . بدأت منذ عام ونصف ،
ثم لم تؤذن بعد بانتهاء ..

ولقد كنت أظن أنني لن أحذر القراء مرة أخرى من طبعات
زائفة تحمل اسم الكتاب . لكن بعض المفسدين في الأرض
يأبون علينا ذلك ..

لقد ظهرت منذ عام ونصف طبعة زائفة تضاهي طبعتنا الثالثة ..
وكانت مشحونة بالأغلاط المطبعية .. ثم ظهرت طبعتنا الرابعة
وبعد نفاذها بأيام فوجئنا بطبعة زائفة تضاهيها .. والآن ونحن
نتيحاً لإخراج الطبعة السادسة من الكتاب فوجئنا مرة أخرى
بظهور طبعة زائفة تحمل اسم ، الطبعة الرابعة ، .. رديئة الإخراج
كثيرة الأغلاط ، كالعهد بكل عمل يتم في الظلام ..

ويبدو أن المزيفين قد استمروا أو مقارفة جرمهم هذا ، فقد
زيّفوا في هذه الأيام بضعة كتب لكبار الكتاب وإلى أن يقيم
القانون لأمثال هؤلاء عقوبة زاجرة .. ويجعل مثوام أعماق
السجون .. فنحن لا نملك إلا أن نحذر القراء من هذه الطبعات .
فلينذكر القارئ كلما رأى طبعة فيها رداءة وأخطاء أنها زائفة
لم يأذن المؤلف بنشرها . ولم يطلع عليها .. ونرجو أن يعلم القراء
أن جميع الطبعات الصحيحة من الكتاب قد نقدت حتى آخر نسخة

منها. والطبعة الصحيحة المعروضة اليوم للبيع هي الطبعة السادسة،
نشرتها وطبعها دار الفكر العربي .

ونحن نهيئ بضائراً أصحاب المكتبات هنا ، وفي البلاد العربية
أن يكافحوا معنا هؤلاء المزيفين حتى لا يساهموا وإياهم في غش
القارىء ، وإفساد الثقافات . وعلى الله قصد السبيل ؟

المؤلف

ديسمبر ١٩٥١

الاهداء

إلى الذين إذا جاءهم ما عرفوا — لم يكفروا به ...
وإذا جاءهم ما جهلوا — لم يمرضوا عنه ...

قصة هذا الكتاب

.. وشاء ربك ان تكون لهذا الكتاب قصة .. تتمثل فيها محنة
الفكر وروعة انتصاره . وترسم في أقطاب أهداف التقدمية الرشيدة
— بهضاء مشرقة كهضوة الفجر . وأغراض الرجمة البغيضة —
سوداء مظلمة كقلب الخقود . وتنهض وفاتمها شاهدة على صدق
أكثر ما في الكتب من أفكار وآراء ..
وإذ قد صار الكتاب ملء وعيك البصير ووجدانك الخي ؛
فقد أصبح من حقاك أن تعرف عنه ما لم تكن تعرف . وفي هذه
السطور أقدم لك قصة الكتاب الذي أثره الله ورعاه .. والذي
مكنت له بحفاوتك وتقديرك . نخرج يسعى في طبعته الثانية من هوأ
بإيثار الله وتقدير القارئ ..

المصادر الأولى

قَبِيلِ اسْتِقَالَةِ وَزَارَةِ دَوْلَةِ اِبْرَاهِيمَ عَبْدِ الْهَادِي بَاشَا بِسْمَةِ
أَشْهَرِ تَقْرِيرِيَا ، وَفِي صُحْبِي يَوْمِ جَمِيلٍ ، كَانَ الْكِتَابُ فِي طَرِيقِهِ إِلَى
دَارِ النِّيلِ لِلطَّبَاعَةِ ، وَيَسُرُّ لِي مَدِيرُهَا الْأَسْتَاذُ اِسْمَاعِيلُ شَوْفِي مُشَقَّةَ
التَّكَالُفِ بِمَا فَطَرَ عَلَيْهِ مِنْ صَفَاءِ نَفْسٍ وَتَبَلِّ عَاطِفَةٍ .

وفي اليوم الثاني كانت صفحاته الأولى بين الممال، وفي اليوم الثالث كانت أولى ملازمه في رقابة المطبوعات بالداخلية . . . واستضيفت هناك ثلاثة أيام ، استدعيت بعدها لمقابلة الرقيب الذي أقرمني أن هذا الكتاب لا يمكن مراجعته ، بالقطاعي . . .

ولا بد من تقديم أصوله كافة حتى يتسنى الحكم عليه مرة واحدة .
وبعد يومين آخرين حولت الملزمة الأخرى التي لحقت بها إلى
رقيب آخر — من علماء الأزهر — فاشتراط نفس الشرط الذي
اشتراطه سابقه . وقدمت أصول الكتاب جميعاً . واستودعته
الرقابة والرقيب . وبعد شهر ذهبت لأنسله وأعود به إلى
المطبعة عود الظافرين . فاذا وكيل المطبوعات والرقابة يرف إلى
في أسف صادق مرير أن فضيلة الرقيب قد أمر بمصادرة الكتاب
وتحريم طبعه . . ووقفت أخيراً على أسباب هذا المنع — وفرواها
أن فضيلته رأى في الكتاب هجوماً على رجال الدين وعلى الرأسماليين
وهذه سمة الشيوعية والشيوعيين . . . أو كما قال . . .
وزج بالفكر في قبو الظلمات . . فلندعه الآن في سجنه أو في
منفاه . . . ريثما نعود إليه أو يعود إلينا .

بلاد من ؟

وكان اسم الكتاب « بلاد من ؟ »
وكانت فصوله خسة : إنسانيون . الدين لا الكهانة . الحزن
هو السلام . أسرار المجتمع . الطريق .
أما فصل « قومية الحكم » فقد رفعته من الكتاب ووضعت
مكانه . أسوار المجتمع
لماذا ؟ لأن أصحاب الفكرة التي أناقشها في هذا الفصل كانوا يومئذ
في السجون والمعتقلات — فلم يكن من الانصاف مناقشتهم بالغيب .

. . .

إفراج

وفي وزارة رفعة حسين سرى باشا - القست من الرقابة إعادة النظر في الكتاب المضطهد الحبيس ، وأجبت رغبتي ، وأذن لي بنشره وإخراجه .. وأخذ طريقه إلى المطبعة من جديد ، وعملت فيه يد الاختزال والتركيز ، وعاد فصل « قومية الحكم » إلى مكانه بعد أن زالت البواعث التي حز حته عنه من قبل ، واتسم الكتاب بسمة الإيجابية والتوجيه فكان أنسب الأسماء له « من هنا.. نبدأ .. » ووقف صرير المطابع .. وغادرها الكتاب إلى القراء يث فيهم دعوة السلام والحب والمساواة والعدل والواجب — هادىء الفورة .. حسن السميت ثابت الوعظة .. كل غاياته أن ينفي عن الدين تحريف المبطلين .. وعن المجتمع ظلم الظالمين .

عواصف

وليس في طبائع الأشياء أن يمر بسلام ، كتاب يتحدى حرص الناس .. ومآربهم الدنيا ومصالحهم العتيدة ، وتعصبهم المزمع لما لم ينزل به من الله كتاب ولا برهان . فأن صدر الكتاب حتى أزعجت بعض النفوس جذاذات من الزواجر .. تضامنت وتآلفت وأمسكت ركائما قائما يريد أن يمحجب الضوء ويطمس مطالعه .. ولكن طبائع الأشياء أيضاً تأتي أن ينتصر الظلام على النور وتؤكد أعرق تؤكد تلك الحكمة القائلة :

« إن ظلام العالم كله يعجز عن إطفاء شمعة ١٠٠ » وهذا هو
الذي حدث .

فلقد مضى موكب الأضواء عرقاً هذا الركام من الضباب ، ساخراً
به وبالظلمات .. أخذنا طريقه إلى الوعي البصير الحري مجذبه عن آلامه
وآماله ، وينفخ في الفحم الهامد . ويعلى كلمة الله ، وكلمة الشعب .

محاكمة

وعلى حين غفلة انقض البوليس على المكتبات وضبط نسخ
الكتاب تمهيداً لمصادرته ، ووقف الكتاب أمام القضاء متهما
بالخروج على الدين وترويع الشيوعية وتحريض الفقراء على الرأسماليين
وأخيراً — جاءت كلمة القضاء كدير المحيط .. قوية هادئة .
وأفرج عن الكتاب للمرة الثانية .. ومضى مستأنفاً رحلته
المباركة ، شاكراً للذين أساموا به الظن ، والذين أحسنوا .

ولكن

ولكنهم يتحدثون عن محاكمة أخرى ستجريها هيئة كبار العلماء ،
أنراها تريد تكريم الكتاب الذي بذل من ذات نفسه كل جهد
مستطاع لخدمة الدين والشعب ، لحرفت الإشاعة هذا التكريم
إلى محاكمة ١٩

أم أن الجزاء الوفاق اليوم لكل غيور على دينه من الكهانة ،
وعلى أمته من الاستغلال ، أن يلتمس له العيب ، وتفتعل له التهم .

ثم يقال له : ذق جزاء ولائك لله . . وولائك للوطن ١٢

أيا كان الأمر :

فإن يرتاع من خوض السواقى . . ففى قد خاض فى البحر الكبير
وإنه لمن حسن الحظ أن التهمة التى تسده إلى الكتاب هى تلك
التي قذف بها كل مصلح جليل الشأن صادق العزم . . كانوا جميعاً
خارجين على الدين لأنهم أرادوا أن يرفعوه فوق مثال المساومة
والعبث والتسخير . . وأحيط بهم فاهونوا ولا جزعوا .

كان زهير الأعصار يزيدكم تشبهاً وتفاؤلاً . ويشد فيهم زناد القوة
والنضال والاحتمال . وإن الذين جاءوا من بعدهم ليحاولون صادقين
أن يسيروا على هذا النمط الرفيع . وأن يكونوا امتداداً لهذه القوة
الراخرة التي لا تغمى في خدمة الله والشعب لو ما ولا بأساً . ولعل
القارىء في شوق إلى معرفة التهم التي حيكت للكتاب . وصنعت بها
لجنة الافتاء .

وها نذا أطوى القصة على ختامها . . حيث تطالعك باهر ذمات لقة
إحدى وثائق الحرية والعدل والرق في هذه البلاد . ممثلة في حيثيات
الحكم الذي سيظل فناراً . يطارد الظلمات من طريق الحرية والأحرار
وفي هذه الحيثيات سترى التهم المزيلة المرعشة تتساقط كأنها
مزق ذباب بدده نفاث مطهر مبيد .

• • •

وبعد ، فلا يزال زئير العاصفة يلخط ويدمدم ..
ولكن لا بأس ..
فهناك حكمة عذبة تقول :
تخل العاصفة تزار ..
فإن ذلك أخلق بأن يجعل بفنائها ..
ومنخوض الأعصار ..
ونرسو آخر الأمر على الشاطئ السعيد ..

إحدى
وثائق الحرية والرقى

النص الكامل

لحيثيات الحكم بالافراج عن الكتاب

محكمة القاهرة الابتدائية

مكتب القاهرة

قصر ار

نحن حافظ سابق رئيس محكمة القاهرة الابتدائية
بعد الاطلاع على الأمر الصادر من النيابة العامة بتاريخ ٨ من
مايو سنة ١٩٥٠ بضبط كتاب د من هنا نبداً ، وعلى الكتاب
المذكور ، وعلى كتاب حضرة صاحب الفضيحة رئيس لجنة الفتوى
بالجامع الأزهر المؤرخ في أول مايو ١٩٥٠ . وعلى التحقيقات التي
أجرتها النيابة مع الأستاذ خالد محمد خالد مؤلف هذا الكتاب . وبعد
سماع أقوال مؤلف هذا الكتاب ودفاع حضرة المحامي الحاضر معه .
حيث أن النيابة العامة طلبت تأييد الأمر الصادر منها بضبط
هذا الكتاب استناداً إلى المادة ١٨٩ عقوبات ، وقالت في تقرير
ذلك إن المؤلف ارتكب الجرائم الآتية :
أولاً - إنه تعدى علناً على الدين الاسلامي ، الأمر المعاقب
عليه بمقتضى المادتين ١٦١ و ١٧١ عقوبات .
ثانياً - إنه جسد وروج علناً مذهباً يرمي إلى تغيير النظم
الاساسية للهيئة الاجتماعية بالقوة والإرهاب ووسائل أخرى غير
مشروعة ، الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادة ١٧٤ عقوبات .
ثالثاً - أنه حرض علناً على بغض طائفة من الناس وهي طائفة

الرأسمالين والازدراء بها ، تحريضاً من شأنه تكدير السلم العام ،
الأمر المعاقب عليه بمقتضى المادتين ١٧١ و ١٧٦ عقوبات .

وحيث إنه فيما يتعلق بجريمة التعدي على الدين الاسلامي ، فقد
اعتمدت النيابة في إسنادها إلى مؤلف الكتاب على رأى لجنة
الفتوى بالجامع الأزهر الذى يتحصل فى أن هذا الكتاب قد وضع
بروح تناصب الدين العداء السافر ، وتعمل لجهدا على هدم كيانه
وتسلبه أخص وظائفه وهى الهيمنة على شئون الحياة وتديرها
وإقامة أمور الناس فيها على أسس العدل والاستقامة ، وسياستهم
بكل ما فيه لإصلاح حالهم فى الدنيا وتوفير أسباب سعادتهم فى الآخرة
نارة بالنصح والارشاد والوعظ والهداية . وأخرى بالقضاء العدل
والحكم الرشيد ، وتأمين الناس على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم
ومائر حقوقهم وإنصاف المظلومين ، والضرب على أيدي المعتدين
الظالمين . وإن كتاب الله وسنة رسوله كلامهما مليء بالتصريح الفقهي
الواضح البين فى الحكم والقضاء وما إليهما من مظاهر الهيمنة
الفعلية على جميع نواحي الحياة الاجتماعية مادية وجنائية ، فردية
 واجتماعية ودولية . وقد دعمت لجنة الفتوى رأيها هذا بما يلى :

١ - إن المؤلف صور الحكومة الدينية بخصائص وغرائز
من شأنها أن تبعث فى النفوس محاربة هذا النوع من الحكم .
ورماها بالغموض المطلق . وأن دستورها الذى تخضع له وتقوم به
وتقر إليه وتهرب ، هو الدين .. هو القرآن ، وأن القرآن والسنة
فيهما من الغموض والاحتمالات ما يجعل فى الآية والحديث متمسكا
للتخاصمين المتعارضين فى رأى ، وأن المؤلف يعنى بهذا أن ذلك
الغموض يجعلهما غير صالحين لأن يكونا أساساً صالحاً للحكومة .

٢ - إن المؤلف يقرر أن مهمة الدين لا تعدو الهداية والارشاد وأن ما قام به النبي صلى الله عليه وسلم من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها من مظاهر السلطة التي يمارسها الحكام لم يكن إلا لحكم ضرورات اجتماعية . وأن المؤلف يعنى بذلك أن هذه الشئون التي قام بها النبي لم يقم بها لأنها من مهمتها الدينية وعناصر من عناصر الرسالة .

٣ - إن المؤلف يرى أن الحدود جميعها موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لإقامتها وأن عمر وقف حد السرقة أيام المجاعات وصار ذلك سنة رشيده من بعده ، وأن حد الزنا يحتمل موانع تنفيذه وأن حد الخمر كحد الزنا في صعوبة تنفيذه أو استحالة ، وأن الدين لا يصح أن يعتمد فيما يعتمد عليه في إصلاح المجتمع - على العقوبة ، معللاً ذلك بأن نفوذ الدين وأثره في مكافحة الرذيلة ليكونان أرسخ قدماً وأقوم سبيلاً حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحنان المهادى والمنطق الرصين ، أما حين تتحول هذه الرسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة آتت تصاب بجرح أليم .

٤ - إن المؤلف عرض لركن من أركان الدين وهو الزكاة وخلع عليه ثوباً يقرئ منه النفوس ويجعله مظهر آ من مظاهر المذلة والخوان التي لا يرضى الله بها لعباده ، ورأى أن السكينة ، أى الدعوة الدينية هي التي صورت للناس أن الإسلام يرى في الصدقات اشتراكية تلبي حاجة المجتمع ، وأنها بهذا التصوير تسير على طريقة الخداع التي تعودت بها إبداء بعض مظاهر العطف والرحمة بالناس في حين أنها تعمل بها على سلب الناس أعز ما يملكون من كرامة وحق .

وحيث إنه يبين من الاطلاع على الكتاب أن المؤلف نادى
 بقومية الحكم ورد على رأى القائل بضرورة قيام حكومة دينية بأن
 في ذلك مجازفة بالدين ذاته مجازفة تعرض نقاوته للكدر وسلامته
 للخطر ، بينما يجب الحرص على صيافته وإبقائه بعيداً عن مهاب
 العواصف والذاريات ، وأن الرسول عليه السلام كان يحس إحساساً
 واضحاً بمهمته ويعرفها حق المعرفة وهى أنه هاد وبشير وليس رئيس
 حكومة ولا جباراً فى الأرض . وقد عرضوا عليه يوماً أن يجعلوا
 له مثل ما كان للأباطرة والحكام قفرع وقال : ، لست كأحدكم .
 إنما أنا رحمة مهداة . ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعاً
 على حصير قد أثر فى جنبه فقال له : ، أفلا تتخذ لك فراشاً وطشاً
 ليناً يا رسول الله . فأجابه بقوله : ، مهلاً يا عمر . أتظنها كمروية ؟
 إنها نبوة لا ملك ، ثم قال المؤلف إن الرسول لم يكن حريصاً على
 أن يمثل شخصية الحاكم لأن مقام الرسالة أرفع مقام لولا
 الضرورات الاجتماعية التى أجأتة إلى ذلك لتحقيق المنفعة والسعادة
 للمجتمع الجديد وإذا كان الرسول فاض وعقد المعاهدات وقاد
 الجيش ومارس كثيراً من السلطة التى يمارسها الحكام وأقام بعض
 خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان كان العدل
 تحتها وسداها فإن هذا لا يعنى أن هناك طرازاً خاصاً من الحكومات
 يعتبره الدين بعض أركانها وفرائضه ، بل إن كل حكومة تحقق
 الغرض من قيامها ، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة ، يباركها
 الله ، ولئن كانت الحكومات الدينية قد توافرت لها فى العصر
 الإسلامى الأول كل عناصر النجاح والتقدم ، فإن ذلك يرجع إلى
 الكفاية الشخصية والكمال الذاتى اللذين كان يتمتع بهما رؤساء تلك

الحكومات كأبي بكر وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز .
غير أن الأمر لم يلبث أن انتهى إلى تنافس ديموى على الحكم وفتنة
بين الناس وقادتهم وبين القادة بعضهم مع بعض وإلى نوع من الحكم
ليس بينه وبين الدين وشيعة ولا صلة وإن زعم أصحابه أنه حكم
وبنى بل حكم الله ورسوله .

ثم قال المواقف إن الحكومة الدينية لا تستلهم مبادئها ومساوئها
من كتاب الله ولا من سنة رسوله بل من نفسية الحاكمين وأطاعهم
ومنافعهم الذاتية ، وهي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة لا يعرف
مآناها ولا يعلم مداها . ولا تفسر وجودها إلا بأنها ظل الله في
الأرض . وحين تسأل عن دستورها الذي تخضع له وتقوم به تفر
وتهرب إلى الغموض الذي لا يستطيع أن تعيش إلا فيه ، وتقول هو
الدين . هو القرآن . ولما كان القرآن ، حال أوجه ، كما قال علي
كذلك السنة فقد استغل بعض الحكام بعض آيات القرآن استغلالاً
مفرضاً ، وكان أصحاب علي - وهم يخرضون على دم معاوية وقتاله -
يقدمون بين أيديهم طليعة هائلة من الآيات والأحاديث هي نفس
الآيات والأحاديث التي كان يخرض بها أصحاب معاوية على ذم علي
وقتاله ، ويبيض هذه الآيات قتل عثمان ، وبها ذانما قتل الخوارج
علياً . كما قتل يزيد الطاغية الحسين بن علي مبرراً فعلته هذه بآية
وحديث استمسك بهما .

ثم قال المؤلف إن الحكومة الدينية تحكم بهواها ، ثم تزعم أنها
تحكم بما أنزل الله ، وإن غريزة الغموض وغيرها من الغرائز التي
تستمد الحكومة الدينية من سلطانها بعيدة كل البعد عن حقائق الدين
وقضائله ، وأن الحكومات التي حكمت الناس باسم الدين سواء في

المسيحية أو الإسلام كانت أسوأ مثل للحكم ما عدا قلة نادرة فاضلة لا تكاد العين تقع عليها في زحام الكثرة الباغية . وإن الحكومات الدينية التي ينقدها هي تلك التي تعتمد على سلطة مبهمه غامضة ، ولا تقوم على أسس دستورية واضحة ، والتي تمنح نفسها قداسة زائفة وعصمة مدعاة .

ورد المؤلف على الداعين بوجوب إقامة حكومة دينية بأنهم إذ يبررون ذلك بفسكرة القضاء على الرذائل وإقامة الحدود فإن الدين وحده من غير أن يكون دولة هو الذي يهدي إلى الفضيلة عن طريق الترويض والاقناع وأن تفوذ الدين وأثره في مكافحة الرذيلة ليسكونان أرسخ قدما وأقوم سيلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتساح والرفق والحجاج الهادي والمنطق الرصين ، أما حين تتحول هذه الوسائل إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها فإن الفضيلة آتت تصاب بحزج أليم وامتشهد على ذلك بقوله تعالى : « فن أبصر فلنفسه ومن عى فعلها » وقوله تعالى : « وما أنت عليهم بحجار » فذكر بالقرآن من يخاف وعيد ، ثم تحدث المؤلف عن الحدود فقال : إنها موقوفة عن العمل وليس هناك مجال لإقامتها فقد وقف عمر حد السرقة في أيام المجاعات . وصارت سنة رشيدة من بعده . والشرق الإسلامي في مجاعة ما دام الناس لم يستوفوا ضرورات الحياة فحد السرقة موقوف إذن حتى ينزل الرخاء مكان الجدوب ، ويوم يوجد الرخاء فلن نحصل سرقة وإذا وجد السارق رغم الرخاء قطعت يده ، على أن يضع أيد سارقة إن تحتاج إلى قيام حكومة دينية خاصة ، فإدرة واحدة في القانون تقوم مقامها . أما حد الزنا فإن أمر إقامته يحمل موانع تنفيذة فقد شرط الله لإقامته أن تثبت الخطيئة باقرار مقترفها أو بالبينه واشترط أن

تكون البيئة أربعة شهود وأن يروا العملية الجنسية نفسها رؤية
 سافرة . وهذا أمر يكاد يكون مستحيلاً لما يجعل الثبوت بالبيئة
 متعذراً كما أنه لن يثبت بالإقرار فإن أحداً لن يذهب من تلقاء نفسه
 ليقدم ذاته للعار والفضيحة والمينة الشنيعة رجماً بالحجارة أو جلداً
 بالسياط ، ولم يحدث في حلال عهد الرسول وخلفائه سوى وقائع
 معدودة أقيم فيها حد الزنا . وقد كان كل من أقيم عليهم الحد معترفين
 دفعهم إلى الاعتراف زعة مثالية حببت اليهم تطهير النفس وتحملها
 مسئولية وزرها في الحياة الدنيا وهي زعة نادرة ، أما حد الخمر
 فهو كحد الزنا تماماً في صعوبة تنفيذه أو استحالة فهو لا يقام إلا
 بالإقرار أو البيئة وبينته شاهدان ولا تنحصر شهادتهما في رؤية
 الشارب وهو يشرب الخمر ، بل لابد في رأي كثير من الفقهاء أن
 يشهد بأنه شرب وهو عالم بأن الشراب خمر مسكر ، وأنه كان
 مختاراً غير مكره على شربه ، وهذا العلم مكنون في ضمير الشارب ولن
 يستطيع الشاهدان بلوغه أو الاطاحة به ولا سيما إذا زعم الشارب
 أنه شرب غير عالم به ، وخلص من ذلك إلى أنه لا داعي إلى إقامة
 حكومة دينية من أجل إقامة هذه الحدود خاصة . وقال المؤلف إن
 سدنة المكة يدعون باسم الدين إلى اشتراك الصدقات وهم حين
 يدعون إلى ذلك إنما يجعلون الصدقة نظاماً اقتصادياً مشروعاً ، ومعنى
 ذلك أنهم يفتحون باب المسألة (أي السؤال) على مصراعيه مع
 أن الدين الذي يحقر المسألة ويمجد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل
 حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء . لا يمكن أن يعالج حقوق
 الشعب في الحياة بالصدقات كما نحاول المكة اليوم أن تفعل .
 والإسلام حين دعا إلى العمل والتكافل الاجتماعي لم تكن الصدقة في

حسابه قط كوسيلة تنهض بها حياض الشعوب ، بل هي شيء يشبه أكل
الميتة فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود ويمسك
الرمق ، ولكنها لا تعالج هبوط المستوى المعيشي للأمم والجماعات .
وهذه بديهة يعرفها الذين عرفوا محمد ودرسوا نفسه العالية ودينه
القوم . فلقد وضع رسول الله الصدقة في مكانها اللائق بها حين يقول :
« إنها أوساخ الناس . إنها غسالة ذنوب الناس » وقد خشي الرسول
أن يفهم الناس أن الصدقة مصدر مشروع من مصادر العيش والارتزاق
فكان يدعوهم عنها ويذم المسألة إذ يقول : « المسألة كلوح في وجه
صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة فإنما هي رصف من النار ما بهية . »
وقد ذكر المؤلف في مواضع متفرقة من كتابه أن الدين يدعو إلى
توحيد الإله والحرية والمساواة بين الناس وإلى العدل والاحسان
والنهي عن الفحشاء والمنكر والبغى . وأنه يجب تقديم الدين للناس
وضمناً متافئاً كيوم نزل من لدن عزيز حكيم عليم . وما توحيد الإله
وجعل الأمر كله والسلطان كله والمكبرياء كلها له دون سواه إلا
هتاف علوى مقدس يشيع في الإنسانية الأمن والإيمان حتى تلتقي
الإنسانية كلها على الحرية والإخاء والمساواة . وإن الدين ليس في
حاجة إلى أن يكون دولة إذ هو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير
وإن وظيفة الدين هي الهداية والإرشاد إلى أنبل ما في الحياة من
معنويات وفضائل وتبليغ كلمات الله التي تهدي إلى الحق والفضيلة
والصلاح . وإن أجل خدمة تؤديها للدين هي أن تجعله قريباً من قلوب
الناس عميقاً في نفوسهم وتطعيم الدولة والمجتمع بروحه الحى ومعنوياته
الفاضلة لأن نأتى بحكومة تستغله في تقديس ذاتها وتبرير أطماعها
واستكراه الناس لجبروتها وإن الدين يحب أن يظل كما أرادته نبوة

لا ملكا ، وهداية لا حكومة ، وموعظة لا سوطا ، وإن الدين
في المجتمع الإنساني بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لا غنى للناس عنها
وهو مصدر قوة وإغا ، ومساواة لا ظهير أنانية وعدوان ، ويجب
أن يحتفظ الدين بخصائصه الذاتية وأهدافه التي من أجلها شرعه
الله وأنزله وهي إسماع الناس سعادة واقعية في نطاق المساواة النبيلة
التي جاء يعلنها ويحرص عليها ، وإن الدين في صورته الصحيحة
زميل مؤنس مسعد في رحلة الحياة كلها .

وحيث إن الدين شيء ، ودعاة الدين والحكومات الدينية
شيء آخر ، ولا بعد الطعن في هؤلاء الدعاة أو في هذه
الحكومات طعناً في الدين إلا إذا انصرف الطعن إليه وانصب
عليه في ذاته ، فالدين حقائق خالدة ثابتة ، أما هؤلاء الدعاة
ومتولوا شؤون هذه الحكومات فهم بشر من الناس يصيبون
ويخطئون ، وقد مجد المؤلف عهد الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأشاد
بذكر الحكومات التي خلفته في العصر الإسلامي الأول ، وقال إنه
توافر لها كل عناصر النجاح والتقدم وإنما وجه المؤلف نقده إلى
ما عداها من الحكومات الدينية التي وصفها بأنها كانت تحكم بها
وتزعم أنها تحكم بما أنزل الله وتفسر وجودها بأنها ظل الله في
الأرض وإذا تسال عن دستورها الذي تخضع له وتقوم به تفر
وتهرب إلى الغموض الذي لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول
هو الدين هو القرآن ، مع أنها ما كانت تستلهم مبادئها وسلوكها
من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، بل من نفسية الحاكمين
وأطماعهم ومنافعهم الذاتية . ونعى المؤلف على رجال تلك الحكومات
التي انقرضت وأصبحت أثراً بعد عين ، أنهم كانوا يستغلون

القرآن استغلالاً سيئاً ويفكون دم المسلمين مسلحين ببعض الآيات
 القرآنية والأحاديث النبوية ، مستغلين ما تختمله هذه وتلك من
 وجود ومعان عدة . وواضح من هذا أن المؤلف إذ قال إن القرآن
 حمال أوجه وكذا الأحاديث لم يقصد التعريض بكتاب الله وسنة
 رسوله ، بل التعريض بأولئك الذين استغلوه استغلالاً مفرضاً ،
 وقد نسب المؤلف إلى علي بن أبي طالب أنه قال : « إن القرآن
 حمال أوجه » . ولم تنكر لجنة الفتوى صدور هذا القول من علي .
 هذا إلى أن أبي نعيم أخرجه عن ابن عباس وهو من أجلاء الصحابة
 أنه قال : « القرآن ذل ذو وجود فاحملوه على أحسن وجوهه » .
 وقال الألوسي في مقدمة تفسيره : « إن بعض من يوثق بهم قال :
 « إن لكل آية ستين ألف فهم » . وقال ابن جزى الكلبي في مقدمة
 تفسيره : « إن الطوائف المختلفة من المسلمين تعلقوا بالقرآن وكل
 طائفة منهم تحتج لذمها به وترد على من خالفها وترجم أنه خالف القرآن ،
 ولا شك أن منهم الحق والمبطل وأن بعضهم يرجح المجاز على
 الحقيقة فذهب أبي حنيفة يقدم الحقيقة لأنها الأصل ، ومذهب
 أبي يوسف يقدم المجاز الراجح » . وقال تعالى وهو أصدق القائلين :
 « هو الذي أنزل عليك الكتاب منه آيات محكمات هن أم الكتاب
 وأخر متشابهات . فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه
 ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في
 العلم يقولون آمنا به كل من عتد ربنا . وما يذكر إلا أولو الألباب »
 وحيث إن لجنة الفتوى أخذت على المؤلف قوله إن مهمة الدين
 لا تعدو الهداية والإرشاد وأن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل
 شخصية الحاكم لولا الضرورات الاجتماعية التي ألجأته إلى ذلك لتحقيق

المنفعة والسعادة لشعبه الجديد مع أن الشئون التي باشرها النبي
 من قيادة الجيوش والمفاوضات وعقد المعاهدات وغيرها إنما هي
 من مهته الدينية وعنصر من عناصر الرسالة . على أن المؤلف فيما
 قاله لم يشكر ركناً من أركان الدين ولم ينتقص من قدر رسول الله
 فقد قال صراحة إن مقام الرسالة أرفع مقام . وأن الرسول عليه
 السلام كان يحس احساساً واضحاً بمهته ويعرفها حق المعرفة وهي
 أنه هاد وبشير وليس رئيس حكومة ولا جباراً في الأرض قد
 أيد ذلك بأحاديث نبوية صحيحة . وهو مؤيد كذلك بقوله سبحانه
 وتعالى : وما أرسلناك إلا مبشراً ونذيراً ، وقوله تعالى : إنما
 أنت منذر . وإنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وداعياً إلى الله
 بإذنه ومرجعاً منيراً ، ما عليك إلا البلاغ ، وقوله تعالى : ادع
 إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وقوله تعالى : وما أنت
 عليهم بجبار فذكر بالقرآن من يخاف وعيد . وقد قال المغفور
 له الأستاذ الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي في تعريفه بكتاب
 حياة محمد ، مؤلفه الدكتور هيكل باشا : أن الرسول أمر بأن
 يبلغ عن ربه ولم تبين له الطرق التي يتبعها في التبليغ وفي حماية
 الدعوة وترك له أن يتصرف بمقله وعمله وفطنته كما يتصرف غيره
 من العلماء والعقلاء . وجاء الوحي مفصلاً قاطعاً في كل ما يختص
 ذات الأله ووحدته وصفاته وكيفية عبادته ولم يكن كذلك فيما
 يختص بالنظم الاجتماعية للأسرة والقرية والمدينة والدولة منفردة
 ومرتبطة بغيرها من الدول . وقد صار النبي مبلغاً عن ربه داعياً إليه
 حامياً لتلك الدعوة وللحربة الداعين مدافعاً عنهم وأصبح حاكماً للأمة
 الإسلامية وقائد حربها ومفتيها وقاضياً ومنظماً جميع الصلات

والروابط فيها وبينها وبين غيرها من الأمم وقد أقام العدل في ذلك كله وألف بين أمم وطوائف ما كان العقل يسيغ إمكان التأليف بينها وظهرت الحكمة والرصانة وبعد النظر وكمال الفطنة وسرعة الخاطر وقوة الحزم في كل ما صدر عنه من قول أو فعل .

وحيث أن لجنة الفتوى أسندت إلى مؤلف الكتاب أنه عرض بركن من أركان الدين وهو الزكاة وخاض عليه ثواباً قرز منه النفوس ويجعله مظهراً من مظاهر المذلة والخوان .

وحيث أنه لاشك في أن الزكاة ركن من أركان الدين الخمسة وقد أمر الله سبحانه وتعالى بها بقوله : خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وبين سبحانه وتعالى مصارفها بقوله : أنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ، وقد وضعها الله جانب الإيمان به بقوله تعالى : خذوه فقلوه ثم الجحيم صلوه ثم في سلسلة ذرعا مسبوعون ذراعا فماسكوه إنه كان لا يؤمن بالله العظيم ولا يحض على طعام المسكين ، وقد قرنها الله بالصلاة في كثير من المواضع ، ومن ذلك قوله تعالى : والذين هم من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل وفي الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة ، وقوله تعالى : وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين . وقوله تعالى : قد أفلح المؤمنون الذين هم في صلاتهم خاشعون والذين هم عن اللغو معرضون والذين هم الزكاة فاعلون . وفي هذا ما يدل على أن الزكاة عبادة

و فرض واجب فالمؤمنون إخوة ولا يتم إيمان المرء حتى يحب
لأخيه ما يحب لنفسه .

وفريضة الزكاة تنصل هذا الإخاء ولا تنصل بالأخلاق وتهذيبها
ولا بالمعاملات وتنظيمها . وما انصل بالأخاء انصل بالإيمان بالله
ومن أجل ذلك قام أبو بكر بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم
بطالب المسلمين بأدائها واعتبر نكولهم عنها ضعفاً في إيمانهم وتفضيلاً
للمال عليه وخروجاً على النظام الروحي الذي نزل به القرآن
وارتداداً عن الإسلام فكانت حروب الردة التي ثبت بها أبو بكر
رسالة الإسلام كاملة .

وحيث إن المؤلف لم يحدد الزكاة ولم ينف أنها ركن من أركان
الدين . وهو لم يحقر الصدقة ذاتها بل حقر المسألة . فقد قال إن
الصدقة في عصر الرسول وفي لغة القرآن تعني ضريبة مفروضة هي
ضريبة الزكاة التي نزلت فيها الآية . أخذ من أموالهم صدقة تظهرهم
وتركهم بها . وأنها مباحة للأفراد الذين لا يجدون ما يقيم أودهم
ويسد رمقهم . وقد أورد المؤلف ذلك في مقام الرد على أولئك
الذين يقولون بأن الصدقة نظام اقتصادي واف ووسيلة ناجحة لمحاربة
الفقر وإسعاد الشعب . فقال إنه لا يمكن معالجة حقوق الشعب
في الحياة بالصدقات وإن الدين يمجّد العمل ويأمر بأن يأخذ العامل
حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء وإن المستمع لأصحاب
ذلك الرأي ليكاد يندفع فيصدق أن الصدقة هي كل ما يستطيع
الإسلام أن يقدمه للشعوب من عدالة ومساواة . مع إن الإسلام
حين دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي لم تكن الصدقة في حسابه
قط كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . وأن هؤلاء القوم إذ يجعلون

الصدقة نظاما اقتصاديا مشروعا إنما يفتحون باب المسألة على مصراعيه مع أن الرسول عليه السلام ذم المسألة إذ قال : المسألة كالوح في وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة . وإنما هي رصف من النار ملهية .

وحيث إن ماورد بالكتاب عن ذم المسألة والتعفف عنها صحيح ، فقد جاء بالجزء الثالث من كتاب فتح الباري ومن الجامع الصحيح للإمام البخاري أن رسول الله قال : ومن يستغفب يغفره الله ومن يستغن يغنه الله ومن يتصبر يصبره الله وما أعطى أحد عظاما خير وأوسع من الصبر . وأنه قال أيضا : لأن يأخذ أحدكم حيله فباتى بحزمة من حطب على ظهره فببيعها فبكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه ، وأنه قال : ما زال الرجل يسأل حتى يحى يوم القيامة ليس في وجهه رعة لحم ، وأنه قال : اليد العليا خير من اليد السفلى . وقد مر هذا الحديث الأخير بأن أعلى الأيدي هي المنفقة ثم المتعفف عن الأخذ ثم الأخذة بغير سؤال ، وأن أسفل الأيدي السائلة والماتعة .

ويؤخذ مما روى عن النبي من الأحاديث المتقدم ذكرها وغيرها أنه كان يحض الغنى على الصدقة ، كما كان يحض الفقير على التعفف عن المسألة والتزهد عنها ، ولو اهتم المرء نفسه في طلب الرزق وارتكب المشقة في ذلك لما يدخل على السائل من ذل السؤال ، ولما يدخل على المستول من العتق في ماله إن أعطى كل سائل . وأما من يسأل مضطرا فلا جناح عليه وقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم كذلك أنه قال : الصدقة أوساخ الناس وأنها لا تحل لآل محمد وفي رواية أخرى : إنا آل محمد لا نحل لنا الصدقة .

ولعل الحكمة في ذلك أن الصدقة إنما يصرفها المتصدق على محتاج يريد بها وجه الله .

وحيث إن لجنة الفتوى نسبت إلى المؤلف أنه قال أن الدين لا يصح أن يعتمد — فيما يعتمد عليه في إصلاح المجتمع — على العقوبة . وقد تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف كان يرد على القائمين بوجوب قيام حكومة دينية تتولى القضاء على الرذائل . فقال : إنه لا سبيل للقضاء على الرذائل إلا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها ، وأن الدين وحده — من غير أن يكون دولة — هو القادر على أن يوقظ في الضمائر واعظ الله ، أن الدولة لا تستطيع بقوانينها أن تهيب الناس نقاوة النفس . وأن نفوذ الدين وأثره في مكافحة الرذيلة ليكونان أرسخ قديما وأقوم سديلا حين يسلك طريقه إلى النفوس بالتسامح والرفق والحجاج الهادئ والمنطوق الرصين .

وحيث أن المؤلف لم ينكر ما أمر الله به من حدود ، وإنما قال إنه لا ضرورة لقيام حكومة دينية من أجل إقامة هذه الحدود خاصة وأن هذه الحدود نادرة التطبيق عملا ، إذ أن حد السرقة بوقف أبان المجاعات ولأن حدى الزنا والخمر يصعب اثباتهما شرعا — وإن ما ذكره المؤلف عن هذه الحدود صحيح في جملته ، فقد جاء بالجزء العاشر من كتاب (المغني) أن عمر بن الخطاب قال : (لا قطع في عام سنة) وأن أحمد بن حنبل قال : (لا قطع في جماعة) وأن الأقارب بالزنا نادر الحصول وبينته أربعة شهود عدول مسلمين ويشترط فيهم أن يشهدوا بأنهم رأوا ذكر الرجل في فرج المرأة كالمرود في المسكحلة والرشاء في البئر وأن بينة الخمر شاهدان يشهدان بأنهما رأيا الشارب يشرب مسكرا ، ولا يشترط فيهما —

على خلاف ما ذكره المؤلف - أن يشهدا بأن الشارب شرب مختاراً
عالمًا بأنه مسكر ، لأن الظاهر أن الاختيار والعلم وما عدهما نادر
بعيد ، هذا إلى أن الشريعة الإسلامية تميل إلى التشدد في الإثبات
والخرج في إقامة الحدود بدليل قوله عليه الصلاة والسلام : تعافوا
الحدود فيما بينكم فما بلغت من حد فقد وجب . . وقوله : « ادروا
الحدود بالشبهات ما استطعتم » ، فإن كان له مخرج نفلوا مسيله فإن
الإمام إن يخطئ في العفو خير من أن يخطئ في العقوبة . .

وحيث أنه تبين بما تقدم أن المؤلف لم يطعن في الدين ذاته ولم
يجهد كتاب الله وسنة رسوله ، بل مجد الله وكرم الرسول في أكثر
من موضع من كتابه وقال : أنه يحب تقديم الدين للناس وضيق
منألقا كيوم نزل من لدن عزيز حكيم عليهم ، وهو لم يخرج فيما كتب
عن حد البحث العلني والفلسفي ، وإذا صح أنه أخطأ في شيء مما
كتب فإن الخطأ المصحوب باعتقاد الصواب شيء ، وتعمد الخطأ
المصحوب بنية التعدي شيء آخر ، ويشترط للعقاب بمقتضى المادة
١٦١ عقوبات أن يكون الجاني قد تعدى على الدين أى أهانه
وامتهنه أو ارتكب ما من شأنه المساس بكرامته أو انتهاك حرمة
والخط من قدره والازدراء به ، وأن يكون قد قصد ذلك وتعمد
ولما كان شيء من ذلك لم يتوافر في حق مؤلف الكتاب فلا جريمة
ولا عقاب .

وحيث أنه فيما يتعلق بالجريمتين الأخريين اللتين أسندتهما
النيابة العامة للمؤلف ، فقد تبين من مطالعة الكتاب أن المؤلف
قال : ان المجتمع المصري كسائر المجتمعات العربية تعمل فيها جميعاً
كوا من الكبت والحرمان ، وبدأ التذمر على كل لسان ووجه .

وهذا التدمير خطر على حياة الأمة ولا يمكن أن يستهين بعاقبته حاكم
له بصير بالأمور . وأن المسئولية الكاملة لتجتمع على كاهل الرجعية
الاقتصادية التي تمتص أحياء من الشعب ونعرف كل اتجاه نحو
اشتراكية يائسة وأنه يجب مكافحة سياسة التجريح التي تمثلها تلك
الرجعية الاقتصادية في بلاد العرب قاطبة ومكافحة الاستغلال
الفردى لأنه مهيب كل عاصفة وكل إعصار وييل . وقال إن المالكيات
الزراعية موزعة توزيعاً سيئاً وأن أجور الأحياء الزراعية مرتفعة
ارتفاعاً فاحشاً مرهقاً للسناجدين ، وإلى ذلك ترجع أكثر أسباب
الغلاء الذي يئن الشعب منه ، وإنه يوجد تفاوت كبير بين طبقتي
المجتمع . ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت الكبير أنه يقسم
الأمة على ذاتها ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر أحدهما الأدنى
ويتمت أدناهما الأعلى ، ويربص كل مهما بالآخر مضراً له كل
كل كراهية وسوء . ومهما حاولنا إرضاء هذا الفريق برفع مرتبه
وتحسين دخله فإنه لن يرضى لأن مشكلته لا تمثل فقط في حرمانه
بل وفي هذا الترف المسعور الذي يعيش فيه الآخرون ، فإيا كانوا
أكثر مما ينبغي أن يأكلوا ، ويلبسون أكثر مما ينبغي أن يلبسوا ،
ويرغدون أكثر مما ينبغي أن يرغدوا . ويجلسون فوق أهرام من
الذهب بينما بقية المجتمع تقف من آلامها وحرمانها . وأن كثيرين
من هؤلاء السادة سارعوا عند ما قررت الحكومة مجانية التعليم
الابتدائي منذ أربع سنوات إلى سحب أولادهم من مدارس الحكومة
حتى لا يخالطوا فيها الفقراء والرعاع . وإن وراء هذا التصرف المخجل
إيماناً عربيقاً بالاستقراطية وحرصاً شديداً على الامتياز والاستعلاء
وجاهلية نائية لانقرها أخلاق الدين ولا أخلاق الدنيا . وضرب

مثلا بما حصل في عهد الرسول إذ جاءه وفد من أعيان مكة وقالوا له : يا محمد لقد رضينا أن نستمع إليك ولكننا لانجالس هذه الأخطا من عبيدنا وصعاليك مكة الفقراء فاجعل لنا يوما ولهم يوما . فاستمهم الرسول حتى يأتي أمر ربه . وسرعان ما جاءه الوحي الرشيد بآيات باهرة إذ قال تعالى : ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء فتطردم فتكون من الظالمين . فاحسن الرسول إليهم وخاطبهم بقوله : أهلا بمن أوصاني بهم ربي ، وقد عاقى المؤلف على ذلك بقوله : ما أخرج هؤلاء الذين يستكفون عن زمالة الشعب إلى هذا الدرر البليغ الصارم ليظامنوا من صلهم وينهوا من كبرائهم . ثم قال المؤلف إنه إذ ينقد الرأسمالية لا ينسى أنها عامل من عوامل الرقي وأحد الأطوار التي يمر بها التقدم وهو ماض إلى غايته ، وهو لا يسألها إلا أن تفسح الطريق لاستراتيجية عادلة يطلبها الشعب ويريدها ، وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام . وقال إنه يجب علينا أن نعمل لسلامنا الخاص أولا وقبل كل شيء وأوجه كل جهودنا وإمكاناتنا لخدمة أنفسنا ومصلحتنا الخاصة وإذا بقي من جهدنا فائض ومزيد لانحتاج إليهما فلا مانع من اسباغهما على الآخرين .

ولهذا يجب على الحكومة أن تعمل على ألا يوجد بيننا جوع ولا جوع ، ولا يجوز لها أن تسلك سبيل الشح على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب ، وإنه ليس للحكومات في هذا العصر من رسالة سوى تحقيق المنفعة الاجتماعية للشعوب وإن الشعب بطبيعته يريد دائما أن يرقى ولا ترى الحكومة الحصيفة أي تريب عليه في ذلك

مادام العقل والحكمة والنظام هم حداته إلى حقوقه ومادامت هي
 نفسها تعينه على حفظ النظام . وقال إن الحرص على سلامة بلادنا
 وتجنّبها ويلات الفتن والاضطرابات يقتضي أن نعمل على مكافحة
 الجريمة والقضاء على العوامل التي تيسر نشوءها . . . وإنه يفتت الجريمة
 مهما تكن بواعثها وأسبابها ويعتقد أن عبور الحياة في زورق
 جميل مهما طالت رحلته خير من عبورها في مدرعة ، ولو أبلغتنا
 الهدف في لحظات . ثم قال إنه لا يدعو إلى إزالة كل فارق وحاجز
 بين الناس فهذا أمر مستحيل وإنما يدعو لتقريب المسافة البعيدة
 الفاصلة بين طبقتي الأمة وتوزيع الفرص على المواطنين توزيعاً يقضي
 على التفاوت القهري الذي يشطر وحدتها النفسية والفكرية . وإنه
 لا سبيل إلى إصلاح الأمور إلا إذا تسلحنا بروح الإنصاف وأمنا
 بضرورة حدوث تحول اجتماعي شامل وبذلنا جميعاً حكومة وشعباً
 محاولة صادقة لانتهاء هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة
 ومن غير أن يكفر بعضنا ببعض ويذل بعضنا بعضاً . ولا شيء يحسم
 الفوضى التي نعانيها مثل أن نخطو خطوة كذلك التي خطتها إنجلترا
 مثلاً فنحول من مجتمع رأسمالي متطرف إلى مجتمع اشتراكي شامل
 رشيد وديع معتدل تنظم الاشتراكية كل مرافقه أو جعلها وتتحرر
 فيه قوى الإنتاج المحبوسة في أيدي الرأسماليين المتطرفين ، وإن العدالة
 الاجتماعية فطرة أحست بها الإنسانية منذ أحست بوجودها ومنذ
 سمعت وجيب الوعي والحياة يخفق بين جنبيها . وهي ليست رومانية
 الجنسية ماركية الدم وليس ضريبة لازب أن يكون المؤمنون بها
 الداعون إليها بلا شفة يعذبون ويضطهدون . وإن إنجلترا ليست
 شيوعية وهي التي صعدت بالضريبة التصاعدية إلى ٤٤ في المائة

وراحت في سرعة البرق تؤمم الملكيات الانتاجية الكبرى . وإن
النظام الذي يحقق العدالة الاجتماعية في العهد الحاضر هو الاشتراكية
ولاشيء سواها . وأن حق الملكية الشخصية أمر مفروغ من ثبوته
شرعا وعقلا وعرفا وتعترف به البلاد قاطبة لرعايا ومواطنيها غير
أن هذا لا يمنع الحكومة من أن تختار نوعا معيناً من الملكية وهو
الملكيات الانتاجية وتحرره من أيدي الأفراد وتشرف عليه لصالح
الامة . إذ التأميم هو الوضع الطبيعي الذي أخذ المجتمع الإنساني
يسارع إليه فهو يؤدي إلى تحرير قوى الانتاج المحبوسة في أيدي
الرأسماليين وبقضى على الفروق الاجتماعية والتفاوت الكبير في الدخل
المالي ، وقال أن الحكومة المصرية أحسنت صنعا بفرض الضريبة
التصاعدية وضريبة التركات وزيادة إعانة غلاء المعيشة . وأهاب بها
أن تعمل على زيادة مرتبات صفار الموظفين ، والحد من التفاوت
الكبير بين ما يكسبه رب العمل وما يكسبه العامل وإصلاح حال
العامل الزراعي : ونأمل لماذا لاتصنع الحكومة كما صنعت تركيا
إذ اشترت الإقطاعيات الكبرى وباعتها للفلاحين وقسمتها عليهم
قسمة عادلة فاضلة مرضية ، ودعا الحكومة إلى أن تستصدر قانونا
بتحديد الملكيات الزراعية على غرار مشروع كان قدمه أحد الشيوخ
المحترمين للبرلمان وإذا كان الحد الأقصى للملكية الذي اقترحه الشيخ
المحترم وهو خمسون فداناً لا يرضى أصحاب الإقطاعيات الكبرى
فلا مانع من رفع هذا الحد إلى مائة فدان . وإذا لم تر الحكومة
الاستجابة إلى هذه الرغبة الآن فلا أقل من أن تسارع إلى استصدار
قانون بتخفيض إيجار الأقطان الزراعية وتحديد ها .

وحيث أنه يبين عما تقدم أن المؤلف استعرض الحالة الاجتماعية في البلد ونقد منها ما رآه خليقا بالنقد وحن ما رآه حسنا . فقد نقد الرجعية الاقتصادية والرأسمالية المتطرفة . وأفصح عما تعانيه غالبية الشعب من فقر وحرمان وما بدا عليها من تدمير بينما قلة من الشعب تنعم بالثراء الوفير ، وعما بدا من كثيرين من هؤلاء السادة من تعال على الفقراء . وهذا الذي قاله المؤلف لا يعدو حدود النقد المباح وليس فيه ما يفيد تحريض طائفة على بغض طائفة أخرى أو أنه قصد إلى شيء من ذلك . بل يبين من ثناياه أنه قصد إصلاح حال البلد وإسعاد الشعب وهنائه . وقد أورد المؤلف في كتابه ما يراه من ضرور الإصلاح ودعا إلى اشتراكية رشيدة ودبعة معتدلة وقال إن هذه الاشتراكية هي التي تحقق العدالة الاجتماعية ولا شيء سواها وهو لم يحذف الشيوعية ومبادئها أو أى مذهب من المذاهب التي تنطوي مبادئها على استعمال القوة والعنف لتحقيق هذه المبادئ . بل صرح بما يتقضى ذلك ودعا الشعب إلى التماس العقل والحكمة والنظام والرفق والنساج والحنان والآباء والإنصاف . ودعا الحكومة إلى العمل على تحقيق ما ارتآه من وجود الإصلاح .

هذا إلى أن ما ذكره المؤلف عن الفقر وهبوط مستوى المعيشة وما إلى ذلك ليتردد على لسان كل من يسعى إلى الإصلاح ويتنغمه . وقد سجلته اللجنة المالية بمجلس النواب في تقريرها عن مشروع الميزانية العامة للسنة المالية إذ قالت : « إن تنمية موارد الدخل القوي وكفالة العدالة الاقتصادية هما السبيل إلى الإصلاح الاجتماعي الذي يريه المجتمع المصرى من إدارته . وإن مصر تعاني من قلة الانتاج وهبوط مستوى الدخل ما تعاني ، يجب العمل على رفع

مستوى الغالبية العظمى من الشعب التي افتقرت ولا تزال تفتقر إلى مطالب العيش الأساسية لكي تحول دون انتشار النزعات المتطرفة إذ ليس ثمة شك في أن انحطاط مستوى المعيشة وقسوة الفقر والمرض والجهل تربة خصبة لتفشى هذه النزعات وأن السيل إلى مكافحتها هو رفع مستوى المعيشة لكافة أبناء البلاد فليست قوانين البلاد كافية وحدها بعلاج الداء . بل إن العلاج الشافي هو امتصاص الداء من منبئه بالقضاء على أسبابه وقد اتجه التفكير إلى تحديد الملكيات الكبيرة كوسيلة من وسائل تحقيق العدالة الاجتماعية . غير أن تجارب مختلف الأمم في هذا الشأن قد دلت على أن العدالة الاجتماعية لا تتحقق عن هذا الطريق وحده إذ في تناول الدولة تحديد دخل كل طبقة من طبقات الأمة عن طريق فرض الضرائب بأنواعها وعلى الخصوص الضريبة التصاعدية على الإيراد العام .

وحيث إن حرية الرأي مكفولة في حدود القانون . ولما كان الكتاب المضبوط لا ينطوى على جريمة ما ، فإنه لا يكون ثمة محل لضبطه تطبيقاً للمادة ١٩٨ عقوبات ، ومن ثم يمين إلغاء الأمر الصادر بضبطه والإفراج عنه .

فلمذه الأسباب

قررنا إلغاء الأمر الصادر بضبط كتاب ، من هتانبدا ، مؤلفه الأستاذ خالد محمد خالد ، والإفراج عن هذا الكتاب .

صدر هذا القرار وتلى علنا في يوم السبت ١٠ من شعبان سنة ١٣٦٩ هجرية الموافق ٢٧ مايو سنة ١٩٥٠

رئيس محكمة القاهرة الابتدائية

مقدمة

انتهت التجارب إلى إجماع أكيد على أن : الاستبداد هو الآب الشرعي للمقاومة ، وإن الرأي المكظوم يتحول داخل النفس إلى قذيفة خطيرة . . . وأن أيسر الطرق لحصارة خصية ممرعة ، هو فتح منافذ الملاحة الفكرية ، والقضاء على كل بواعث التيبب في الشعب . وقد بآ قال : توماس بين : « حين يطرُق الرقي باب أمة من الأمم يسأل : أهنا فكر حر ؟ . فإن وجده دخل . . . وإلا مضى ، هذه حقيقة أولى .

وهناك حقيقة أخرى نقابلها : هي أن الشعب إذا أساء استعمال حريته ، ومارس حقّه ممارسة طاغية ، فقد وقع وثيقة عبوديته ؛ وأتاح للحكومة فرصة وضعه تحت الوصاية من جديد .

وجدير بنا ونحن في مبتكر طور حديث من أطوار غونا ، وفي مؤتلف وثبة نحاول بها اللحاق بموكب الإنسانية الناهضة ؛ أن ندخل هاتين الحقيقتين في حسابنا ، وننتفع بكل ما فيهما من معانٍ ودلالات ولقد أتى على جماهيرنا الكأداة حين من الدهر لم تكن شيئاً مذكوراً . فلما استيقظت من رقادها ، أدركت إلى حد ما ، حاجتها إلى مزيد من الوعي والانتباه لتستطيع أن تعرف عن أمرها شيئاً وتقدم إليها من الرواد والدعاة خليط متناثر من ذوى النيات الحسنة . والنيات السيئة . . . يحملون بضائع مختلفة من المذاهب والآراء .

أترى هذه الجماهير التي طال على جهلها ونومها الأمد . قادرة على التمييز والاختيار ؟

إن هذا الكتاب شجرة مهداة اليها لتبصر في ضوئها وترى . .
وكل ما نود أن ننصح به هو أن نبارك هذا الوعي ، وندعه ينمو
ويتسلق ، وألا نحاول قط كبحه أو زجره . . فإن ذلك هو السبيل
كل السبيل إلى خلق المجتمع الحر الباسل الذي نريد أن نكونه .
قد تصيب مرة وتخطئ مرات ، وتهتدي نارة وتضل ناراً
ولكنها أخيراً سوف تضع أقدامها على صراط الحقيقة والصواب
وتسير فوقه بخطى ثابتة أكيدة نحو أهدافها العادلة غير غلبة واجب
ولا مفردة في حق .

والويل للذين يلوثون أيديهم بخلق ذلك الوعي الوليد . ويل لهم
من الله ومن التاريخ ! فإنهم لا يقضون عليه وحده ، وإنما يقضون
على أجيال بأسرها سيكون هذا الوعي فجر حياتها وبداية خلاصها
إننا لن نقدم نجتمعنا في هذه الفترة الحاضرة خير أم الحرية .
كي يستطيع في ضوئها ومناها أن يرى ، ويفكر ، ويختار الطريق
القويم ، فلنذكر هذا جيداً حاكين ومحكومين .
وانتحرر من الخوف — هو نقطة البدء في طريقنا الطويل
ورحلتنا الشاقة .

ومن أجل ذلك يحى هذا الكتاب في أوانه ، ليقول للمجتمع :
لا تخف ! وليرزع من طريقه تلك الأشباح التي تخيفه ، وتغذله ،
وتملؤه روعاً ورعباً — كما يهيب بالمواطنين جميعاً حكومة وشعباً
وأفراداً ، أن يتحملوا تبعات الرشد في شجاعة وغبطة ، وأن يتقبلوا
الواجبات الجديدة التي تفرضها علينا الحياة وظروفها وإن يكون كل
مواطن منا أداة حية تساهم في التحول الاجتماعي الرشيد الذي
نتوق اليه ، والذي يجب أن يبدأ فوراً ، ويتم سريعاً .

إوقد تعجل . فتأمل : ما هذا التحول الاجتماعي وكيف يكون
وإن الكتاب ليحاول محاولة صادقة أن يجيب على هذا السؤال
وهو يرسم الخطوط الرئيسية لتحول اجتماعي وديع بفضي بنا إلى
قومية شاملة لا تتأخر فيها . . وإلى اشتراكية عادلة لا استغلال
ولا ظلم فيها . وإلى وعي ناضج سليم لا سلطان للرجعية ولا للكهنات
عليه . . وإلى سلام عامر يبدل حقبة المجتمع حياً . . وتربصه ولاء
وأمناً ، وقلقه استقراراً وغبطة وسكينة .

وإن إذ أقدمه لاجتماعنا المصري ، أقدمه لكل مجتمع عربي فإن
ما بين مجتمعاتنا من مشابه . وما بين أوضاعنا من تماثل . يجعل
الحديث عن أحدها ، حديثاً عنها جميعاً .

ونحن مهلمتون للبواغث النبيلة التي أوحى بهذا الكتاب .
والتي تصورها أصدق تصوير كلمة روسو : : إن إيماننا بالله .
وولاءنا للإنسانية هما اللذان يثيران في طبيعتنا الخيرة أعمق الحوافز
لتجعل من الحيوان البليد المسخر ، إنساناً بشرياً ناهياً .

ولست أرجو من الذين سبقوا أنه سري أن يبالغوا بمقوله
لا بعواطفهم وألا يصدفهم الرأي المخالف عن تدميره ويحتمه في هدوء .
والآن لنبدأ معاً . مزودين بالتفاؤل والتكافل وحسن الصحبة
إن الليل يوشك أن يتقوض . ويتولى .

ولجر المستقبل بكافح الظلام في قوة أخذنا طريقه إلينا . .
ولسكن حذار أن يخدعنا الفجر الكاذب الذي يسبقه .

أن السحب تنزاح عن سماننا . . والغيوم تجري . . تسوقها
رياح الحرية إلى منفاها البعيد . ومطالع الضوء تنسع رويداً رويد
مبشرة بالفجر الصادق ، والنهار البهيج .

الذين .. لا الكهانة

• رجل الدين الذي الجاهل يثير احتقارنا ،
ورجل الدين المتعصب الرديء يولد الخزع في
فؤوسنا — أما الناصح السامع ، البعيد عن
الخرافات ، فهو الجدير بحبنا واحترامنا .
(مونتج)

إن تصفية العلاقات بين المجتمع والدين ، هي بداية الطريق
المفضي إلى النماء والاستقرار .

وليس نمة ما ينفر الناس من دينهم ، مثل إبرازه في صورة
قوة عاتقة لنفوس ، مناهضة لحقوقهم ، مخدلة لطموحهم .
والدين في المجتمع الإنساني بأسره يمثل ضرورة اجتماعية لا غنى
للناس عنها . . . بيد أن الأمم تتفاوت في طرائق الانتفاع به ،
واستلزام مبادئه وتوجهاته ، كما تختلف في حرصها على أن يظل كما
أراد له ربه أن يكون ، مصدر قوة وإخاء ومساواة ، لا ظهير
أنانية وعدوان .

وبقاء الدين متربعا على عرشه المجيد ، يتوقف على أمرين :
أولهما - تفاعله المستمر مع حاجات الناس ، ومع الحياة ،
حتى تستطيع البشرية أن تجد منه عوناً دائماً يمكنها من مواجهة
مشاكلها المستحدثة ، وضروورها الطارئة ، ويبارك عاوانها المستمرة
للتقدم والوثوب .

ثانيهما - احتفاظه بخصائصه الذاتية الكبرى . وأهدافه التي
من أجلها شرع ، الله وأزله . . . وهي إسعاد الناس سعادة واقعية
في نطاق المساواة النبيلة التي جاء يعلنها ويحرض عليها .

وأنا اليوم أسمع صراخاً بوجوب العودة إلى الدين ، إلى أي
دين يدعو هؤلاء المنصبجون ؟

هناك شيء اسمه الكهانة انحدرت إلينا من القرون الأولى . .
وهي ذات تعاليم ومبادئ ضارة وقائلة : ! أرادت أن تستغل ولاء
الناس للدين فليست لبوهم ، وتشبهت به ، بل واستطاعت أن تتطفل
عليه وتخالط بعض تعاليمه . ثم راحت تنفث سموها المبيدة في دأب

ومثارة ، مباركة الرجعية الاقتصادية والرجعية الاجتماعية مدافعة
عن مزايا الفقر والجهل والمرض :

ولم يبق أمام الحكومات والمجتمعات التي تحترم دينها وتحرص
عليه ، إلا أن تبادر بكل وسيلة مستطاعة ، إلى عزل هذه الكهانة
الخبينة وتنقية الدين من شوائبها ، حتى يظل ولاء الناس له وإعجابهم
به . . وإن الفصل الأول من الكتاب ليس سوى محاولة متواضعة
في هذا السبيل . . نريد أن نميز بين الكهانة السكتية والدين الرشيد
وبذلك نتبع فرصة الذين صرفتهم الكهانة عن الدين . كي يجربوه
مرة أخرى . . وسوف يجدون منه في صورته الصحيحة . زميلاً
مؤثراً مسعداً في رحلة الحياة كلها .

وإننا ندعو المتصالحين ضرورة العودة إلى الدين والمنظاهرين
بالغيرة عليه . أن يسلكوا هذا الطريق ، فيعمل كل في نطاق
امكانياته على بث تعاليم الدين الصحيحة ، وتطبيق مبادئه الإنسانية
تطبيقاً يرفع عن المجتمع إصره وأغلال الضرورات التي تجعل
حياته عبثاً لا يطاق

والآن ... إلى أي شيء يدعو الدين ... ؟

ولكن قبل ذلك ... ماهي الكهانة ... ؟

السالة المتشابهة :

حين ننصت إلى العلامة . ه . ج . ولز ، وهو يتحدث في كتابه
معالم تاريخ الإنسانية ، عن نشأة الكهانة ، ويصور لنا ملاحظها .
بأخذنا العجب لكثرة المشابه القائمة بينها وبين الكهانات المتفشية
في بلادنا 1 ونقف على تفسير صحيح للرجعية الممثلة في التقهر التي
تتميز بها الكهانة المعاصرة .

فإلى أى شيء تدعو السكينة . . ؟

نستطيع أن نعرف الجواب ، من مناوأتها الحادة لرغبات المجتمع
وطموحه . فعندما تشد إحساس الشعب بيؤسه وخصاصته ، وتضرم
شوقه إلى عدالة اجتماعية ، يستجيم فيها من وعاء لغوبه الطويل ، وبدأ
كان الفرص تستجيب له وقام « جلالة الملك » يمد بنفسه طريق
البقطة الشعبية الزاحفة ، ففاجأ مجلس الوزراء فى إحدى جلساته ،
وخطب الوزراء بنبيرات حازمة مؤثرة . تحمل آلام عشرين
مليوناً من البشر : ، جئت لأطالب بحق الفقير والمحروم والمريض ، ا
عند ما حدث ذلك . . . رأينا السكينة المصرية تختطف مذهبا
عجيا . . إذ راحت تطر الزنس بخرافاتها ، وسال جيشاؤها سبيل الحرم
حاملا مبادئها الحزينة المدبرة داعية الناس إلى القناعة المقدسة . بيد
أن السكينة أنفسهم ألد أعداء القناعة ، وأسبق العالمين إلى اقتناص
المغانم ، والبحث عن المال والجاه !

وهذا خاق لها قديم كشف عنه العلامة ولز فى كناية الجليل .
ولنه لأمر يشير الاشتماز ، أن يخرج العالم جميعه من الحروب
الآخيرة بمجد آ كافة مواهبه ورجاله وإمكاناته لانعاش الشعوب ،
ونهيئة حياة عمره لها ، ونرى كل أمة تعمل داخل بلادها وخارجها
كى تحقق هذا الهدف ، ونسمع الدول الرشيدة جميعا تنادى : بأن
المعدة الممتلئة هى العلاج الحاسم لمشاكل العالم . . نسمع هذا وزراه
ولسكن السكينة نأى أن تسمع وترى أنهم تبهر الناس باكتشافها
البديع الذى سيضم دجراح الإنسانية ، ويدفع عنها إصرها ، ويجعلها
فى غنى عن كل النظم والمذاهب والنظريات . ا
أجائع أنت وعريان . . ؟

امريض أنت أو جاهل . . . ؟

وهل يستبد بك القلق والحيرة والتذمر ؟

لا تأسوا أيها المرضى والمحرومون والمستضعفون . .

إن الكهانة ستبدل خوفكم أمناً ، وفقركم ثراء ، وسقمكم عافية

بهذه النظرية الرائعة ، وجوعو نصحواء ١١

هذه هي دعوة الكهانة ورسالتها . . وهي قادرة على أن تمنعك

بأن (الفقر محبوب) ! الفقر الذي كان رسول الله يصيحه باللعنة

ويعسبه . . والذي يقول فيه علي بن أبي طالب : ما ضرب الله عباده

بسوط أو جمع من الفقر هذا السوط المعزق الكاوي . ندعو الكهانة

بالفقر المحبوب ، وهي لا تألو جهداً في التبشير به ، والدعوة إليه .

ولا أزال أذكر ، يوم طالب الأزهريون ببعض حقوقهم

المادية كلبة لأحد الكهنة نشرها في صدر صحيفة يومية وقال فيها :

(إنه ليحزننا اهتمام الأزهرين بالأرزاق والدرجات . إن العلم

والدنيا لا يجتمعان في قلب واحد . . فليختر الأزهريون لأنفسهم

إما العلم وإما الدنيا) . مع أن ذلك الكاهن يملك عمارة نخمة ،

وموارد ثرة ، وتساقط عليه الأوقاف والعطايا . . فكيف اجتمع

الدين والدنيا في قلب هذا المبقرى القذ ١٢

ولقد قامت طائفة مثقفة من العلماء والكتاب باطلاق مدفعيتهم

الثقيلة ، على الدعاية الخبيثة الضارة التي نستغلها الكهانة لصرف

الشعب عن حقوقه في الحياة . لذلك لا أجدني في حاجة إلى تكرار

القول في هذا الموضوع . وحسبنا أن نكشف عن البواعث التي

تحفزها إلى إحاطة المظالم الاجتماعية بأسوار شاهقة من الأكاذيب

والخرافات . ثم نكشف عن أهدافها وغاياتها الخفية التي تعمل لها ،

ونقيم الدليل على أن تقويض المجتمع نتيجة لا بد منها إذا ظلت هذه
الكهانة سادرة في طريقها ، تؤيدها الحكومة وتمنح سلطانها .
والآن . . . نتقدم بهذه الأسئلة :

ماذا تريد الكهانة بدعوتها الناس إلى الفقر ؟
ولماذا تسخر نفسها للدفاع عن مصالح الكبار ؟
ولماذا تكافح كل محاولة لتحويل اجتماعي يريده المجتمع وينضم
شوقاً إليه . . ؟

سندع العلامة ولن يجيب على هذه الأسئلة ، مكتفين بأن نقول :
إن الكهانة تتجه هذا الاتجاه بدوافع تقليدية من منة . إذ هي امتداد
للكهانة الأولى التي تميزت بخصائص تركزت في طبيعتها واستقرت
في أعماقها ، وأصبحت فيها كالغرائز تنوارتها سلاسلها المتتابعة المنشأمة .
يقول ولن : « كان الكهنة يلتقون الناس أن الأرض التي يزرعونها
ويبدأون فيها ، ليست لهم . وإنما هي للآلهة التي في المعابد . وقد يهبها
الآلهة (للحكام) ويهبها (الحكام) لمن يشاءون من خدمهم وموظفيهم .
و . . . واستكشف الرجل العادي شيئاً فشيئاً إن الرقعة التي كان
يزرعها لم تكن له . إذ كان الرب مالِكها . . . وعليه أن يدفع جزءاً
من محصوله للرب . . . أو أن الإله قد وهبها ، للحاكم ، وللحاكم أن
يفرض عليها ما يراه من الضرائب ، أو أن الحاكم ، قد منحها إلى
موظف ، هو سيد للرجل العادي . . . وكان للرب أو للحاكم أو للسيد
في بعض الأحيان عمل يجب قضاءه ، وكان لزاماً على الرجل العادي
عند ذلك أن يترك رقعته ويشغل لمولاه . ولم يحدث قط أن تحدّد
في ذهنه ولا أن اتضح لديه تماماً أمر رقعة الأرض التي كان يزرعها
وإلى أي حد كانت ملكيته لها . . . »

... وفي مصر كانت المعابد ، أو فرعون الرب ، أو من دون فرعون من النبلاء ، هم الذين يتلقون الإيجار . ولم يستطع الرجل العادى أن يحافظ على النسبة بينه وبينهم ، فانحطت بدرجات غير محسوسة إلى حال تقليدية مزمنة من التهمة والخضوع ...

... وبلغ الأمر أن كبار الفاتحين ، في العصور الأكثر تأخرًا ، كانوا حريصين على أن يضعوا أيديهم في أيدي كهنة الشعوب والمدائن التي يبتغون طاعتها . مظهرين بذلك نفقتهم بهم وإكبارهم لإياهم ، بسبب عظيم نفوذ هؤلاء الكهنة على عقول الناس .

... وكان بعض الكهنة من القساة الغلاظ الأكباد ، وبعضهم من ركب على الطمع والفساد . وكان سلطان الكهانة يقوم في نهاية الأمر على إقناعها الناس بأن كل أضرار نشاطها تقسم بالعطف والرحمة . إذن ليس للرجل العادى من الأمر ، ولا من الحياة ، ولا من الأرض شيء .

وإنما كل ذلك منحة ينالها بعض المحظوظين بالطريقة التي سبق ذكرها . وعلى الذين حرمتهم الآلهة من خيرات الحياة أن يسمعوا ويطيعوا ، ويتجرعوا القصة في صمت ، ويطلقوا على المصنوع في رضا وهوان .

هذه هي تعاليم الكهانة منذ آلاف السنين . فهل تراها تغيرت ولو قليلاً ؟

إن الرجل العادى ، رجل الشارع الكادح الدموب . لا يزال قريسة هذه الكهانة تدعوه إلى الرضا والتسليم ، بل وإلى الاغتيال بما هو فيه من سغب وشقاء ! ويتفاوت تأثيرها حسب تفاوت الوعي بين ضحاياها .

ففي الين مثلا نرى الكهانة صورة طبق الأصل لتلك التي حدثت
عنها ولز . ونرى الرجل العادي هناك هو نفس الرجل العادي القديم .
ولقد حدثني صحتي زار الين إبان حوادثها الأخيرة ، بأن أكثر
ماراه هو أن ينسب الناس كل شيء للإمام . فيشير الرجل إلى
بغيره ويقول : هذا بغير الإمام ، وإلى حمارة : هذا حمارة الإمام .
وبئر الإمام ، وأرض الإمام ، وغتم الإمام .
وهكذا تعمل الكهانة على إذابة شخصية الأمة . وتهوى بها
إلى درك صحيح من التبعية والخضوع كما يسلس قيادها . وتسير
من ورائها مرتلة .

يا عمرو أنت أماننا — وخليفة النفر الأوائل
وهي في كل عصر وجبل تشعر بأنها حارسة هذا التراث الخالد
والمسئولة عن إبقاء السادة سادة ، والعبيد عبيداً .
هذا هو منهجها ، وتلك شرعتها منذ ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد
وهي مدفوعة اليوم ، وكل يوم ، لالتزام هذا المنهج بدوافع شبيهة
غريزية لانعرف مآثاها ولا تستطيع تفسيرها . لكنها الآن
فقط نستطيع أن نمرف . والكهنة المعاصرون قادرون ، بعد أن
يقرأوا ما كتبته . ولز ، على أن يضموها أيديهم على الحوافز الشريرة
التي تدفعهم لاقتراف آثام باغية ، وأن يحاولوا تعليلها وترويضها .

• • •

اشترائية الصدقات :

ليس من الإنصاف أن نظلم الكهانة فننتعها بالجود المطلق فان
لها مرونة خارقة تمدها دائما بإمكانيات التفاعل مع التطور وتلي بها
حاجات المجتمع ... ؟

ماذا يريد الناس ؟ يريدون اشتراكية وعدالة ؟ إن لدى الكهنة
اشتراكية ، جاهزة ، وهم مستعدون أن يجردها عنهم ليعيشوا في
ظلها أعزة شامخين كرماء !
تلك هي اشتراكية الصدقات ، !

فالصدقة في نظر الكهانة نظام اقتصادي وافي ، ووسيلة ناجحة
لمحاربة الفقر وإسعاد الشعب ومطاردة متاعبه وشقائه وإنك تسمع
وترى الدعوة إلى الصدقة والاحسان في كل مناسبة حتى لتكاد تشك .
هل أنت في مجتمع أوفى ملجأ ! وإنني لأصفق بكتائدي لهذا الكشف
الرائع الذي كشفه ولزني طبيعة الكهانة حين قال :

« وكان سلطان الكهانة يقوم في نهاية الأمر على إقناعها الناس
بأن كل أشرب نشاطها تنسم بالعطف والرحمة ، فالكهانة حين
تسلب الناس أعز ما يملكون من كرامة وحق . تحاول أن تعوضهم
عن ذلك بإبداء بعض مظاهر العطف والرحمة والكنها رحمة لا تخرج
عن نطاق سياستها المرسومة وهي أن العبد عبد والسيد سيد ، وغاية
ما يستحقه العبد من الرحمة والعطف إنما هي الصدقة . حيث تمتد
اليد السفلى لتلتقط ما يهبط عليها من اليد العليا ، والمؤلم أنهم يظلمون
الإسلام ظلماً فاحشاً إذ يتكلمون باسمه ، وبكاد الذي يستمع إليهم
أن يخدع فيصدق أن الصدقة هي كل ما يستطيع الإسلام أن يقدمه
للمشعوب من عدالة وبر ومساواة ... »

ولكن هل هذا صحيح ؟

معاذ الله أن يرضى لعباده المذلة والخوان . إن الإسلام حين
دعا إلى العدل والتكافل الاجتماعي . لم تكن الصدقة في حسابه قط

كوسيلة تنهض بها حياة الشعوب . . بل هي شيء يشبه « أكل الميتة ،
فتباح لبعض الأفراد الذين لا يجدون ما يقيم الأود وبمسك
الرمق ولكنها لاتعالج هبوط المستوى المعيشي للأمم والجماعات .
هذه بديهة يعرفها الذين عرفوا محمداً ، ودرسوا نفسه العالية
ودينه القويم .

فلقد وضع عليه السلام الصدقة في مكانها اللاتق بها حين قال
« إنها أوساخ الناس . . إنها غسالة ذنوب الناس ،
فكيف نتصور أن يرفع الاسلام مستوى الحياة والمعيشة بهذه
الفسالات والأوساخ ؟

إننا نلقى على الأمة أعظم درس في الهوان والفضة حين ندعها
تفهم أن طريق إصلاحها ، وشيوع العدالة فيها هي الصدقات .
لقد رأى رسول الله حفيده الحسن يمد يده نحو ثمرة من تمر
الصدقة ، ويدفعها في فيه . فانتزعها منه وهو يقول له : « كخ . كخ
إنها لا تحل لمحمد ، ولا لآل محمد . . إنها أوساخ الناس ! ! »
فهل كان آل محمد طبقة ارسقراطية خاصة تأنف الهوان
وتستنكف عنه ثم تبيحه لبقية الناس ؟

كلا . . وإنما هو مثل رائع يضربه محمد بهذا المجتمع الصغير ،
الذى هو أسرته . . للمجتمع الكبير الذى هو أمته . .
فاذا كانت الكهانة تدعو الشعب إلى التسول ، والأغنياء إلى
التصدق عليه ، فالدين على نقيض ذلك . . إنه يقول للشعب . كخ
كخ . . إن الصدقة أوساخ الناس لا تحل لأمة رفيعة كريمة .
ولقد كان الشافعي رضى الله عنه يفضل الأكل من شبهة على الأكل
من صدقة ، ويقول عنها : إنها تذر البطون غلبة ، والتفوس ذليلة .

وكانت الصدقة^(١) في عصر الرسول وفي لغة القرآن تعني ضريبة مفروضة هي ضريبة الزكاة التي نزل فيها ، خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ، وأما ما وراء ذلك من الهبات والتبرعات فكان الرسول يعالج بها ضرورات أخرى طارئة في مجتمعه الذي لم يكن التطور قد أسعفه بعد بالنظام المفصلات ولقد كان الرسول يخشى أن يفهم الناس أن الصدقة مصدر مشروع من مصادر العيش والارتزاق فكان يدعشهم عنا دَعًا ، ويزجرهم زجرا .

إن ، سدة الكهانة ، حين يدعو باسم الدين إلى ، اشتراكية الصدقات ، يقومون في شرك خطير . فعنى هذا أنهم يجعلون الصدقة نظاما اقتصاديا مشروعا ومعناه أيضا أنهم يفتحون باب المسألة على مصراعيه . . لأن الذي يقول لي : الصدقة مصدر رزقك المشروع يقول أيضا : احرص على هذا المصدر واسع اليه ، وتهاقت عليه تشبهت بوسائله وأسبابه . وما وسائل الصدقة الغالبة إلا المسألة . والاحلاف . . مع أن الرسول عليه السلام ظل يذم المسألة حتى كاد يجعلها كفرا . . فهو القائل :

« المسألة كلوح في وجه صاحبها يوم القيامة . إياك والمسألة . فإنها هي رصف من النار ملهبة . »

وباب بعض أصحابه على : ألا يسألوا الناس شيئا . وإن سقط حبل أحدكم فلا يسألن أحدا أن يتأوله إياه . .

وفي الوقت الذي حقر فيه الصدقة والمسألة . راح يمجّد العمل

(١) هذه العبارة دفع للاعتراض قد يفهم بذهن القاري . وهو كيف توفى بين تنفير الرسول من الصدقة وقول الله تعالى : (خذ من أموالهم صدقة) فأردت أن أين أن الزكاة سميت بهذا الاسم إلا أنها تختلف عن الصدقة كل الاختلاف لأنها كما ذكرت (ضريبة مفروضة) وليست نافذة من نوافل البر والاحسان

وحده ، فيقول الحكيم : « اذهب بارك الله لك في صفقة يدك » .
ويأمر الأنصارى الذى لم يكن يملك من أثاث منزله سوى وحش
نلبس بعضه .. ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه الماء ، أن يأتى
بهما .. ووقف الرسول بينهما بالمزاد ، فينادى : من يشتري ؟
فيقول رجل : على بدرهم . فيعيد الرسول السكره من يشتري . من
يريد ؟ ثم يبيعهما بدرهمين . ويأمر الرجل أن يشتري بأحدهما طعاماً
وبالآخره آلة العمل ، ويأمره أن يعمل . فيعمل وينجح :

فالدين الذى يحقر المسألة ، ويمجد العمل ، ويأمر بأن يأخذ
العامل حقه فيما عمل دون أن ينتقص من حقه شيء ، لا يمكن أن يعالج
حقوق الشعب في الحياة بالصدقات ، كما تحاول الكهانة اليوم أن تفعل .
وإن اشتراكية الحقوق والواجبات ، لا اشتراكية الصدقات ،
هى التى تستطيع أن نجتاز بنا الإعصار ، ونهزم العاصفة ، وتبلغنا
المرفأ السعيد .

المغفلون النافعون :

ولقد ظلت الكهانة ، ولا تزال ، بنحس طوفانها عن طائفة
ترسبت في القاع نستطيع أن نسميها ، المغفلين النافعين ، يدعون
بدعوى الجاهلية الأولى ، بل الجاهلية التى قبل الأولى ، أو بتهادون
في الفلسفة الكهنوتية الكثيفة . فيدعون الشرق كله ، والشرق
وحده ، إلى نيل المادة المضللة ، والاعتصام بالروحانية ؛ نتخذ منها
كسائنا وغذائنا ، ونسود بها الدينيسيا ؛ ونصبح ملاها الأعلى ،
وملائكتها المقربين ... !

وقبل أن نتحدث بإيجاز عن هذه الفكرة الخبيثة المدمرة ..

أود أن أعذر للمغفلين النافعين عن هذه التسمية ، وأوضح لهم معناها والمقصود منها .

فتحن — أولاً — نريد بالمغفل ، الغافل ... من الغفلة ... لأن التغفيل ... ولعل من الطريف أن أسوق هنا اصطلاحاً ، أزهر بآ علياً ، يزيد هذا التفسير وضوحاً .

فلقد كنا ، ونحن نطالع الكتب المؤلفة عن رجال الأثر والحديث ، الذين رووا أحاديث رسول الله ، نلتقي بعبارة تضحكننا كثيراً . إذ يقول المؤلف أثناء عرضه لتاريخ راو من هؤلاء الرواة : ... فلان هذا ، صالح ، مخلص ، صادق ، قانت ، ولكننا لا نأخذ بروايته . لأنه كان — رضى الله عنه — مغفلاً ، . يعنى غافلاً . فلا نضمن أن يلقى في نوبة من نوبات غفلته وسهوه بأحاديث مصنوعة موضوعية ، وفتاوى مخطئة ، وأفكار مغلوطة .

والمغفلون النافعون الذين «نشرف» الآن بالكتابة عنهم من هذا القبيل ، فهم قد يكونون مخلصين ، صادقين قانتين ، ولكننا لانستطيع الاطمئنان إلى تفكيرهم ، لأنهم — رضى الله عنهم — مغفلون .
هذا .. أول ..

والأمر الثاني — أن هذا اللقب اصطلاح «دولي» نعرفه وزارات الخارجية في الدول الكبرى ذوات الأطماع الاستعمارية . . فلقد قرأت لكاتب أمريكي أن في وزارة الخارجية البريطانية ، ملفات ودوسيات ، ضخمة تعرف بملفات «المغفلين النافعين» ، وهم الذين يخدمون الاستعمار خدمات جلي من غير قصد ، وبحسن نية! وذلك بأن يذيعوا في صفوف أمتهم أفكاراً ، أو يتصرفوا تصرفات من

شانها أن تفضى إلى تركيز الاستعمار وتهية الجوله ، دون أن يقصدوا
هم هذه الغاية ، أو يعملوا لها .

فالعالم ، الذى ينحرف بالدين عن غايته التى هى إنهاض البشرية
وتوفير الحياة لها ، مغفل نافع للزندقة والإلحاد والاستعمار .

والرجعى ، الذى يعمل على تعويق التطور والحضارة ، ويعمل
على أن تبقى النظم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية فى الشعب
كالموئدة المحنطة لا تدب فيها الحياة ، ولا يجرى فى عروقها دم
جديد مغفل نافع للاستعمار والجهل .

والصحفى ، والكاتب ، والخطيب ، الذين يتخذون من أقلامهم
والسنتهم أمصلا يطعمون بها الشعب ضد الإحساس بالحياة وضد
الشعور الجياش . والحقين الوثاب إلى الحقوق المفقودة .. هؤلاء
أيضاً مغفلون نافعون لقوى الشر التى تعمل ضد سلامة المجتمع
وأمنه ورفاهيته . ولكن شر بسط فى سلالة ، المغفلين النافعين ،
وأبعدهم أثراً فى مصير الأمة ومستقبلها . أولئك المبشرون
بالروحانية ، والداعون لها .

فلنتحدث إذن عن هذه الروحانية ، هذه البدعة التى تطل علينا
بوجهها الضامر كلما أذن بيننا مؤذن : حى على الحياة ...
وأود أن يكون مفهومنا أننا لانسوق الحديث عن هؤلاء سخرية
وتفكها ، وإنما هم ، وبإم ، تريد أن نلفت الأنظار إلى مكائدهم ،
وتطهير البيئة منه . فإن هذه الفكرة البلهاء التى تزعم أن الروحانية
هى علاج الشرق الوقائى ، وأن ، المادة ، ستفسدنا كما أفسدت
الغرب ، وإن الروحانية شىء مستقل بذاته ، وليست أثراً من آثار
المادية المنظمة المزعة بالرغد والرفاهية .

هذه الفكرة الساذجة تجد لها أنصارا كثيرين ، وتخدع حتى بعض الذين كان يظن أن لهم من ثقافتهم وعقولهم عاصما .

ففي أمسية غامرة شهدت بأحد الأندية الثقافية الممتازة بالقاهرة محاضرة عن « التزية القومية » ، وأثير ليلتذ الحديث عن الروحانية كوسيلة هامة من وسائل هذه التزية ، وأنصح لي التعليق الخاطف على الموضوع . . . حيث ذكرت أن الروحانية ، كما يفهمها « سدنة » الكهانة اليوم ، ليست « موى » عملة زائفة ، يراد بها طرد العملة الصحيحة من السوق . . . والعمللة الصحيحة التي يراد طردها بالروحانية ، هي إيمان الشعب بحقوقه ، وإيمانه بالحياة ورغبته النهمة فيها ، وإصراره عليها . ولقد روعت ليلتها حين اكتشفت أن خمسين في المائة من المستمعين المتقفين قد طعموا ضد هذه الحيوية الباعثة ، والفكرة الخائفة ، وراحوا ضحية المصل اللذيذ المسكر الغاش ، مصل الروحانية المدبرة . . .

وقبل ذلك ، منذ عامين تقريبا ، شهدت ميلاد فكرة ، توائق بعض الأدباء الناشئين على أن يتبنوها ، ويكفلوها ، ويبشروا بها وهي أن الشرق خالق ليكون مُصدّر روحانيات ، ويجب أن يظل كذلك ، وكذلك فحسب ، وأن « استيراد » المبادئ الغربية ، أيا كانت ، ضلالة لا تليق بجلال الشرق وسموه .

قلت للأدبب الناشئ ليلتها : واستيراد المخترعات أيضا ، لا تنس أن تضيفه إلى قائمة المحظورات ، حتى يبلغ جلال الشرق مداه . . .

لا روحانية مع الحرمان :

والآن فلنسال : ماذا يريد « المغفلون النافعون » ، بالروحانية ؟

إنهم طبعاً لا يقصدون إطلاق البخور ، وتلاوة الرق ، ومخاطبة
الجن واستحضار الأرواح .

وهم ينشطرون شطرين ، يسير كل شطر منهما في اتجاه . . .
فيعتى بعضهم بالروحانية : العزوف عن الدنيا ومباهجها . .
ويريد الآخرون بها : الفضائل النفسية ، والمعنويات النبيلة ، التي
تجمل صاحبها إنساناً فيه من التسامح . والإخلاص ، والإيثار ،
وحب الغير ، ومحبة السلام شيء كثير . . .

وهذا الفريق الثاني هو الجدير بأن يناقش . أما الأولون فقد
رثت حبايهم ، وأصبح كثير من الناس يدركون بالخبرة أو بالفطرة
أن فلسفتهم هذه ليست سوى دغمان تقذف به مداخن متهدمة .
ولسنا نزعم أن ضحاياهم صاروا من القلة بحيث لا يؤبه بمظهورهم ،
فإن ضحاياهم لا يزالون يلبغون من الكثرة درجة مقلقة بشعة تبعث
على الأسى والشفقة ، ومن أجل هؤلاء الضحايا وحدهم سنقول لهذا
الطراز من المدغملين النافعين ، كلمة ونحن نجرى ١

إن عصر الزهد والموت قد انتهى ونقوض ونحن اليوم في عصر
الحياة ، وإذا كنتم مصرين على مذهبكم الباطل فادعوا إليه باسم
الكهانة لا باسم الدين ، فالدين لم ينجي . ليجعل من الحياة البهيجة
المشرقة مقبرة تقضى أيامنا في صوامعها ولجودها ، ولكنه جاء
يهتف ، ويدق أجراس الصباح للنوام صائحاً فيهم . إليكم زينة الله
وطيبات الدنيا ، وسمرات الحياة . .

وإذا كنتم تلوحون لنا بأحاديث عن رسول الله فانا نحترم
الرسول ، ونحترم أحاديثه ، ولكننا نمتن فكمك لها : فالصحيح من
هذه الأحاديث ليس سوى توجيهات استثنائية ، لظروف استثنائية

والراسخون في العلم يعلمون إن هذه الأحاديث مجازية المعنى ،
يراد بها علاج وقتي ، يبيث الأمل في نفوس المحرومين مع حفزهم
في الوقت نفسه على الاستيقاظ والاستمتاع بالحياة . . . وإذا أنتم
رفضتم هذا التفسير الصحيح ، فإنكم تنكبون أنفسكم نكبة مروعة
فإننا نستطيع بأحاديث أخرى صحيحة ، أن نجردكم من رصيدهم في
البنوك وإقطاعيانكم في القرى . . . ومن كل مظاهر النعم التي فيها
تحيون وفيها تموتون !!

وليك بعض الأحاديث :

يقول عليه الصلاة والسلام : إن خليلي عهد إلى أن أيما ذهب
أو فضة أو كىء عليه (كنز وأدخر) فهو حجر على صاحبه حتى يفرغه
في سبيل الله عز وجل . .

وكان عليه السلام يقول : «أني لألج هذه الغرفة . . ما ألقها
إلا خشية أن يكون فيها مال فأتو في ولم أنفقه . .

وأتى يوماً بمنارة ، ثم أتى بأخرى ، فقال ، هل ترك من دين ؟
قالوا : لا ، قال : فهل ترك شيئاً ؟ قالوا نعم ، ثلاثة دنائير ، فقال
الرسول وهو يشير بأصبعه : ثلاث كبات . . .

وبعد فما قولكم دام فضلكم ؟ إذا كانت هذه الأحاديث تقرر
مبدأ واجب النفاذ . فأطلقوا إذن سراح الأموال المسكدة في
خزائنكم ، وإن تلك مجارات ذات دلالة وقتية طارئة فكذلك قولوا
في الأحاديث التي تكلمت عن الفقر البغيض . . . الفقر التي تمجده
السكينة وتسوق الملايين إلى مذهبه الرهبان

ولنتنقل للآخرين الذين يريدون بالروحانية فضائل النفس

وإشراقها لنسألهم : هل تستطيع النفس المغمومة المشتتة أن تجد حلاوة الإيمان وصفاء الروح ؟

هل يستطيع الإنسان الذي اختلت غددته ، وأجدبت خلاياه أن يكون ذا سلوك وديع ؟

هل يستطيع المحروم الذي لم يجد من الفرص ما يثقف نفسه ويربها ، ويطعمها ويسقيها ، أن يصير إنساناً فاضلاً ؟

وهل تعلمون أن رسول الله كان يتموذهل نفسه وإلحاحه من الدين ويقول : إنه يحمل الرجل على أن يحدث فيكذب ويمد فيخلف ؟ وهل تعلمون أن تسعة أعشار مجتمعنا رزحون تحت أعباء ديون ثقيلة مبهطة ، وهم لذلك يتحلون بفضيلة الكذب والإخلاف ؟ وأن تسعة أعشار أيضاً ضعاف عجاف مهزلة قد جعلت منهم الأمراض وسوء التغذية نماذج حية للعقد النفسية والسلوك المنحرف ؟ يا ليتكم تعلمون . . .

لقد أثبت العلم بتجاربه التي لا ريب فيها ، أن أخلاق الإنسان ليست شيئاً بعيداً عن ذاته وتركيبه وأجهزته ، وليست شيئاً يناله صاحبه بدعوة صالحة ، أو موعظة رقيقة . . . وليست شيئاً يهبط من السماء فيصيب أقواماً ويخطئ آخرين ؛ وما السلوك البشري كله : خير وشر ، صالحة وفاسدة ، إلا وليد حالتنا الصحية وحالتنا العقلية .

فالشخص المريض الذي هبطت طاقة خلاياه العصبية ، لأنه لا يجد غذاء كافياً ، والشخص الجاهل الذي لا يجد فرص التربية الكافية . لا يمكن أن تصدر عن أحدهما تصرفات سليمة ، فضلاً عن أن نمر داخل إهابة على فضائل يانعة وروحانية مشرقة . لأن

المرض والحرمان يفقدانه سكينته النفس وغبطتها ، ويمتصان من روحه العزيمة والأمل .

وفي هذا يقول دكتور دأود دسبندر كولز ، في كتابه ، لا تخف :
« إن كل تغيير في الخلية العصبية مهما تقل درجته ، يتبعه لا محالة تغيير في نفسية صاحبها . »

ويضرب لئسا مثلا ، رجلا سكيرا بلغ في الإدمان درجة حطمت كل مقوماته ، ومحت خصائص نفسه أو كادت ، وجردته من كل خلق وفضيلة ، وروحانية طبعها . . ولما عجزت المواعظ والزواجر عن إنقاذ هذا المغلوب على إرادته وأمره صاح العلم :
إن العلاج يجب أن يبدأ من الداخل حيث . . . الخلايا المجردة ، والأعصاب المتهولة والغدد المختلة . . !

وهناك في غرفة العمليات ، أجرى له دكتور كولز ، عملية بزل السلسلة الفقرية التي تخفض الضغط في السائل المخي ، فتغير بذلك كيمياء المخ ، ونجح نجاحا باهرا ، ورد للريض ، ولا يزال يرد لأشباهه عافيتهم البدنية ، فتعود تبعا لما عافيتهم النفسية وتعود الأخلاق الطاهرة والروحانية الفاعلة .

وما هنالك ريب في أن هذا الذي ينطبق على الفرد ينطبق على الجماعات والمجتمعات ، فالمجتمع المتفتح بما فيه اقتصادية ، هو الذي تزدهر فيه الفضائل أما المجتمع السفين المضني فلا وجود فيه للفضيلة ولا للروح . أن الرخاء هو الجهاز ، وهو الغدد وهو الخلايا التي تحيا بها الشعوب .

أليست الروحانية تعني السلام والأخاء والمحبة ؟ وكيف السبيل إليها في جماعة يؤجج الحرمان في أنفسهم نار البغضاء والحقد والتشاؤم

من الحياة وأهلها ؟ هذه حقيقة أدركها رواد الروحانية أنفسهم
وعبر عنها أبو ذر الغفاري أجمع تعبير حين قال : إذا ذهب الفقر
إلى بلد : قال له الكفر : خذني معك ! كما عبر عنها توماس بين
في آيته الخالدة : « إن الفقر لينحدي كل فضيلة » .
كما عبر عنها أيضاً ، عبد الله بن المبارك ، الصوفي الزاهد العالم
الذي كان يقلب الذهب بكفيه في غبطة ويقول : لولا هذا لتمنل
بنا هؤلاء — مشيراً إلى قصور الأمراء — ولا نخدرا نفوسنا
الشم مستغرياً ؟ !

قد تعرف الكهانة ذلك ، وقد تجهله ، أو تتجاهله ، وأيا كان
الامر فالنتيجة واحدة ، لأنها لا تصدر عما تعلم ، بل عما تريد . .
وهي تريد دائماً أن تكون لها الكبرياء ، والطريق لذلك هو تجريم
الناس هذه الجرع التي تذهلهم عن أنفسهم ، وعن حقوقهم . وهي
كما قلنا من قبل تعمل بدوافع شبه غريزية لتمكين العالين في الأرض
من القبض على أعناق المجتمع الذليل ، وإبقائه منطقة نفوذ دائم
لمصالحهم المادية .

وإن عجبتنا من فلسفة ، المغفلين النافعين ، في الروحانية لا يكاد
يفهم ، لأن فلسفتهم هذه لا تريد أن تؤذن بانتهاء
لقد كتب أحدهم يوماً ، ومن المؤسف أنه كاتب كبير ، يقول
إن الروحانية أسعدت الشرق رغم فقره وقعوده ؟ والمادية أشقت
الغرب رغم ثرائه ورقه ١١ .

وكتب كاتب كبير آخر : إن الروحانية تدعو أبناءها أن ينظروا
دائماً إلى السماء ، أما المادية فتعلم أصحابها النظر إلى الأرض ،
وفات هذا الكاتب المبدع ، أو نسي ، تلك الحكمة القائلة :

• إن الذين يقفون على الأرض ينظرون إلى السماء . أما الذين في السماء ، فينظرون إلى الأرض ،

فالروحانيون ينظرون إلى السماء . كما يقول حضرته . ولكن لماذا ؟ لأنهم على الأرض . . . أما الآخرون السعداء فينظرون إلى الأرض لأنهم في السماء . .

إن الكلمة الأخيرة التي سنقولها للشعب دائماً ، هي أن طاقته الروحية وليدة طاقته الاقتصادية ، وأنه ما لم تطاوعه الفرص ويحي في غير حرج ، ولا فاقة ، فلن نكون له روح .

هذه روحانيتنا :

وقد يخطر ببال جماعة ، المغفلين النافعين ، أننا نغضط قدر الجانب الروحي ونضائل من قيمته . ولكن كل سطر من كتابتنا هذه يدل على مدى اعترافنا به وإدراكنا لفائدته . . فقط كما نفهمه نحن لا كما يفهمون .

فالإنسان كما نقول المستشرقة الفاضلة كاترين هنري : « مفتقر دائماً إلى الروحي والإلهام في حياته الفردية والاجتماعية ، والروحانية هي التي تكمل النقص من هذه الناحية وتطلق القوى الكامنة في طبيعة الإنسان من عقالها وتوجهها إلى متجهات في الحياة نحو الله ونحو محبة الإنسان وخدمته ، .

وإذا لزم أن طبائعتنا تظل بغير تهذيب وصقل حتى يتاح لنا التمكن من هذه المحاولة الأدبية الرقيقة التي نسميها « بالروحانية ، فننقيا من شوائبها ، ونصقلها ، ونهينا صفاء العقل ، وغبطة النفس ونور الشخصية . ونفتح لنا آفاقاً من المعرفة ربما كان العقل وحده

عاجزا عن كشفها .. كنتك الإلهامات التي تومضها فينا أحيانا ،
والتي أومضتها في نفوس العباقره والمخترعين فكانت هذه الحضارة
العبيدة . وإنا لنؤمن بأن كل رقى لا يتخلل نسجه هذه الخيوط من
النور . فإنه يحجب وراءه تدهورا منظرنا ، والمحطاطا سرىما .

هكذا نقول . وبه نؤمن .. ولكن الطريق إلى هذا الإشراق
الروحي ، وإلى السكينة الاجتماعية ، والفضائل النبيلة . ما هو ؟
أما في رأينا فهو الرغاء الاقتصادي الشامل ، ثم بعد ذلك ،
أو معه الأتية النظيفة الباعثة . وما لم تتغير أوضاعنا الاقتصادية ،
وتترق . فهيات أن يتجدد قلب المجتمع ، أو تظهر طبيعته .

وربما يستطيع بعض الأفراد أن يتغلبوا على مشاق بيئتهم
وظروفهم ، ويكتسبوا لأنفسهم رغب متاعهم وآلامهم حياة روحية
وضيئة .. بيد أن ذلك غير مستطاع بالنسبة للأمم والجماعات مالم
يكن لها من نظمها معين أى معين .

ولعل من تكرار القول أن نقيم على هذه الحقيقة شواهد وأدلة .
لذلك نكتفى بمثل واحد ، هو الحب . ذلك الخيط النوراني الوثيق
الذى ينتظم قلوب الناس فيجعل من حياتهم أغنية بهيجة ساحرة .
هذا الحب الذى يصوره لنا صوفي مسلم عظيم ويرسم حدوده
فيقول ، وهو السرى السقطلى رحمه الله : ، لانتم المحبة بين اثنين
حتى يقول أحدهما للآخر : يا أنا !!

هذا الحب الذى تقضى في دفته أسعد أيام الحياة ، والذى هو
ذروة الروحانية وغاية سعيها ، هل يمكن أن يوجد في مجتمع يعانى
صراعا عصبيا من جراء مخاوفه وهمومه وجوعه وأحقاده العميقة
القرار ، وشعوره بالتعبية والدونية والخضوع ؟

إن الروحانية التي ندعو إليها لا تبدأ من نفسها بل هي تبدأ من
المعدة الممتلئة . فاذكروا هذا جيداً . ٩

الكهانة والعقل :

سنعود مرة أخرى إلى كتاب « معالم تاريخ الإنسانية » ، مقلين
الصفحات التي كتبها عن الكهانة في حذر الخشية أن تباعتنا بمض
أظمارها الجارحة ، أو ألغامها المبرثة . ولقد بلغنا غایتنا ، فلنقرأ
هذه السطور :

« ولم يكن أى إنسان يستطيع أن يحصل قط على أية حياة
عقلية كما لم يكن يستطيع الدخول إلى حظيرة الأدب أو ارتشاف
العرفان إلا على أيدي الكهنة . وكان كثير منهم أغبياء متمسكين
بالمبادئ النظرية ، وقد أعمى استمساكهم الجامد بالتقاليد بصائرهم ،
عن أى شيء تكشف هذه الكلمات ؟ »

إنها تكشف عن جانب آخر خطير في طبيعة الكهانة وتبين في
صراحة وصدق أن مؤامرتها المحبوكه ضد الشعوب لا تهدف فقط
إلى تجويع البطون وحرمانها ، بل إلى تجويع العقول أيضاً !
وإذا المجتمع جاع بطنه وعقله . . فقد صار مطية ذلولاً لها .
ولكل مستكبر جبار .

لقد منحت الكهانة نفسها سلطة واسمة النطاق ، وساعدها في
ذلك كما قال « ولز » ، تأييد الفاتحين والحاكمين لها كي يستغلوا نفوذ
الكهنة على عقول الناس لتدعيم سلطانهم وإرباء مصالحهم ، والعجيب
أنها تفرض نفسها فرضاً على شئون المجتمع كلها ، ما تعلم منها وما
لا تعلم ! ولقد منحت نفسها سلطة الحارس المطلق الذي وكلت إليه

حرامة النظم الاقتصادية والتقاليد الاجتماعية . فهي تطارد كل
رغبة في تحويرها أو ترقيتها . . ولما كان العقل قوة محركة بدفع إلى
التغيير ويعجز على التطور ، فقد وضعت يدها عليه من قديم الزمان
كما سمعت ، ثم هي لاتزال متشبثة به . وإن هذا الحجز العقل الذي
انقسمت به الكهانة طول تاريخها الأسود ليرينا أى خصم أنيم .
ذلك الذي يعمل على تقويض المدنية كلها .

إنها تحتكر عقول الناس . وتضرب حولها حصاراً قاسياً .
ونظافاً من حديد ، ولئن كانت في ماضيها البعيد لم تكن لتأذن لأحد
أن يفكر بغير عقلها ، أو أن يتلقط المعرفة من غير أفواه مدتها
فإنها اليوم كما كانت بالأمس . . بل إنها اليوم شر من الأمس أنانية
وأكثر تحكماً وعسفاً .

إنها ترى في العقل الحر أعظم خطر يهدد وجودها لأنها لاتحتمل
هجوم واحد منه فهي لذلك تبذل أقصى جهدها ليطال العقل
الحاضع لها مكبلاً بالأصفاد . وهنا يبدو لنا فارق جلي تناهى في
الوضوح والجلالة بين الكهانة الكاذبة ، والدين الحق الصادق .

فبينما لا نستطيع الكهانة أن تعيش إلا في الظلام ، إذا بالدين
يدعو لإضاءة الأنوار . ويعلن سلطان العقل ابماً إعلان ويدعوه
إلى اقتحام كل مناطق الفكر دون أن يخاف ويخشى . ذلك أن الله
العلی الكبير الذي شرع الدين لعباده يعلم أن الحياة بغير عقول
طوافه حرة شجاعة لن تتفوق كثيراً على بيوت العنكبوت ومستظل
تنقازاً حتى تتلاشى معالمها .

لطالما قرأنا وسمعنا عن الكهانة حديثاً عجيباً ، يرينا كيف
أضرمت نار عداوة طويلة الأمد بين الدين والعلم وكيف كانت تقف

بالمصاد لكل عقل مبدع ، ولكل اختراع نافع ، ولكل حقيقة علمية باهرة ، وكيف ألبت الجماهير الغافلة على الذين كانوا يتفكرون كل أعمارهم في سبيلها من العناء . والفلاسفة والمخترعين .

يقول ولز : ، إن الكهانة تلتذذ دائماً بانحطاط الغير عنها وهي نفسها تقف في أول سلم الانحطاط من أدنى . .

وإذا الإنسانية بما فيها من حقائق وبحوث استلست لها ، فقد حق عايتها التدهور السريع نحو القاع ، ولكن من حسن حظها — أى الإنسانية — أن العقل قائم للكهانة بالمصاد بعمل في ثبات ومثابرة ، وما سمعنا ولن نسمع أبداً أنه هزم أو أنه سينهزم أمامها والذي يسير عبر التاريخ يشاهد آثار الكفاح الطويل ، ويمر بألاف الشواهد القائمة تحمل أسماء شهداء العقل والحرية ولكنه لن يعثر قط على نصب للعقل ذاته لأن العقل لا يزال حيا وسيظل كذلك إلى الأبد ، بل إلى ما بعد الأبد . وهذه هي الحقيقة التي نقدمها لسدنة الكهانة المعاصرة رجاء أن يؤمنوا بها فيوفر الوقت للعقل بنفقه فيها يعود على البشرية بالفائدة بدل أن تضطره إلى الدخول معها في صراع مستلقي فيه حتفها لا محالة .

لقد حاولت أخت لها — من قبل — وهي الكهانة الغربية محاولتها الخاسرة ، وأبطرها الظفر الذي أحرزته أول الكفاح ، واستمرت لحوم العباقرة ، حتى دفعت الثمن أخيراً : حياتها ووجودها ، وسار موكب العقل في زحفه الميمون وسيظل يسير . فإذا جنته تلك الكهانة بماقتها ؟

هل ظلت الأرض مسطحة كما كانت تقول ؟

هل بقيت السماء فية من النحاس الأزرق كما كانت تريد أن
يؤمن الناس ؟

هل صار الميكروسكوب ، وغيره من المخترعات العظمى بدعا
وفسوقا كما كانت ترى ؟

هل بقي أثر واحد من آثار تلك الكهانة دون أن تدوسه
الآجيال بأقدامها ؟

لقد اتهمت ، غاليليو ، بالإلحاد كما اتهمت من قبل دكوبر نيكس ،
وحكمت عليه بالسجن حيث قضى فيه بقية حياته . . . فازاده ذلك
إلا إصراراً وإيماناً . وكان يقبض بكلتا يديه على القضبان الحديدية
ويهزها في عنف صائحاً :

« إنى أقسم بكل شئ مقدس . أقسم بدقات قلبي التي أسمعهها
الآن . وبالهواء الذي تستنشقه رتأى أن الأرض تدور . تدور
تدور . . . وكتب في سجنه أعظم كتاب له وهو « قوانين الحركة »
ومانت الكهانة — وبقي غاليليو حياً عالداً في التاريخ ، وأصبح
الأطفال في المدارس يعرفون نظريته كما يعرفون أنفسهم وأسماءهم .
ولقد فرحت يوم اخترعت أول آلة للطباعة ورأت فيها مارداً
علاقاً سيدمر كل بنائها ، فأخرجت مراسيم التحريم للقضاء عليها
وأصدر البابا اسكندر السادس مرسوماً عام ١٥٠١م يقضى بإعدام
كل من يطبع كتاباً بغير إذنه . . .

ولكن ذلك البابا ذهب مكفناً في كهانته وبقيت المطبعة أصدق
حليف وأقوى نصير للعقل والعلم والمعرفة .

وقامت الكهانة أيضاً بحرق « العالم برونو » وهو حى ، في مشهد
تتفرد منه نفس الشيطان ذاته حين قام بقرر نظرية خلود المادة .

ولكن الأيدي القذرة التي لوئت بأفطع جريمة يرتكبها وحش
غضلا عن إنسان .. تقطعت وذهبت في تراب الأرض بدءاً ..
بينما تنظر نظرية المادة في مطلع شمس كل يوم بما يزيد رسوخا
وصدقا واتساعا .

أى الفريقين إذن خير مقاماً وأبقى ذكراً وأكثر نفعا ؟؟

السكينة تتوسل بالمسجد والمنبر لتقويه المجتمع :

إن السكينة تحارب العقل لأنه يرى الناس عوراتها ، ويبدى
لهم سوءاتها ، ويعمل جاداً لفض سورها .. هي تخشاه لأنها لا تصبر
على بحث ولا تصمد أمام نقد . أما الدين الصحيح فيعلم أن العقل
صديقه الوحيد الذى يهيم له النفوس ويمكن له فى القلوب .

ولقد أصبح من أهم واجبات المجتمع المصرى أن يميز بين
الاثنيين . بين السكينة والدين ، فينبى عن نفسه وعن الأجيال ويلها
وجهلها وضلالها ، فلقد كنا ولا نزال كلما حاول المجتمع أن يخطو
إلى الأمام خطوة تبصر بالسكينة يشيرون فى طريقه النقع الكثيف
ويحذرون له الحنادق كي يتردى فيها . متخذين من الدين مسوحا
يلبسونها وألسنة بتفريقها . ولقد نبأنا الرسول بهم ، وحذرنا
منهم من قديم الزمن ورسم لنا بعض ملايحهم فقال : « هم من جلدتكم
بتكلمون بلفظكم ، ويصلون صلاتكم ، تعرف منهم وتنكر » .

وهذه السكينة تستغل انصراف رجال الدين عن واجبه فى نشر
الحقائق الدينية الباعثة ، وتذهب هى تبشر بأفكارها المدبرة عاملة
على تعويق النهضة فى المجتمع .. فتلا ، يوم نادى قاسم أمين بتعليم
المرأة المسلية ، ونحريرها من قيودها المزرية ، وإسارها الظالم ..

تصايحت الكهانة ونادى بعضها بعضا ، وخرجت جردانها من
الجحور تسعى .. لتقرض الكتاب الذى دعم مؤلفه كافة قضاياه
بنصوص قرآنية ونبوية . ! وراح الكهنة السذج يذلون جهدهم
لإطفاء هذه الشمعة . وذهب إليه بعض الذين سمعت أخلاقهم حتى
بلغت فى رفعتها الأرض السابعة .. يطلبون منه أن يعرض عليهم
زوجه ليستمتعوا بعذب حديثها ، وإشراقه وجهها .. ! وأمطرت
سماء الكهانة كافواه القرب من الأحاديث المكذوبة الموضوعة
التي تدخرها لمثل هذه المواقف ، واستجاب لها جيش الجماهير
الغافلة الذين قال فيهم حافظ :

رأوا فى قبور الميتين حياتهم فقاموا إلى تلك القبور وطوفوا
ولكن الأفكار أفوى من الجيوش - كما يقولون - ولقد
أحرزت أفكار المصلح العظيم «قاسم أمين» نصراً باهراً لم يكن فى
حسبان أحد .

ونستطيع أن نحمل هذه الكهانة وزر تأخر الشعب وجهه ،
وما فى كثرته الساحقة من بلاد وكسل وفخور .. وذلك بما تبشر
به من تعاليم فاسدة .. نزع منها دين ، أو أنها من الدين .
بل نستطيع فى غير تهيب أن نتهمها بأنها تعمل على أن تنقسم
الأمة على ذاتها ، وتصيح ذات موازين نفسية متباينة متعارضة ،
وأقرب دليل على ما أقول هو تفكير القرية المصرية وإحسانها ،
ففى أربعة آلاف قرية تلتقى بملايين من المواطنين الذين يعتقدون
أن المدن المصرية وسكانها هى سبب كل بلاء ينزل بالبلاد ، وسبب
كل آفة زراعية وغير زراعية ، وأن سكان المدن ولاسيما القاهرة ،
ووالاسكندرية ، قوم يستحقون طوفان نوح ، أو صيحة ثمود ..

وكثيرا ما نسمع هذه العبارات التقليدية : « الله يقطع اللى فيها .. »
ما عدا الصالحين ، يعنون القاهرة طبعاً ! كما تسمع « لولا أهل
البيت . ما بقى فيها بيت ١٠ » والضمير هنا راجع إلى عاصمة الدولة
أيضاً ، فإذا ما حاولنا معرفة السبب فى هذا الحقد المشوب لم نجد
فى غير الخطب المنبرية التى احتوتها دواوين « من منة .. » تحشأتها
جماجم سدنة غابرين ، حيث يقف خطباء المآجد فى القرى وأكثرهم
طبعاً من الأميين ، فيجترون الحرافات ، ويحدثون ضحاياهم عن
« سوء الحال ، وفساد النساء والرجال ، وعما فى المدن من سفور
ولجور وكفور وضلال ١١٠٠ »

وبهذه الطريقة يتكون فى القرية على مر الأيام إحساس عام
لا يدين بالنساع فضلاء التعامل مع المدينة ، بل إن المدينة نفسها
تنقسم على ذاتها فى مشاعرها وتفكيرها ، فالجمهرة الكاثرة من أهلها
الذين توجه تفكيرهم مؤثرات كهنوتية ، يحسون أنهم غرباء أو
كالغرباء فى المجتمع ، وذلك بسبب ما يسمعون من السدنة الذين
يدسون أنوفهم فى كل شئ ، ويقدمون للناس ثقافة مهمللة مغلوطة
باسم الدين تحول دون الفرد ومجتمعه ، كما تحول بينه وبين الحياة ،
ولقد آن الأوان لرسم سياسة المسجد ، وتنظيم رسالته وتهذيب
وسائله ، فالسكناس فى الغرب تعمل مع المجتمع لا ضده ، وتمجد
الرقى لا تلغنه ، وتدعو إلى الحياة لا الموت ، وتطور مع العلم
والزمن ، وتقدم للفرد — دائماً — كل حاجاته الروحية التى تمكنه
من السير مع مجتمعه لا التخلف عنه والنفور منه ،

ولقد سمعت من أستاذ فاضل ثقة زار أمريكا أخيراً — أنه
دخل هناك كنائس كثيرة ، رأى فيها جميعاً ، وسمع فيها أسلوباً

واحدًا وطريقة عمل واحدة كل غايتها أن تربط الفرد ببقائه وبالمجتمع دون أن تبذر في نفسه أدنى بغضاء للمجتمع الذي يعيش فيه معها . .
يكن هذا المجتمع زائرا بالآثام . .

ولعل السبب في هذه النهضة الكنسية هناك ، أن الجيل الداعي إلى الله من القسس ورجال الكنيسة جيل جديد مثقف ثقافة واسعة عالية يعرف كيف يستخدم الدين استخداماً رقيقاً في إصلاح الفرد وبناء الأمة ١١ بل إن كبريات الكنائس هناك أصبحت مزودة بعلماء النفس ، وعلماء الاجتماع ، والإخصائين في مرحلة الطفولة ، والإخصائين في دور المراهقة ، فلا تكاد تدخل إحدى هذه الكنائس ، حتى ترى حلقات منثورة هنا وهناك : هؤلاء أطفال ومعهم رائد يتاجبهم ويتأجونه . ويرصد ميولهم وانفعالاتهم ، ويقدم لهم ألواناً بهيجة من الثقافة الخفيفة التي تلائم عقولهم . .
وهؤلاء شبان مراهقون . . يحملون إلى عالم نفسي ، لا صلة له بالدين ولا بالوعظ ، ومهمته فقط أن يروض الغرائز المتوثبة المشبوبة ، ويعاون هؤلاء الشبان على حل مشاكلهم الجنسية والنفسية وتنظيم سلوكهم العام . . وهكذا تقوم الكنيسة بدور هام في الخدمة الاجتماعية التي هي في نظرها جزء من صميم رسالتها . . بل نعلها أهم جزء في هذه الرسالة !

أما المنابر عندنا فإنها تقوم بدور سلبي هدام . . وتسعة أعشار خطبتها لم يعرفوا بعد ، الرسالة التي يجب أن يعملوا لها . . فترام يعالجون الفقير بالفقير ، ويمحون الخبيث بالخبيث ، ويدعون الناس إلى التشاؤم من المجتمع ، ويحرضونهم عليه لأنه في نظرهم مجتمع مارق فاجر لا يستحق التوقير والاحترام . .

وهم يزكون أفكارهم المدبرة بأحاديث مصنوعة ، كتلك التي
كان يسميها ابن عباس رضي الله عنه من الكهنة المعاصرين له ،
فيشور ، ويقول دامغاً إليهم بوصمة الكذب والجهل : « كلما لعق أحدكم
من الإسلام لعقة ، ذهب يقول : حدثني رسول الله . . . ووالله
ما حدثه رسول الله بشيء ، ولا هو بمن يفقهون حديثاً . »

وكثيراً ما تذهب الجراءة ببعضهم مذهبا يؤسف ويضحك . .
فتراه على المنبر يعالج موضوعاً اقتصادياً أو سياسياً أو اجتماعياً ،
يعجز كل العجز عن فهمه بل عن تصوره فضلاً عن نقده ومناقشته
كما يتكبرون في عنف كل تقدم وتطور لم يألفوه من قبل مهما يكن
شكلها ، بسيطاً . ولا أزال أذكر ذلك الشيخ الوقور الذي وقف
فوق منبره يوم جمعة غضبان أسفا هائجا كالثور لأن رجال الجيش
قد استبدلوا القبعة بالطربوش . ولا أزال أذكر وأحفظ مطلع
خطبته العصماء . . الحمد لله الذي أمرنا أن نأخذ من الشيطان كل
حذر وحيلة . . ومن أجل ذلك حرم علينا لبس « البرنيطة » . .
ألا ليت هؤلاء السادة يستمعون إلى قصة « أبليس » ويعتبرون بها
فلقد كان « أبليس » المصور ، إذا صور صورة عرضها حيث تراها
المارة من الناس ، ثم يخفي خلقها لئلا يسمع آراء الناس فيها . . وفي
يوم وضع صورة واختبأ وراءها فربها « إسكاف » ، وتأملها ثم قال
: « إن سير الخداه أوطأ مما يلزم » . فسمع « أبليس » نقده ، وأصلح
السير . وفي اليوم التالي مر بها « الإسكاف » ، فرأى سير الخداه قد
أصلح . فأخذته الجراءة ، وراح ينتقد الساق . . فبرز له « أبليس »
من مكانه وقال له :

— مكانك يا عزيزي . إن نقد الإسكاف يجب ألا يجاوز
الحداء ١١ .

وهذا بالضبط ما نود أن نقوله اليوم للكهنة . .
نريد أن نقول لهم : إن تقدمكم ، وتوجيهكم يجب ألا يجاوز
حدود خبرنكم الضيقة وإدراككم الفاسد ، ومعرفةكم الفجة ، ،
وإلا صرتم لعنة لا نطاق ١١ .

الفرق بين الدين والكهانة :

أعتقد أن الفارق بين الدين والكهانة قد عسلن وحصص من
خلال السطور السالفة . ولكننا في هذه الحلقة الأخيرة من هذا
الفصل ، نريد أن نجتمع تلك الفوارق ونركزها في سطور ، ،
وأول هذه الفروق — أن الدين إنساني بطبيعته وقطرته ، أما
الكهانة فانانية بغيريتها ، تنبدي لنا إنسانية الدين في دعوته الحارة
إلى تكريم بني آدم ، وتسخير السموات وما فيها والأرض بما فيها
لذلك الإنسان الذي هو أئمن درة في تاج الله العلي الكبير ، وتنبدي
لنا أنانية الكهانة في فلسفتها الخاطئة التي استهلت بها حياتها الجافة
اليابسة ، تلك الفلسفة التي ادعت بها وزعمت أن الأرض ملك
للآلهة الذين يرقدون داخل الهيكل ، وأن الآلهة قد منحروها لطبقة من
الناس يستغلونها لأنفسهم كما يشاءون ، ، وإنه لمن الحقائق التاريخية
المعلومة ، أن الكهنة هم أول من خلق طبقة رقيق الأرض ،
واسترقوا الجماهير الكادحة لحسابهم وحساب الإقطاعيين ، وظلوا
لها مسترقين ومعتبدين حتى جاءت الأديان برسالة التحرير والخلاص
وصاح موسى عليه السلام في وجوه الكهنة المصريين : « أدوا إلى »

عباد الله . إني لكم رسول أمين . . ومعنى الآية الكريمة واضح ،
وتصورها للعبودية القاسية التي كان الإنسان يرسف في أصفادها ،
يأخذ بالآلئاب . فهو يقول للكهنة والفراعين : أدوا إلى عباد الله .
أى ادفعوا إلى ، وسلمون ، وأطلقوا سراح هذه السلع البشرية
المحتكرة . هذه السلع الأدمية المحتوشة التي طال على رقها الأمد ،
وتكادها اللغوب ، ويهبطها الحرمان ...!

ومن قبل موسى ومن بعده ، كانت رسل الله ترى . صالحة
نفس الصبيحة . مبشرة بذات المبدأ ، معلنة حقوق الإنسان .

ونأى هذه الفروق — أن الدين ديمقراطي ، النزعة ، وهو

كما يجب أن يفهم ، لا يعترف بالفوارق المفتعلة التي نجعل بين أبناء
الأمرة الإنسانية الواحدة . قطعانا وذئابا ، وعبيدا وأربابا ،
وما نوحيد الإله ، وجعل الأمر كله له ، والسلطان كله ، والكبرياء
كلها . له دون سواه ، إلا هتاف علوى مقدس يشيع في الإنسانية
الآمن والإيمان ، وبذيق في حرارة أنفاسه كل ما في ضعفنا من
خوف وتهيب وانكسار وكل ما في قوتنا من عتو ونجس واستكبار ،
حتى نلتقي الإنسانية كلها على الحرية والإخاء والمساواة .

أما الكهانة إبها لا تؤمن بالديمقراطية ، حتى ولا أضغف الإيمان .
لقد تعود الكهنة أن ينحن لهم الناس ، ويخروا على أيديهم
سجداً ثم يشبهوها لهمار ثقيل . وكذلك تعودوا أن يأمروا فيطاعوا
لأنهم أبناء السماء ، أو أبناء الهيكل . والويل لمن يقول لشيخه أو
لكاهنه : لم . . . وهم حريصون على هذا التراث الموروث . . بل هم
مدفوعون إلى الحرص عليه دفعاً بحكم غرائزهم الجامحة في غوايتها
المتوغلة في غيبها . وإنا لنذكر ما بين الدين والكهانة من بون

شاسع وأمد بعيد في فهم الديمقراطية والإيمان بها ، من هذه المقابلة العابرة بين أسلوبيهما في مخاطبة البشر .

فالدين بناديهم : يا أيها الناس ويخاطبهم الحق جل جلاله : يا عبادي أما الكهانة ، ممثلة في ، خلافة دينية وحكومة دينية ، فإنها تكتسب قديماً لوالى مصر قائلة : بلغوا عبيد بابنا العالى .

والفرق الثالث — يتجلى في إيمان الدين بالمقل وكفر الكهانة به

كفراً بواحا . إن الدين يكرم العقل ، ويجعله مناط المؤاخذة والجزاء ومعنى هذا بداهة ، أنه يعطيه كل الحرية في البحث والمناقشة كما يشاء . ولقد أدرك هذه الحقيقة أعلام الفقه الإسلامى الخافقة . .

أبو حنيفة والشافعى ومالك وأحمد وسواهم . فجعلوا من رأى ، ومن حكم العقل تشريعاً ومنهاجاً . حتى لقد سميت مدرسة أبي حنيفة رضى الله عنه ، أهل الرأى ، ، وألفينا الإمام الشافعى يغير مذهبه القديم ويبتكر حين قدم القاهرة مذهباً جديداً . حتى إذا سئل عن سر ذلك أجاب بأنه رأى شيئاً لم يكن يراه ، وسمع قولاً لم يكن يسمعه . وكذلك رأينا ، مدرسة مالك ، تبتكر قاعدة ، المصلحة المرسلة ، ومدرسة أحمد بن حنبل ، تنادى بمبدأ ، اعتبار المصلحة ، وتقدم المصلحة على النصوص الدينية . وكل ذلك يدل على مدى إجلال العقل واحترامه ، والتسليم له بمحقوقه .

أما الكهانة فهي — كما قرأنا للعلامة ، ولز ، من قبل — لا تسمح للعقل أن يفتات ويتغذى إلا بما تقدمه هي له من فتات وعفونات . وهي تحارب البحث والتأمل والبرهان ، وتقيم مكانها الأوهام والمخاوف التى تحاول أن تعبد بها العقل الإنسانى وتستكرهه . وإنا لنذكر ، فنضعك أنه بينما كان العقل ، يذيع أنباء انتصاره

الباهر في اكتشاف كربة الأرض وحركتها ، كان سدنة الكهانة
المسيحية يزفون إلى الدنيا نبوءاتهم الطائفة بالكذب عن قرب فناء
العالم وقيام الساعة - ليشفلوا الناس بذلك عن كشف العلم وفوز
العقل حتى لقد حدد بعض أولئك الكهنة اليوم والساعة التي ستقع
فيها الواقعة . كما زعم من قبلهم بعض رجال الكهانة الإنجليز في
القرن السابع عشر : أن التالوث خلق الإنسان في يوم ٢٤ أكتوبر
عام ٤٠٠٤ ق . م في تمام الساعة التاسعة صباحاً ، .

إن الدين الحق ليعلم أن العقل هو رثته التي ينتفس بها لذلك
تجد القرآن الكريم يحض الناس في مئات الآيات على استعمال هذه
الرئة استعمالاً دائماً وعلى التنفس بها تنفساً عميقاً حتى يفرد آخرها
وينتفش أقصاها . وما هذه الأنفاس التي يحرضنا الدين على نشقها
إلا النظر العميق ، والتأمل الهادي ، والتفكير المستغرق في كون الله
الخصيب الرحيب . وما هذه الآيات الكريمة : أقلنا تتفكرون .
فلا تعقلون . سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق أعظمكم
بواحدة - أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تفكروا إن في ذلك
لآيات لقوم يعقلون . وقول محمد عليه السلام : تفكر ساعة واحدة
خير من عبادة سنة . . . - ما هذه التوجيهات جميعاً إلا ترويض
للناس على احترام العقل والإيمان به والسير معه والاهتداء بهديه .
وقد تؤمن الكهانة بهذا ولكنها تقول : إن المراد بالتفكير
هنا التشكر في الموت ، وفي الموت غيب . في الفناء ، وفي التراب
الذي منه جئنا وإليه نعود . وهذا التأويل الهزيل يضع أيدينا
على الفارق الرابع بين الدين والكهانة .

وإذن فالفارق الرابع بينهما - أن الدين يؤمن بالحياة ويحبها

ويراها مكانا جديرا بالحب ، كلها مباحة وكلها أزهية . . الزهد فيها غياوة ، والقرار من تبعاتها جريمة . أما السكينة فيجعلونها أبغض الأشياء إلى قلوب الناس ، حتى إذا انصرف الناس عنها خلوا هم إليها ، واجتالوا لأنفسهم طيبتها .

والدين بتفاعل مع الحياة والعلم ، ويعلم أن حيويته متوقفة على استمرار التطور فيه بحيث لا يقف والفكر يزحف . ولقد وجدنا كيف أنه كان في العام الواحد ، وأحيانا في اليوم الواحد . بنسخ حكما بحكم ، ويقم مبدأ مكان آخر متبعا في هذا قانون التطور وهو التغير والانتقال من صالح إلى أصلح ، ما ننسخ من آية أو ننسها ، نأت بخير منها أو مثلها ، وخلق بنا أن تعلم أن هذا التطور المستمر . لم يكن مسaire لمصالح الناس فحسب ، وإنما كان يعني تدريب الناس على مسيرة الحياة في نقلها وإفهامهم أن التزام حال واحد ونظام واحد وطريقة واحدة في أسلوب حياتهم أمر مستحيل . حتى ولو كانت هذه الطريقة الملزمة خاصة بالعبادة والدين . كما حدث مثلا من نسخ قبلة المسلمين الأولى . واستقبال قبلة أخرى . بل كما حدث في تطور الصلاة نفسها . هذا . بينا السكينة جامدة لا تتحرك ، ولا تسمح لنفسها ولا للناس بتطور أو نهوض . فالمجتمع اليوم هو المجتمع منذ آلاف السنين . هكذا يجب أن يكون ، وهكذا يجب أن يظل . كل رقى بدعة ، وكل تطور ضلالة .

• • •

ورغم المسافة التي تفصل بين الدين والسكينة ، فإن خطورتها على الدين نزعج الغيورين عليه . . إذ هي دائمة الزحف نحوه ، وكثيرا ما تختلط تعاليمها بتعاليمه ، والجاهل لا تلتقي توجيهاتها تلقى

البصير الناقد لأنها لا تقدر على ذلك ولا تجد إليه سبيلا .
وهكذا نظل السكّهانة تزحف ، وتمتزج بشعالم الدين وتمتلئ
عقول الناس على أنها الدين الذي يجب أن يدعنوا له ولا يناقشوه
وهنا ينجم ضرران خطيران :

الأول - استماع الناس لها واقتداؤهم بها حيث تسير بهم إلى الهاوية
بعد أن تسكرهم بتعاليمها التي تريحهم بما يتعب الكرام ... وحيث يظنون
عييد نصرّص ميمّة ساحقة كاذبة لم يأت بها من الله وحى ولا كتاب .
الثاني - أنه على مر الزمن ، لا بد من ظهور طبقة مثقفة في المجتمع
تؤمن بالحرية وبالفكر ، وتمتن الخرافة ، ترى الشعب وهو يساق
إلى الموت والظلام . فتقف سائلة عن هذا الرائد الخبيث المضال
الذي يسوقه : من هو . ؟ فيقال لها : هو الدين . . والواقع أنها
السكّهانة الغريبة الدخيلة التي اندججت في الدين ، ثم أخذت تنمو فيه
حتى اكتسبت شخصيته ، واتسمت بسمائه وملائمته . عندئذ يصب
هؤلاء المنفقون على الدين جام غضبهم ، ويشنون عليه حملات
عنيفة ، ويدعون الناس إلى الشك فيه ، والتمرد عليه . . هذا هو
الذي حدث في أوروبا والغرب ، وهو الذي نخشى أن يحدث في الشرق
إذا لم نبادر بعزل السكّهانة عن الدين . وتثقيته من شوائبها ، وتقديمه
لناس وضيئاً متألّقا كيوم نزل من لدن حكيم عليم .

□ □ □

فلنحسم بواقعا :

وحسم بواق هذه السكّهانة ، وإمّاطة أذاها . . أمر عارم المشقة
ولكن العزيمة الصارمة كفيلة بلوغه إذا سلك الطريق الصحيح
والطريق إلى مكائنها ، هو نفس الطريق إلى مكائفة كل وباء :

التحصين - العزل - التوجيه

فلا بد من تطعيم الشعب بمصل الحقيقة الدينية الخالصة ليستطيع أن يقاوم كل عدوى غازية، وذلك بأن نعلمه أن رسالة الدين هي الحياة... والحياة هي أن تعيش كريماً، حراً، سعيداً... لا أن تعيش مهاناً، عبداً محروماً، فكل دعوة تدعوك إلى الحياة... والسير في هوكب التطور... أخذها بقوة... إنها كلمة الله. وكل باطل يدعوك إلى الجود ويصرفك عن الحياة، وعن حقك المقدس فيها فإنما هو الشيطان يمدك الفقر، ويريد تقويض الإنسانية التي صنعها على عينه، وسواها يبيده، ونفخ فيها من روحه. فالمصل الواقى، هو الثقافة الزهية التي لا تضع نفسها في خدمة أحد سوى الحقيقة، فلكن مناهج الدين في المدارس بحيث تؤدي هذا الغرض، ولنجنب التلاميذ النصوص التي لا يستطيعون أن يدركوا حقيقة معناها؛ والتي قد يوحى ظاهرها بدم الحياة. أو فلنقدمها لهم مشروحة شرحاً يكشف عن حقيقة أغراضها، ومتجهاتها، ويوازن بين معانيها المحتملة مؤكداً المعنى الذي هو حق وهدى.

دخلت يوماً على تلاميذي الذين أدرس لهم. وكانوا حديث عهد بدرس جغرافيا. فسألهم عرضاً: ماذا كان موضوع درسكم اليوم؟ فأجابوا: كروية الأرض ودورانها. وانتفض من بينهم تلميذ وقال بالحرف الواحد: ده كلام فارغ يايبه انصدقمم ولا تصدق ربنا؟ وسأله: من أين لك أن الله يكذب هذا؟ فأجاب بأن القرآن وكلام النبي - لم يقولاه.. - وهل قرأت القرآن وأحاديث النبي وفهمتها؟

— لا ولكنني أصلي الجمعة وأسمع من الخطيب ذلك .
ثم قصر على أنه من قريب ذهب ليصلي الجمعة ، ووقف الخطيب
يقول : لعلمكم نقرأون في الصحف والكثيرة ، أن العلماء يتصلون
بالقمر وأن المريخ كوكب عامر بالناس . هذا كفر . والقمر ليس
إلا مصباحاً منيراً ، والشمس كذلك ، والارضون سبع ثابثة
لا تدور . والسموات سبع : الأولى من نحاس ، والثانية من رصاص
والثالثة والرابعة . . . وانطلق الكاهن يهدم في عشر دقائق كل ما تبني
المدرسة في سنوات . . . اوقلت للتلميذ : يا بني ذلك رجل جاهل أمي
لا يعرف عن الدين ولا عن الدنيا شيئاً . . . نخذ العلم من هنا . .
من المدرسة التي نتعلم فيها . قلت هذا وأنا متردد . فكم من أخطاء
تقدمها المدرسة لبنينا ، ولكنني اخترت أخف الضررين وأيسرهما
وما دمتنا بحاجة إلى تقديم ثقافة دينية جديدة بريئة فلا بد من
العمل على خلق جبل جديد من الوعظ وأئمة المساجد . والأزهريون
اليوم على تمام الاستعداد النفسي والذهني للقيام بهذه الرسالة الجديدة
وليس على شيوخ الأزهر إلا أن يقدموا لهم برامج حديثة ومناهج
علمية سليمة تتفق والوعي الجديد ، وتعين على إنشاء مصر الحديثة
والشرق الجديد . فإذا أبي شيوخ الأزهر ذلك ، أو عجزوا عنه . .
كان حقاً لازماً على الدولة أن تنشئ في كل جامعة من جامعاتنا العلمية
القائمة والتي مستقرة ، كلية للدراسات الدينية تدرس المبادئ الصحيحة
التي تهدي إلى حياة دينية ناهضة ، حتى يصير الدين عماداً لقوى
التقدم والارتقاء . ويتخرج منها وعاظ من طراز جديد . كوعاظ
الكنيسة في أوروبا ، ولا بد من الإجابة بالعلماء الراشدين كي يعرضوا
كل قضايا الدين من جديد عرضاً وافياً خالفاً . وإذا كنا نقدر خطر

تعاليم الكهانة على حياتنا ، ونؤمن بأن الأفكار أقوى من الجيوش
فإن الدولة ستهم لا محالة إذا شاركتنا هذا الإيمان ، بالقضاء على
الكهانة ومكائفتها ، فتؤلف و يجمع العلماء ، ليقوم بالمهمة التي ذكرناها
وهي عرض التعاليم الدينية الصحيحة عرضاً جديداً ، ويؤلف
الكتب في ذلك ، ويترك فيه علماء الدين واسعوا الأفق مع صفوة
تختار من رجال الفكر والأدب والاجتماع .

• • •

لقد أخرجت وزارة الأوقاف منذ أعوام كتاب الفقه على
المذاهب الأربعة ، وملا هذا الكتاب قري مصر ومذنها ، وتجد
الناس هناك يرونه المرجع الأول بعد كتاب الله وأحاديث الرسول
وتعليل ذلك واضح ، فهذا الكتاب د ميري ، والذين أشرفوا على
تأليفه وإخراجه علماء من أصحاب المراكز والصيت ، بتوج هذا
أن إحدى وزارات الحكومة هي التي أخرجه ، وهي حيثيات
كافية لأن نجعله في أعين جماهير المتدينين شيئاً ذا قيمة نفيسة
— فإذا ما وجد مثل هذا المجمع الذي أشرنا إليه ، وقام بالمهمة التي
نرجوها ، فإن الفائدة التي سنجنيها أعظم من أن نتصور . قد يقال :
إن بعض المفكرين الأحرار من رجال الدين يقومون بهذا الجهد
وهو قول صحيح . بيد أن العمل الفردي لا تصحبه قوة التأثير التي تصاحب
عملاً جماعياً ذا أطابع مهيب مقنع كالذي أشرنا إليه . بدليل ما نرى من
إعراض جمهور القراء عن بعض تلك المؤلفات الحرة بل اضطهادها ،
استجابة لنداء الكهانة التي توهمه بأنها مؤلفات بدعة وإلحاد

مواكب الجمعة :

ومواكب الجمعة شديدة التأثير ، فيأخذ الإلهام في نفوس المصلين

وكثيرا ما تترك خطب المنابر في تفكير الناس أخاديذ عميقة .
وليس في مكتنتنا أن نضع في كل مسجد خطيباً يؤتمن على دين الله .
وعلى عقول البشر . . أعني أننا لن نجد لكل منبر رجلاً ذاهباً واسع
وإدراك رشيد ، يحسن اختيار أفكاره وعرضها ، دون أن يعبد
إلى الدواوين المترعة بالجهالات . وإذن فالحل الحاسم الذي ننصح
باتخاذ فوراً ، والذي يؤيدنا الدين فيه كل التأييد ، لأنه يحقق حكمة
مشروعية الجمعة : هو حصر صلاة الجمعة في المساجد الكبيرة في كل
حي ، بأن نختار منها عدداً يتسع لأهل الحي وسكانه ، ونعتمد بمنابرنا
إلى وعاظ مجددين نختارهم على علم . وبهذا نثق من أن الثقافة التي
يوجه بها الشعب كل أسبوع ثقافة تنبض بالحياة والقوة وفي الوقت
نفسه نكون قد حققنا الحكمة المقصودة من الجمعة ، وهي حشد
المجموعات في مسجد واحد . وحتى هؤلاء الوعاظ المجددون على قلوبهم
ننصح بأن نقام لهم دراسات خاصة لتوجيههم توجيهاً مبدداً .
أما مساجد القرى التي يملو منابرها أميون لا يفقهون ،
ويجرحون الملايين كل صنوف السموم وألوانها — فالحل العملي
بالنسبة لهم ، هو تأليف لجنة ذات ثقافة دينية نظيفة ، تضع لهم
الخطب أولاً بأول ، وتقدم كل شهر بمنهج جديد ، ليتيسر لها أن
تعالج في هذه الخطب المشاكل المستحدثة ، والموضوعات الطارئة
فتنسخ بذلك خرافات الكهانة ، وتحكم آيات الله وآيات الحضارة
ولا يهمن أن يقوم بهذا العمل وزارة الشئون ، أو الأوقاف
أو الأزهر وإنما يعنينا فقط أن تتم هذه الخطوة سريعاً ، وأن يراقب
الله والوطن من سيوكل إليهم تنفيذها ، ويقدموا للشعب المصعد
ثقافة دينية رشيدة تضع عنه إصره وأغلاله ، وتنفذ القرى من دواوين

الخطب المنبرية التي تكفي ورقة واحدة منها لا إبادة شعب بأسره ١
وبعد - أترافى نسيب الكنيسة ؟

لا . . . وكل هذه المقترحات التي أدعو إلى تنفيذها بالنسبة
للمسجد ، لا بد من أن تفتطم الكنيسة أيضاً - فيؤلف من بين
رجالها الراشدين من يشرفون على توجيه رسالتها توجيهاً يحتاج
الشعب الذي يحيا بالدين ولا يموت .

ولكني نثر هذه الخطة ثمرتها فلا بد من الدعاية الواسعة النطاق
عن طريق الإذاعة والمرح الشعبي ، وإقامة مسابقات أدبية ذات
جوائز مغرية للزوّالين الذين يصوغون تعاليم الدين صياغة تنزع
بالناس إلى تمجيد الدين وتمجيد الحياة .

هذا . إذا كنا نريد أن نحيا ، وإذا كنا جادين في الغيرة على
ديننا ، وإذا كان يسعدنا ويرضينا أن نرى الشعب قوياً ناهضاً
متمتعاً بما منحه الله من حقوق الإنسان

• • •

وقد يرى بعض المثباتين فيما نرجو ، خيالاً . مع أنها حقائق
مستطاعة . ويستطيع الإنسان الآلى . الذي اخترع أخيراً . .
أن يقوم بها جميعاً - إذا عجزت المخلوقات الأصلية عن إنقاذها
وقد تعمق الكهانة هذه الأفكار والمقترحات ، وتشن عليها
مجوماً طويلاً . . وذلك بأن تهون من شأنها لتتصرف عنها أو تزعم
للناس أنها إلحاد وضلال ، يريدان هدم الدين وتهشيم المقدسات
لكنني مؤمن أن كل هذه الأفكار ستفقد يومها . الآن . .
أو غداً . . وكل إرجاء لها ، فإنما هو إرجاء لمشرق نهضة نافعة .
وقد بلغت . . وما على الناصحين إلا البلاغ .

الخبز هو السلام ..

• ان القدر ليتحدى كل قضية وسلام
لأنه يورث صاحبه درجة من الانعطاف والتغير
نكتسح أمامها كل شيء . . . ولا يبقى لأشياء غير
هذا المبدأ : كن . . . أو لا تكن . . . !
(توماس بين)

الخبز . . والزبد :

بعد أن وضعت الحرب الأخيرة أوزارها ، لم يتع لرؤساء الدول المنتصرة أن ينعموا بانحجاب شعوبهم طويلاً . . ولم تسكن هتافات التكريم تنبعث من حناجر الملايين خالصة . بل كانت تختلط بها أصدااء مولولة لم تلبث حتى أجلت هتاف الإعجاب عن الحناجر والشفاه ؛ وانبعثت هي مدوية راجفة : زبد الزبد ، زبد الطعام .

والزبد — كلة أجنبية . . يقابلها عندنا : الخبز — وكالسهام المقدونة انطلقت كل حكومة هناك لتوفر الزبد ، وتوفر الطعام . ما دام صاحب الكلمة العليا الشعب ، يريد الزبد ويريد الطعام . وسارت حياة الناس سيراً مسعداً ، واستقبلوا أياماً جميلة لا يمر منها يوم إلا والذي بعده خير منه .

لكن كيف جاءهم هذا الرخاء ؟

• إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم . ولا بد أن يكون هذا هو الذي حدث ، وإن السياسة التي سلكتها حكومة العمال بالبحر لن تشهد بذلك ، فلقد ورثت من المحافظين مجتمعاً تشيع فيه البطالة والفوضى وتبعت أسباب ذلك قرأتها تكن في الرأسمالية الفردية ، التي تسخر كل إمكانيات المجتمع لمطامعها ، ولم تفكر حكومة العمال طويلاً ، وقررت قورا الانتقال بالمجتمع الإنجليزى — لأول مرة في تاريخه — من العنصر المتطرف إلى اليسار المعتدل أى من الرأسمالية الكثود الجشعة إلى الاشتراكية المعتدلة المنساعحة

ولم نعد نسمع صيحات الجوع التي أزعجت بريطانيا العالم بها
عقيب النصر ، كالم نعد نقرأ عن مهاجمة الشعب للامارات ومصالح
الحكومة واحتلالها ليناام فيها ويسكنها ، لان النظام الإشتراكي الذي
طبقت بعض مبادئه استطاع أن يجد للجائعين زبداً ، وللشردين مأوى
وما كان يسعها أن تصنع غير الذي صنعت ، فالحكومة التي
لا تنظم شعبها لا تكون حكومة .

واقدم قامت أمريكا بإرسال فيض من الإعانات للدول التي تعجز
مواردها عن سد حاجاتها . فلماذا ؟ إنها ليست عاطفة الرحمة ولا
الوازع الانساني ، بل لأن أمريكا تعلم أن صيانة السلام في تلك
البلاد صيانة لها ، وهذا السلام لا يوجد إلا إذا طعمت الشعوب
وشبعت واستمتعت بأكثر فرص الحياة .

ولذلك غلت يدها وعونها عن الأمم التي تعيش في ظلال حكومات
إقطاعية . حتى تغير ما بنفسها ، لتضمن القادة التي ترجوها من
وراء إعادتها المبدولة ، وهي السلام .

ونحن . . منذ وضعت الحرب أوزارها ، بل وقبل أن تعلن
ننادى ونصيح : نريد خبزاً . . وطعاماً . وكلما اتجهنا إلى السماء نشكو
إليها بثنا وحزننا ، قدمننا بهذه الآية الزاجرة : « إن الله لا يغير ما بقوم
حتى يغيروا ما بأنفسهم » ثم نرجع إلى أنفسنا ، وندير أعيننا فيها
فترانا جد عاطلين .

ولا نستطيع أن ننكر أننا نسير إلى الامام ، وأتينا نتقدم ،
ولسكن عيبتنا المؤلم أننا نحبو حبو السلعة في عالم يقطع الحياة فقراً
ووثباً ، وأتينا نجبن عن الاتفاف بالفرص الكبيرة التي جربتها

أمم عظمى فجنت منها أطايب الثمار ، وأنا نافي اليوت من ظهورها
لا من أبوابها .

وإن أخش غلطة نفترقها خلال سعيها للسلام ، هي التماسنا له
ويجشاعته في الخارج لا في الداخل ، فنظن أن المعاهدات ودوراتنا
في ذلك دول أكبر ، أو منظمات أقوى . سيملأن بلادنا سلاما
وأمناً مع أن تجاربنا الأكيدة بالنسبة للمعاهدات والمنظمات تجعلنا
أول اليائسين منها ، المستربين في فائدتها وجدواها . ولعل الدروس
الآخيرة ، والغزيرة ، التي نعلمناها من معاهدة ١٩٣٦ ومن منظمة
هيئة الأمم ومجلس الأمن خلال نظر قضيتنا الوطنية ، وقضية
فلسطين الشديدة ، كفيلة بأن تلهمنا رشدنا ، وتهديتنا سواء السبيل
لقد قام مجلس الأمن بمهمة « المحلل » حين عرضنا عليه قضيتنا
وأثبت أن الدول الكبرى قد اصطلمته لهذا الغرض . ليكون
« محللاً شهماً » . . يضي على الصفقات المسلوقة والحقوق المنهوبة
صفة الإباحة والحل . وبذلك نستطيع تلك الدول الكبيرة التي
أصبحت تمجّل من السرقة ياكراه . أن تسرق بقانون . . وكان موقفه
في قضية فلسطين واضح الدلالة على إمعينه وتبعيته . إذ وقف مندوب
بريطانيا وما يعلن أن الحالة في فلسطين غير مهددة للسلام . وقالت أغلبية
الأعضاء : نعم . . وبعد أسبوع واحد . وقف المندوب البريطاني
نفسه يعلن أن الحالة في فلسطين مهددة للأمن وقالت نفس الأغلبية
الرشيقة : نعم . . مع أنه لم يكن قد حدثت أية مضاعفات تستدعي
من حضراتهم هذه الموافقة — غير أن بريطانيا أرادت ، فلم يسع
« المحلل الشهم » إلا أن يحقق ما تريد .

على أننا لا نضال من قيمة المعاهدات ، والمنظمات الدولية

بصورة عامة . فقد يكون فيهما خير للذين يقدرّون على اعتبار
الفرص . لكنه ينبغي ألا يعزب عن بالنا - حتى ولو كانت فائدة
المعاهدات والمنظمات محققة بالنسبة لنا - أن سلام الأمم ينبع
أولا وقبل كل شيء من داخلها . من حاجاتها الملّية ، ورغباتها
المحققة ونفسيّتها المستقرة . فإذا كنا حريصين على إقرار الأمن
والسلام في بلادنا فليبدأ من هنا .

• • •

نذير رشيد . !

وليس هذا الذي نقوله ونزعمه ، شيئا جديدا . بل هو إحدى
الحقائق الكبرى التي انتهت إليها التجربة الإنسانية من العصور
الأولى ، ثم بلغت اليوم ذروة الواقعية واليقين . وإننا نسمع أصداء
المعركة القائمة في الغرب بين رجال الاقتصاد والاجتماع من جانب
وجرجال السياسة من جانب آخر إذ يتهم الأولون الآخرين بأنهم
ألد أعداء السلام ، لأنهم يدلّ أن يملأوا بطون الناس بالطعام
ذهبوا يملأون بطون المصانع باليورانيوم والبارود

ولقد وقف عالم عظيم يؤكد أن لا سلام مع الجوع . وأن الطريق
الأرشد المفضي إلى سلام جميل هو الرخاء ، ذلكم هو العالم الزراعي
الانجليزي « سير جون لويد أور » الذي رأس مؤتمر منظمة
الشعوب المتحدة للغذاء والزراعة في أبريل سنة ١٩٤٨ بوشنطن ،
وقف في هذا المؤتمر مبشرا العالم بمصيره الأسود الذي تسوق إليه
الأنانية المفرطة فقال : « إذا وجد الحبز وجد السلام ، فهما معنى
واحد . أما العوز والحرب فهما رفيقان لا ينفصلان أبدا . وليس
أمام العالم اليوم إلا الاختيار بين أحد أمرين : إما المدفع ، وإما

الزبد ، وإذا لم يختلروا الزبد ، فسيواجه العالم الخراب . حتى ولو لم
تكن هناك حروب ..

« إن الجوع وارتفاع أسعار الطعام ، يقودان دائماً إلى الثورات
الاجتماعية . ونحن نذكر أن مجز الثعاصيل في فرنسا عام ١٨٤٠ ،
في تلك الفترة التي سميت « المسغبة الاربعينية » كانت نتيجة ارتفاع
أسعار الغذاء وندرة الحصول عليه ، ولا سيما الخبز . وكان الشعب
في شمالي إنجلترا يهزج ويصيح : استلوا خناجركم ، وأعدوا مدافعكم
فإما الرغبة وإما السماء . وإما الحياة وإما القناء » .

هذا رجل مستول مفكر يصرح بأن الجوع يقود دائماً إلى
الفوضى والاضطراب والثورات . وأن الخبز هو السلام ، وهو
الاستقرار وهو النظام .

وإنها لكلمات جليلة ، نضعها أمام أعين الذين يريدون لشعوبنا
العلقة المتحفزة - أماناً وسلاماً .

إن مجتمعاتنا المصري ، ومثله سائر المجتمعات العربية ، تحتاز اليوم
دور المراهقة العنيف ، وتتمثل فيها جميع كواامن المكبت والحرمان
ولقد هبطت طاقة شعورها ، فهبطت معها الحواجز النفسية وأصبحت
نهب الأحاسيس المتدفقة المروعة . وإلا لنجد التدمير على كل لسان
ووجه . . وليس من الانصاف « ولا من الممكن » أن نحظر على
الناس أن يتدمروا ، ولقد كان « كونفشيوس » يقرر حقيقة خالدة
حين قال : « إنه لأشق على الانسان أن يكون فقيراً دون تدمير ،
من أن يكون غنياً دون غطرسة » .

وإذن فما دام في جانب من المجتمع ثراء متفطرس فلا بد أن
يكون في الجانب الآخر فقر متدمر !

وهذا التذمر النامي المتراكم ، من أخطر الأشياء على حياة الأمة ولا يمكن أن يستهين بعاقبته أو يسكت عن علاجه حاكم له بصير بالأمور ، وغير يجد أن نعلم فروع الشجرة الخبيثة دون أن نتجت جذورها الصارية المتوغلة ، وأعني بالشجرة الخبيثة ، تلك العوامل التي ملأت المجتمع حقداً وتدمراً وضجراً . وإن المسئولية الكاملة اتجتم على كامل «الرجعية الاقتصادية» التي نمتص الحياة من الشعب ، وتمرقل كل اتجاه نحو اشتراكية يائسة .

هذه الرجعية هي التي توقد نار الحرب بين الأمة الواحدة لتزقها وتحرقها . وهي لا تملأ بالحقدا الاجتماعي ، قلوب المحرومين وحدهم بل إنها لتثير كل مواطن له قلب وضمير مهما استمتع بليان العيش ورفاهة الحياة — لأن نهمها ، وكزازتها ، وسيطرتها الشاملة على مصادر الأرزاق ، ويتابع الحياة ، نجعلنا نشعر بأننا غرباء في بلادنا ، وأن الملايين من أبناء الأمة قد حكم عليهم بالإعدام جوعاً من أجل أن تنضم قلة عاطلة . ولكي يتأكد لدينا أن التذمر الناشئ عن الفوضى الاقتصادية قد شمل المجتمع بأسره ، فلنقرأ بما سطره كاتب مصري ، لا يمكن أن يكون الحرمان باعث تدمره وضجره . ذلكم هو الأستاذ إحسان عبد القدوس الذي كتب في العدد ١٠٣٥٠ ، من مجلة روز اليوسف يقول :

« نظرة واحدة إلى ميزانية الدولة المصرية تكفي لتحريضك على اعتناق الشيوعية ، أو على الأقل تفننك بأن الشيوعية على حق وبأن الثأرين على نظام الطبقات في مصر لبسوا مجرد حاقدين . . وإنما هم علماء في علم الأرقام . فأرقام الميزانية تسجل أن قيمة الضرائب المفروضة على أصحاب الأراضي الزراعية تبلغ ٤,٧٠٠,٠٠٠

جنيتها ، في حين أن ميزانية مصلحة الري التي تقوم على خدمة هذه
الاراضى وتنظيم ريعها تبلغ ٦,٢٠٠,٠٠٠ جنيه ، أى أن مصر تبرع
سنوياً للسادة أصحاب الأملاك بمبلغ ١,٥٠٠,٠٠٠ جنيه .
... وهذا المبلغ الضخم الذى تبرع به مصر سنوياً للسادة
السكرام ، أصحاب التفاتيش والعزب والأطيان ، يشترك في دفعه
الشعب ، لأنه يدفع من حصيلة الضريبة غير المباشرة ، الضريبة على
الدخان ، وعلى الأقمشة ، وعلى الأطعمة ، وعلى كل ضرورات
الحياة ، فكل سيجارة يدخنها أى صعلوك من صعاليك مصوبعطى
منها دون أى يدري نفساً أو نفسين للبندراوى باشاعاشور ، وكل
ثوب يكسو أى عامل من عمال مصر يتقاضى عليه عبود باشاضريبة
خاصة يزيد بها زراعته اذهاراً ، ويزيد بها نفقاته طولاوعرضاً
ونظرة أخرى إلى الميزانية (لا يزال الامتياز إحسان هو الذى
يتكلم) نرى أن قيمة عوائد الأملاك المبنية تبلغ ٩١٢,٠٠٠ جنيه
في حين أن ميزانية مصلحة التنظيم التي تشرف على تجميل هذه
المباني تبلغ ٢,٠٠٠,٠٠٠ جنيه ، والفرق تدفعه مصر من الضريبة
غير المباشرة أيضاً . وفي كل نظرة تقع عينك على رقم يصرخ في
وجهك بأن الثورة على النظام الاقتصادى حق ويؤكد لك أننا
نعيش في بلد يصرف فيه الفقير على الغنى ، وتبنى فيه الثروات بالظلم
الرسمى والجهل الحكومى .

• • •

وأود أن نلاحظ مرة أخرى ، أن الامتياز إحسان صاحب
هذه الكلمة السالفة ، ليس روسيا ، وإنما هو مواطن مصرى
حريص على أمانة المواطنة ، قائم بواجباتها . كما أنه ليس محروماً

بأنساً حتى يكون الحرمان هو الذى استورى زناد غيظه وتدمره .
وصحيح أن إقرار الضريبة التصاعدية جدير بأن يبعث في
نفوسنا شيئاً من التفاؤل والرضا . لكنها لن تغنيها عن الخطوة
الحاسمة التى يجب أن نخطوها والتى سنعرض لها بعد قليل .

• • •

المجال الجبوى للجريمة :

هل نحن حريصون على سلام بلادنا وسلامتها ؟
وهل نرغب في تجنبها ويلات الفتن والاضطرابات ؟
إذن ، فلنكافح الجريمة . وأفضل من ذلك أن نقضى على العوامل
التي تيسر نشوء الجريمة . فالوقاية — كما يقولون — خير من العلاج ،
وإننا حين نتبع سيرة الانتفاضات العنيفة التي وقعت في التاريخ ،
لا نكاد نجد لها سوى سبب واحد هو : أمة تريد . وحكومة تأبى
والشعب دأماً تريد ثم تريد . وليس لما نطمح إليه غاية ولا نهاية
وتلك سنة الله ، وإلهام الوعي الكامن في الحياة والذي يدفعها بكل
كائناتها إلى التغير والتطور والسير إلى أمام .

فلولا طموح الأمم والجماعات ، ما انتقلت الإنسانية من عهد
الهمجية المظلم ، ولما حقق لحقوق الإنسان لواءه . ولا سمعنا عن
ديموقراطية واشتراكية .

إذن فالشعب بطبيعته يريد دائماً أن يرقى ، وهو على الدوام
طالب حق . . وكلما أفسحت له حكومته السبيل ، ازداد نوثه ،
واضطربت رغبته في حقوق أخرى وسبيل آخر .

حدث في فرنسا منذ ثلاثة أعوام ، وأثناء حكم « رماديه » ،

أن تفاقمت الأزمة العالية ، فانتزع رماديه من فم الميزانية التي
أنهكتها الحرب والإفلاس ، عشرين مليوناً من الجنيهات مرة واحدة
ليعش بها حالة الحال . والتهم الحال هذه الوجبة الدسمة ، ولم يمض
من الزمن غير أيام معدودات حتى صاحوا : هل من مزيد وجديد؟
فلما قيل لهم : لا جديد ولا مزيد ، رفعوا عقائرهم في شوارع
باريس هائنين : « اشتقوا رماديه في أقرب عمود نور ، ١٩ »

وأطل عليهم ، رماديه ، من شرفة مكتبه ، وحياهم باسماء ، ثم
أوى إلى المكتب فوراً ليبحث عن بضعة ملايين أخرى من الجنيهات
تباعده بينه وبين عمود النور .

والحكومات الرشيدة تتفادل دائماً بزحف مواطنيها نحو
حقوقهم ، ولا ترى الحكومة الحليفة أى تزيب على الشعب مادام
العقل والحكمة والنظام هم حذاته إلى حقوقه ، وما دامت هي نفسها
تعيّنه على احترام النظام أما الحكومة التي تبخل بالإصلاح والعدل
على دافعي الضرائب ، وتصدر في سياستها الاقتصادية عن شح
بغيف . . فتلك هي خالقة الجريمة وحامية حماها . . بل إنها ، ومن
وراءها من أصحاب المصالح الكبيرة الخاصة ليمثلون المجال الحيوي
الذي تزرع فيه الجريمة وتزدهر . وما أحرانا أن نتدبر حديث
الرسول عليه السلام : اتقوا الشح . فإنه أهلك من كان قبلكم ،
دعاهم إلى أن يسفكوا الدماء فسفكوها . ودعاهم إلى أن ينتهكوا
الحرمات فانتهكوها .

فالشح إذن وباء . ولا سيما إذا كان كما ذكرنا من قبل ، شح
الدولة على رعاياها الذين يدفعون لها الضرائب .
ونحن نمقت الجريمة مهما تكن موعظها وأسبابها ، ونعتقد أن

عبور الحياة في زورق جميل ، مهما تطل رحلتك . خير من عبورها
في مدرعة . ولو أبلغنا الهدف في لحظات . بيد أن رحلة الزورق
الوديع لن تظل شيئاً حبيباً مقبولاً إلا إذا تجنبته العواصف
والأعاصير وهذا هو الذي يحدونا إلى مكافحة سياسة التراجع التي
تمثلها الرجعية الاقتصادية في بلاد العرب قاطبة .
نحن نكافح الاستغلال الفردي لأنه مهب كل عاصفة جائحة
وكل إعصار وبيل ..

إن الشعب القلق على لقمة ، عقله في بطنه . . ومن أجل ذلك
قال العرب مثلاً قديماً : « لا تتم بحوار جائع فياً كالك » . لأن العقل
آنذا لا يفكر في غير القضم وتفسير الجريمة تفسيراً كافياً لإقناع
الضحية بأنها واجب لا جريمة . . هذا إذا كان الجوع سيدع في
ضحاياهم ضحايا . . ولعل من أعراض هذه الفلسفة المنتمرة
تلك الصيحة المضحكة التي تصاح بها ثوار الحزب الديمقراطي في
روسيا ، شقوا بطن القيصر ، وأخرجوا منها السكرى لنا كلها ،
فهم لم يتجهوا بتفكيرهم ووجدانهم وسخطهم إلا إلى مخزن السكرى
في ذلك البطن السميد .

ولدينا رجل من أجل من حملت الأرض على ظهرها . - هو
أبو ذر الغفاري - صاحب رسول الله - يصوره شاعر المجتمع
الذي زابله المساواة فيقول : « عجبت لمن لا يجد القوت في بيته
كيف لا يخرج على الناس شاعر أسيفه » .

لئن رغم إعجابي الشديد بأبي ذر العظيم ، لا أتمنى ذلك الذي
تمناه ، وهو أن يخرج الجباع شاهرين سيوفهم ، وإنما أتمنى شيئاً
آخر يسير التحقيق والتنفيذ لو وجدت الحكومة المجيزة بالإرادة

والعزم هو ألا يوجد بيتنا جوع ولا جيع . وإنا على ذلك لقادرون
إذا انتهجنا نهجاً مشتركاً صحيحاً شاملاً .

نحن نعيش في عصر ، ليس للحكومات فيه رسالة سوى تحقيق
المنفعة الاجتماعية للشعوب . وإراحة كل العوائق التي تعترضها
وتصدّها عن غايتها المقدسة .

أما عندنا ، فمن الخير أن نعترف بأن جماعة من أصحاب المصالح
الكبيرة . وكثيراً ما يكون بعض الوزراء من أعضاء هذه الجماعة ،
يتربصون بكل وعى حر . وتكل محاولة عادلة ! ولعلنا لم نفس بعد ،
الصراع الشاق الذي دار بين حكومة القرائي باشا والجماعة المذكورة
بشأن الضريبة التصاعدية .

هؤلاء المواطنون — وإنا لندرجو أن بقدروا جلال هذا اللقب
ويحققوا لأنفسهم معناه — يلبعون بالنار ، ويتحملون مسئولية
مباشرة في كل جريمة تعترف ضد سلام المجتمع وسلامته . وإن
الشريعة الإسلامية ، التي يحاولون استغلالها لحماية مصالحهم لتتبرهم
شركاء أصليين في الجريمة .

وإليهم هذه الواقعة الصحيحة التي يرى فيها ، مقرّفة الجريمة
وعوقب ، المنسوب في الجريمة .

سرق غيلة لحاطب بن أبي بلتعة ، نافق رجل من زينة واعترفوا
بجنايتهم ، ورفع الأمر إلى عمر . فرأى نفسه أمام جريمة استوفت
كل عناصر الإدانة : من سرقة ، وسارق ، واعتراف لا يشوبه
ضغظ أو إكراه ... فيم يقضى ؟

أتى على وجوه المتهمين نظرة . ثم تلا قول الله تعالى :
« والسارق والسارقة ، فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالا من الله ،

ونادى كثير آبن الصلت : يا كثير : قم فاقطع أيديهم
ومضى بهم ابن الصلت إلى مكان التنفيذ .. وقبل أن يبلغه ، كان
صوت عمر يشق الفضاء وراءه :

يا كثير ، ارجع إلى بهم . فعاد وعادوا معه . ووقف الغلمان
أمام عمر الذى راح يفحص وجوههم من جديد . فإذا رأى ؟
أبصر وجوها أملقت من الدم . وعبونا انطقاً فيها كل ومض
وبريق . وجسوما خرعة أعباها البؤس والسغب . فسأل : من
سيد هؤلاء ؟ اتوفى به .

فلما جاء سيدهم ، عبد الرحمن بن حاطب . قال له عمر : ه لند
هممت أن أقطع أيدي هؤلاء . لولا ما أعطيه من أنكم تدبونيهم
ونجيتونيهم ، حتى إن أحدهم لو آكل ما حرم الله عليه ، لحل له .
وأيم الله إذ لم أفعل ، لأغرمك غرامة تجعلك وترجرك .
ثم سأل صاحب الناقة المبروقة :

كم تسأري نافتك يا مرنى ؟ قال أربعائة . قال عمر لعبد الرحمن
سيد الغلمان المتهمين : اذهب وأعطه ثمانمائة . ومرة أخرى ألقى
على الغلمان نظرة تابعة من فطنته ورحمته معا وقال : أما أنتم ،
هاذهبوا . ولا تعودوا لها .

سلام على عمر . فى الأولين والآخرين . ! ولهؤلاء الذين
يتخذون من الاسلام ، يرفأنا ، يسترون به مظالمهم ، عزائنا . فقد
فقدوا بهذا المبدأ الذى شرعه أمير المؤمنين . كل أمل فى النجاة من
المسئولية التى تحاصرهم ونحيط بهم .

ويمثل حكم عمر ما يقوله العالم الكبير . ! كوتيليت ، البلجيكى
فى كتابه ، الإنسان وتطور خصاله :

يحمل المجتمع في رحمه جنين كل جرم يقترف فيه . فهو الوعاء
الذى يحتوى الظروف التى تيسر نشوء الجريمة ، ونمهد لها الطريق
— أما المجرم ، فليس سوى آلة للتنفيذ .

فلنعمل على ألا يحمل بمجتمعنا في رحمه سوى الأجنة الصالحة
الخيرة ، وأن يحتوى دائماً أو غالباً ، الظروف التى تيسر نشوء السلام
لا نشوء الجريمة . وذلك يتحقق في نظرنا بثلاثة أمور :

الأول — أن نعمل إسلامنا الخاص أولاً وقبل كل شيء ،
ونوجه كل جهودنا وإمكاناتنا لخدمة أنفسنا ومصالحنا الخاصة .
ثم إذا بقي من جهدنا فائض ومزید لاحتاج إليهما ، فلا مانع من
إسباغهما على الآخرين .

الثاني — استقصاء كل عوامل القلق والرجعية والظلم الاجتماعى
والسكشاف عنها ، ومواجهتها في شجاعة وصرامة وإزالتها من
طريق المجتمع .

الثالث — تجديد الأوضاع الاقتصادية لا ترقيعها ، وتنفيذ
سياسة اشتراكية شاملة واضحة تعطى كل ذى حق حقه ، وتقضى
على التفاوت البعيد ، وتذكر حاجز التمييز بين الطبقات .

والآن . لنتكلم عن هذه الثلاثة . ولنعالجها بالروح الكامنة
في مطالبنا جميعاً ، محاولين أن نتغلب على مشاكها لتتغلب تبعاً
لذلك على البغضاء التى بثها الحرمان خلال الزمن الطويل .

• • •

سلامنا أولاً

طاف كاتب أمريكى ببلاد الشرق الأوسط ثم كتب عنه فيما

كتب هذه العبارة: « في الشرق الأوسط. في هذه الرقعة المضطربة
تضطهدم رغبات روسيا بالمصالح الحيوية لبريطانيا والولايات المتحدة.
وأنت ترى ملايين من العرب يتعلمون في سورة انبعث قوى،
وهم لم يقرروا بعد: أيتجهون إلى الشرق أم يتجهون إلى الغرب،
إلى الشيوعية أم إلى الديمقراطية.

« ولب الحقيقة في شأن العرب اليوم، هو أنهم في غمار تحول
عنيف سريع، فهم يقتلون في مدى جيل واحد من حياة كحياة
الإقطاع في القرون الوسطى، إلى حضارة القرن العشرين».

وهذه الكلمات الوجيزة تفتح أعيننا على حقيقة أمرنا، وحقيقة
أمر أولئك الفضوليين الذين يفرضون أنفسهم علينا، ويتخذون
من بلادنا ومصالحنا ميداناً يضطرون فيه ويتعاركون.

فن جهتنا نحن، ملايين تتمثل في ثورة انبعث قوى، يقابل
ذلك، دول كبرى تتمثل في ثورة جشع واستعمار. كل دولة
تريد أن تكون لها الكبرياء في أرضنا، والامتياز المطلق في منتجنا
وخيراتها. وهذا التنازع علينا، والتنافس فيما، هو السلام الذي
ينشدونه ويدعون إلى دعمه وحمايته !!

ما أبلغه من درس قين بالتدبر وإعمال الفكر. فالسلام كما
تفهمه هذه الدول الكبيرة، هو أن تجد لبضائعنا أسواقاً ولطائراتنا
بترولاً، ولأطعمتها مجالاً ومناطق نفوذ، ولا تريب عليها إذا هي
استربت وتصارعت من أجل هذه الأطماع، لأنها حرب من أجل
السلام، أي من أجل ضروراتها، ومطالبها، ومصالحها. وأسقم
على السلام لا يعني إلا الأسف على سلامهم الخاص. أما السلام
العالمي فهو خرافة، وهو دمية جميلة يعابثون بها ويخادعون الأمم

الصغيرة التي لا يزال وعيها في دور الطفولة الغريبة . وكل دولة من تلك الدول ذات السيادة والتفوذ ، على أتم الاستعداد لأن تنذج السلام العالمي وتسحقه إذا كان في ذلك ضمان سلامها الخاص . وإذا كننا نسينا كل العبر الغابرة فما أظننا نسينا درس فلسطين الذي يؤكد هذه الحقيقة أعمق تأكيد .

فعند ما رأت انجلترا إصرار الشرق على التخلص من صداقتها الجبرية المفروضة . دعمت : إسفين ، الصهيونية في فلسطين . ومن قبل هذه الخطوة ، أو في نفيها . توجهت صديقتها الأكبر - الملك عبد الله - على شرق الأردن . وهي تعلم علم اليقين أن شرق الأردن لا يصلح أن تكون . دائرة انتخابية ، فضلا عن أن تكون مملكة . والملك عبد الله نفسه يعلم ذلك . يعلم أنها قرية ضئيلة بمحدها من الشمال شرق الأردن ، ومن الجنوب شرق الأردن ، ومن الغرب والشرق ، شرق الأردن . ١١ .

جلالته يعلم أنها دولة ، جيب ، ويظهر أنه كان متألما من هذا الوضع بدليل أنه قام بعد إعلان تنصيبه ملكا ، بدعوة جديدة إلى سوريا الكبرى . ولأنه كان على وعد مع أصدقائه الكبار بأن دولة ، الجيب ، هذه ، ستصبح ، بولمان ، عما قريب . وليس على حكومة جلالته إلا أن تمثل أوامر المخرج وتنفذها بأمانة وجراؤ . وفي الوقت المماثل . أعطى المخرج الإشارة للصهيونية فتحركت وفي مطلع الفصل الثاني من الرواية أعطى إشارة أخرى للقيادة الأردنية فوثبت على خشبة المسرح ولعبت دورها بمهارة بين إعجاب المخرج وتصفيق المثليين .

ولست أعيد تفاصيل المهزلة - فكلتنا يعليها . وإنما أومض

ذكرها فقط ، لتعيد تلاوة الحقيقة في ضوئها . فأنجلترا تعلم ولا ريب أن تمكين الصهيونية في فلسطين تمكين للفتنة والبنى والعدوان ، وتهديد مستمر لحياة السلام . وهي أيضاً تعلم إن إحداث فجوة عميقة بين الملك عبدالله ، وبقية دول العرب أو تقسيم العرب إلى معسكرين هاشمي ، وغير هاشمي ، أو ، تدويل ، القرية الأردنية وتضخيمها على حساب جاراتها .. إن يفيد السلام في شيء ، بل سيمزقه ويجعله وهماً وأحاديت . ويشير نفع فتنة عاصفة .

وكذلك تعلم أمريكا . . كما تعلم روسيا أن تدليلهما الصهيونية ونصب شرعها في محيط العرب المسلمين ليس سوى تقويض للسلام في جزء كبير من الدنيا . ومع ذلك رأينا كل دولة في هذا ، الثالث ، الحامي حي السلام ، تسابق الأخرى في مكب البترول على النار - لماذا ؟ لأن كل واحدة منها تبحث كما قلنا عن سلامها الخاص ، وتحاول أن تستكثر من . مراكز التنفس . لنفسها ، ولو كان ذلك على حساب حياة الآخرين و - لاهمهم ١٩ .

بل إن أمامنا شواهد أخرى تبادى بأن ذلك الغرب لا يريد للشرق حياة ، ولا سلاماً ، وأنه يعمل على بقاء القلاقل والكوارث فيه ليبقى له نفوذه الأثيم ، وحججه الكاذبة التي يدعم بها هذا النفوذ . فبينما نتظاهر دوله الكبرى بدعوة حكومات العرب والشرق الأوسط إلى رفع مستوى المعيشة للشعوب . إذا بهم يعملون بكل الوسائل على تعويق النهضة التي تريدها شعوب الشرق .

ولنستمع لشاهد من أهلها وهو مراسل انجليزى يقيم على مقربة من وزارة خارجيته ، ويعرف حقيقة اتجاهاتها أو بعض هذه الحقيقة . كتب لصحيفة مصرية يومية في ٨ يولية سنة ١٩٤٧ يقول :

... وقد دأب المستر بيغن ، منذ أن تولى السلطة على القول بأنه يهدف في سياسته بالشرق الأوسط إلى رفع مستوى شعوبه — ولكن كيف ؟

يمكن أن تقدم لنا مسألة امتيازات زيت البترول في المملكة العربية السعودية جواباً جزئياً على ذلك . . فإن في عملية استخراج البترول من تلك الأراضي ، من الربح ما يسمح لأمريكا أن تعطي الملك ابن السعود منحة سنوية كبيرة جداً ، ولكي يوضع الملك ابن السعود في حالة تدفعه إلى الرضاء دعت إنجلترا وأمريكا ولده ووزراءه وحاشيته لزيارتهما حيثما أكرمتا وفادتهم إكراماً ملكياً . . وقد حضرت بعض ما أقام لهم من مأدب وشاهدت بنفسى ما بذل فيها من بذخ . .

هذا هو ما يسميه المستر بيغن رفع مستوى شعوب الشرق الأوسط . .

... وفي نفس الوقت أرغم آلاف العمال في آبار البترول الإيرانية في البحرين بقوة السلاح على العمل ، وأرسلت فرقة هندية إلى الحدود الإيرانية مزودة بما يلزم لتعطيم إضراب عمال آبار الزيت الوطنية الذين طالبوا بزيادة قرش واحد على أجورهم اليومية الضئيلة . . .

لا . . ليست أراضي دول الشرق هي التي سوف تفيض فيها أنهار العسل واللبن كنتيجة لاستغلال ثروتها المعدنية . . بل هي أراضي أبناء العم سام وجون بول المرفهين المدللين . . . إن المسألة ليست فقط مجرد استهجان لاعتداء إمبراطورية ، على بضعة آلاف من العمال يريدون قرشاً واحداً من بترولهم

وأرضهم . . . ولكنها رمز أي رمز على مدى مافي دعوى الغرب
من الحرص على رفع مستوانا من زور وهتان .

إن زعماء الغرب حين يفكرون داخل حدودهم ، فإنما يفكرون
بمقول اقتصادية عليية . لأنهم لا يستطيعون أن يحرموا جوفاً واحداً
من الزيد . والويل لأحدهم إذا فعل . إن الشعب ليسقطه في مثل
لمح البسر . ولكن حين تغادر عقولهم حدود بلادهم فإنها تفكر
تفكيراً استعماريّاً لا غير ، دون أن تستجيب لأية عاطفة رحيمة نبيلة
ولذلك نجد بلادهم تخرج بالمسرات والمباهج والنعم . . . وأما
الآن إحصاء نقلته منذ عام ونصف تقريباً ، نلاحظ فيه أن بلد
كالولايات المتحدة رغم أن أهله يكونون ٦٪ من مجموع سكان
العالم إلا أنهم يملكون :

٧٠٪ من مجموع سيارات العالم
٥١٪ من تليفونات العالم
٥٤٪ من راديوات العالم
٣٤٪ من السكك الحديدية في العالم
ويستهلكون :

٥٦٪ من حرير العالم
٥٣٪ من جميع بن العالم
٥١٪ من جميع كاوتشوك العالم

• • •

ووراء هذه الأرقام السعيدة ، نبصر شعباً سخرت له الحياة ،
تجربى بأمره رخاء حيث أصاب ، وفي مستوى مماثل لهذا ، أو

قريب منه ، تعيش كل الدول التي تنافس فينا ، وتتآمر على وجودنا
وغذائنا وكسائنا !

والعجب أنهم يستخفون بنا استخفافاً ساخراً ، ويستغلون
سذاجتنا استغلالاً بارعاً . فترام كلنا حولنا إثارة حقنا في الاستقلال
المطلق ، وفي التحل من الاتفاقات التي أصبحت غير ذات موضوع
يخلقون مظاهرة كاذبة ، ولكنها صاخبة .. ويومنوننا بأن الحرب
ستقع بعد أيام وربما ساعات ، وتستجيب لدعايتهم صحافة قصيرة
النظر ، أو مفردة القصد ، وفي هذه الضوضاء المفتعلة يتبدد
الصوت الذي انبعث طلباً حقاً مضيقاً مسلوباً

وإنك لتستطيع الآن ، بعد قراءة هذه السطور ، أن تذهب إلى
دار الكتب ، وتقلب الصحف التي كانت تصدر أيام عرض قضيتنا
على مجلس الأمن ، أو أثناء قضية فلسطين فتراها تتحدثك عن
الحرب .. الحرب التي ستنفذ شرارتها بعد ساعات .. وتحدثك
عن وجهة نظر زعماء أمريكا وإنجلترا في الخلاف المصري الإنجليزي
وكيف يجب أن ننهي إلى حل قبل وقوع الكارثة .. تماماً — كما
يحدث اليوم ، لأننا نريد إثارة قضيتنا من جديد ...

والواقع أنه لا حرب ، الآن على الأقل ، لأنهم انقلبوا
بنعمة الله لإخواننا ، بل لفرعهم من الحرب المقبلة ، ولإيمانهم جميعاً
بأنها مستلهم الغالب والمغلوب معاً

فلنملأ بهذه الحقيقة نفوسنا ، ولنرفع مستوانا من تغذية باردة
تتراجع عليها الذئاب .. إلى قوة مهيبة تحترمها الذئاب وتخشاها ..
وإننا ، ولأرب ، عاجزون عن اقناعهم باحترامنا ، حتى نحترم
نحن أنفسنا ، والطريق لهذا — أن نصنع كما يصنعون ، فنبعث

عن سلامنا الخاص . ونتمكن لشعوبنا في الأرض وفي الحياة . ونملأ بلادنا بالرخاء والرغد . ما أحوجنا إلى جرعة قوية من الأمانة التي نحصرنا في أنفسنا ، وفي مصالحنا — فلا نفكر لغيرنا حتى ننتهي من التفكير لأمتنا وشعبنا . والتي تجعلنا في النطاق الدولي أصحاب ذاتية مستقلة ، تدور حول نفسها ، وحول مصالحها . ولا نخلق لأنفسنا عداوات نحن في غنى عنها ، أو نزعجها في خلاف كبير . لانوق لنا فيه ولا جمال .

• • •

هذه عرائقنا :

١ — التفاوت البعيد ..

في طليعة العوامل التي تحرم مجتمعنا من التناغم والانسجام والاستقرار ، هذا التباين البعيد الذي يشطره شطرين غير متكافئين ولقد أصبحت هذه الفروق الشاسعة بين طبقتي المجتمع من الموضوعات التي يكثر فيها اللغط ، ويقل الفهم الصحيح والإدراك السليم . واتخذها الساخطون وقوداً يسعون به سخطهم وغيظهم ، مما يجعل تجاهلها ، أو تحريم الحديث عنها أمراً غير مجد أو مفيد ، وزيد الآن قبل تنفيذ مضار هذا التفاوت ، أن نفهمه على وجه الصحيح فليس معنى نقدنا له ، أننا ندعو لإزالة كل حاجز وفارق بين الناس فذلك أمر مستحيل . وإنما لنجد في مثل أمريكا وروسيا وإنجلترا من يملك رصيداً ضخماً من المال ، ومن لا يملك شيئاً ، بيد أنهم لا يضارون بهذا التفاوت كما تضار به ، وكما نزرع تحت كاهله وضراوته . ذلك لأن شعوبهم تعيش فوق خط ضروراتها ، وفي

منتصف المسافة، أو أكثر، إلى قمة السعادة وذروة الرخاء والرفاهية .
والمجتمع هناك ، غير قلق على مستقبله ، ولا ضائق بحاضره — وهو
لهذا راض عن نفسه ، سعيد بنظمه ، لا يشير التفاوت بغضاه ،
لأنه مكفول الرغد ، مطرد التقدم والاقتراب من السعادة الغامرة ،
ولكل فرد من أفراد الحق كل الحق في كافة الفرص التي يمكن أن
تجعل منه كما جعلت من غيره وزيراً أو مليونيراً — فهو لذلك
لا يجد من الوقت ما ينفقه في الحقد والبغضاء ، لأنه متجه نحو الفرص
المترعة بكل مقدرات النجاح والفوز يتهلها وينتظرها .

ثم إن التفاوت هناك ، نتيجة عوامل طبيعية شريفة ، وليس
نتيجة استغلال جشع كالذي عندنا ؟ من أجل هذا نراهم مؤمنين
ببلادهم وبأنفسهم إيماناً يحلق بهم فوق العواصف والأخطار . فهذه
السيدة الأمريكية التي وقفت تودع أبناءها الخمسة إلى ميدان القتال
وتقول لهم : « إذا خامركم خوف أو تردد ، فاذكروا أن الموت
رحلة جميلة ، سوف تلقون في نهايتها أباكم » . وكان أبوه قد
استشهد في إحدى المعارك . والمرأة الروسية التي صمدت أمام جنود
الألمان ، وفاتلتهم في « مطبخ » دارها بسكين الثوم والبصل حتى
فاض أخيراً روحها الباسل وهي تقول : لا بأس أن أموت
أما روسيا فلن تموت أبداً .. ١١

وهؤلاء الملايين من شباب الجامعات الذين كانوا يسارعون إلى
حومة الوغى كأنهم ذاهبون إلى مواعيد حب جميل ... أي سحر
ذلك الذي أنسام رهبة الموت وقسوة المصير ؟؟

إنه المجتمع الصالح العادل المنظم الذي يعيشون فيه إخواناً

وسواسية — ليس فيهم قطعان وذئاب ، ولا عبيد وأرباب .
 المجتمع الذى منحهم كل إمكانياته وفرصه ، فتنحوه كل ولائهم
 وقلوبهم ، وبأدلوله وفاء ، وتقدير آ بتقدير .
 ولعل من أشد أخطار هذا التفاوت البعيد القائم فى مجتمعنا
 أنه يقسم الأمة على ذاتها ، ويجعل منها معسكرين متباغضين يحقر
 أحدهما الأدنى ، ويمقت أدناهما الأعلى ، ويترصص كل منهما بالآخر
 مضمرأ له كل كراهية وسوء ... ومهما نحاول إرضاء هذا الفريق
 الأدنى برفع مرتبه وتحسين دخله ، فإنه لن يرضى . . لأن مشكلته
 لا تتمثل فقط فى حرمانه ؛ بل وفى هذا الترف المسهور الذى يعيش
 فيه الآخرون . فإما كلون أكثر مما ينبغي أن يأكلوا ، ويلبسون
 أكثر مما ينبغي أن يلبسوا ويرغدون أكثر مما ينبغي أن يرغدوا .
 ويجلسون فوق أهرام من الذهب بينما بقية المجتمع تقف من
 آلامها وحرمانها ولغوها . ١

ونستطيع أن ندرك مدى الاحتقار الذى يكنه الآعلون لأنهم
 ومجتمعهم من كافة تصرفاتهم . ومن سلوكهم إزاء الشعب الذى
 أنعمهم نعمه وطيباته . . فعندما قررت مجانية التعليم الابتدائى منذ
 سنوات ، سارع كثيرون من أولئك السادة ، وسحبوا أولادهم من
 مدارس الحكومة حتى لا يتخالطوا فيها أبناء الفقراء والرعاع . ثم
 أدخلوهم مدارس أجنبية نليق بمجدهم ومجد آبائهم . وإن وراء هذا
 التصرف الخجل لإيماننا عريقاً بالارستقراطية ، وحرصاً شديداً
 على الامتياز والاستعلاء ، وجاهلية نابية لاتقرها أخلاق الدين ،
 ولا أخلاق الدنيا . ١

ولقد ذكرنا بنظرائهم فى الجاهلية الأولى . إذ ذهب وفد من

أعيان مكة إلى رسول الله وقالوا له :

يا محمد . . . لقد رضينا أن نستمع إليك ، ولكننا لا نجالس
هذه الأخطا من عبيدنا ، وصعاليك مكة الفقراء — فاجعل لنا
يوماً ، ولهم يوماً ، !

واستأنهم الرسول إلى غد . حتى يأتي أمر ربه ، وسرعان ما جاء
الوحي الرشيد بآيات باهرة :

« . . . واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي ،
يريدون وجه ، ولا تعد عينك عنهم ، تريد نية الحياة الدنيا ، ولا
تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا ، واتبع هواه ، وكان أمره فرطاً . .
» ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه
ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ،
فتطردهم فتكون من الظالمين . .

وجاء المالون في الأرض . فآلفوا محمداً قد فرش للفقر
والمبيد رداءه ، وأجلسهم عليه ، وراح يربط على عناكهم واحداً
واحداً ، ويحببهم وفي عينه دموع الغبطة والرضا قائلاً : « أهلا بمن
أوصاني بهم ربي ، ونلا عليهم آيات ربه ، وانسحب ، وفداً لأعيان ،
يعرر أديال الخيبة والهزيمة . فقد سامتهم الساء احتقارها ، وبسطت
ذراعيها تحتضنهما الفقراء الكادحين .

ما أخرج هؤلاء الذين يستسكفون عن زمالة الشعب إلى هذا
الدرس البليغ الصارم ، ليظلموا من صافهم وينهبوا من كبرياتهم ،

• • •

إن الحرص على سلامة المجتمع ورخائه ، يقتضينا أن نواجه
هذه الحقيقة . وهي أنه لا استقرار ، ولا غلبة لأي إصلاح اجتماعي

إلا بتقريب المسافة البعيدة الفاصلة بين طبقى الأمة وتوزيع القرص على المواطنين توزيعاً يقضى على التفاوت القصوى الذى يشطروحدتها النفسية والفكرية . وإن مقارنة عابرة بين جاردن سبقي مثلاً ، وبين آلاف القرى ، ومعها الأحياء الشعبية فى القاهرة وغيرها . لتفتح أبصارنا على الخدعة الكبرى التى ينطوى عليها مجتمعنا المكشود ، وديمقراطيتنا الزائفة ، وتذكرنا بما كتبه الأستاذ الصاوى فى صدر « الأهرام » : « إن مائة أسرة فقط هى التى تنعم بخيرات هذا البلد وطيباته . . . كما تذكرنا بكلمته فى « أخبار اليوم » عن الملايين التى ليس لها فى الحياة حظ ولا نصيب . وهناك ترى آية انحطاط الشرق ترى ماتقشعر منه الأبدان من القذارة . . ترى مخلوقات بشرية . . تعيش كأنها لا تعرف الهواء ولا النور ، وتتغذى بالذباب والتراب »

٢ - الملكيات الزراعية الكبرى :

وثانى العوائق التى تحول بين المجتمع ونموه وسعادته - هذه الملكيات الزراعية الواسعة - وإذا كانت مصر بلدًا زراعيًا ، وكانت تسعة أعشار أرضها المزروعة ملكًا لمائة أسرة أو مائتين ، فإذا يبقى إذن للشعب من ثروة بلاده وأرضه ؟

هذه ظاهرة مخرجة ، ولو أنفقنا من الوقت والجهد فى مواجهتها . مثل ما نتفقه فى مكافحة الضائقتين بها لأفدنا كثيرًا .

وإننا لتعلم كيف بدأت قصة التفتيش والضيايع ، يوم كان الفلاح المصرى عاجزاً عن زراعة المساحات المتوسطة ، فضلاً عن الشاسعة فرقى لإقطاع بعض القادريين هذه التفتيش ليزرعوها ويسمروها ؟ . وفى هذا المعنى يحدثنا ، قلبنى فهمى باشا ، فى مذكراته . عن

ذكرياته أيام كان موظفاً كبيراً بالدائرة السنية ، فيقول في العدد
« ١٢٢٦ » من مجلة المصور :

« .. كان اسماعيل يملك مئات الألوف من الأفدنة في أنحاء
البلاد ، ومنها جميع أراضي مديرية بني سويف والمنيا ، عدا
خمس عشرة مصنفاً للسكر . . . كلفه كل منها مليوناً ونصف مليون
من الجنيهات . وكانت هذه الأراضي مقسمة إلى تقايش ، كل تقايش
لا تقل مساحته عن سبعين ألف فدان .
« فإذا أراد سموه أن يكافئ أحداً على إخلاصه في العمل ،
أقطع له جزءاً منها . . . »

هكذا ولدت الملكيات الزراعية الواسعة . ثم طفت بين مد
وجزر حتى تبلورت أخيراً في هذا الإحصاء المروع (١) :

فالذين يملكون أكثر من خمسة أفدنة ، لغاية عشرة أفدنة —
يبلغ عددهم ٨٥,٦٢٢ — ويملكون نحو مئتي ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من عشرة أفدنة لغاية خمسين فداناً —
يبلغ عددهم ٤١,٢٥٥ — ويملكون نحو ستمائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من خمسين فداناً لغاية ثلاثين فداناً —
يبلغ عددهم ١١,٩٠٧ — ويملكون نحو ثلثمائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ثلاثين فداناً لغاية خمسين فداناً —
يبلغ عددهم ٩١٧٩ — ويملكون نحو ثلاثمائة وخمسين ألف فدان .
والذين يملكون خمسين فداناً لغاية مائة فدان — يبلغ عددهم
٦٧٧٢ — ويملكون نحو أربعمائة وخمسين ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من مائة فدان لغاية مائتي فدان — يبلغ

(١) منقول عن جريدة المصري « وراء النواوين » للأستاذ محمود كامل الحامى

عدد ٣١٤٨ — ويملكون نحو خمسمائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من مائتي فدان لغاية أربعمائة فدان —
يبلغ عددهم ١٤٤٨ — ويملكون نحو ثلاثمائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من أربعمائة فدان لغاية ستائة فدان —
يبلغ عددهم ١٤٢ — ويملكون نحو مائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ستائة فدان إلى ثمانمائة يبلغ عددهم
١٦١ — ويملكون نحو مائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ثمانمائة فدان لغاية ألف فدان يبلغ
عددهم ٩٢ — ويملكون نحو ثمانين ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ألف فدان لغاية ألف وخمسمائة ،
يبلغ عددهم ٩٠ ويملكون نحو مائة ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ألف وخمسمائة فدان لغاية ألفين ،
يبلغ عددهم ٤٠ ويملكون نحو سبعين ألف فدان .
والذين يملكون أكثر من ألفي فدان ، يبلغ عددهم ٦٨
ويملكون نحو ثلاثمائة ألف فدان ؟

ووراء ذلك يوجد ١٦٨٩٤٠٨٣٠ من المواطنين لا يملكون شيئاً
بما يجعل تهذيب أوضاع الملكية الزراعية فريضة لازمة ، وكتناً بأموالنا .
ولقد وقف رئيس حكومة مسئول فوق منبر البرلمان وصرخ
بأن وباء الملايا الذي غيب في تراب الأرض ألوفاً من أبناء الشعب
الأسيف ، كان نتيجة حتمية لسوء توزيع الملكية الزراعية ، حيث
ضرب الثامن بالجوع والإفلاس (١) .

(١) نقل هذا الخطاب المقام من مضبطة مجلس النواب ، الكتاب الاجتماعي
الكبير الأستاذ عبد المجيد قانع في كتابه القيم « السلام الاجتماعي » .

ترى هل كتب على بلاد العرب أن تظل وحدها في هذه المحنة الطاغية ؟ فانك لتجد الحياة فيها جميعاً ضربة متباعدة من الشذوذ والفوضى ، وبينما تلتقي في مصر بمن يملك قرية كاملة . . إذا بك تلتقي في العراق بمن يملك مائة ألف فدان ، ويبلغ دخله ربع مليون ريال في السنة . . وبجانب هذا الواحد المصري ، أو العراقي ، يوجد مليون بطن تقرر أمعاؤها من الجدوب والسغب !

ومثل ذلك في سوريا ولبنان واليمن . . وفي الحجاز حيث تنقطع أنفاس الحجازيين عدواً أو وثياً وراء الحجاج ، وهم يصيحون هلالة يا حج . . هلالة يا حج . . بينما حفنة من المترفين تمحى على أصابع القدمين . . تسبح في بحيرات من اللذة والشراب . والذهب المذاب ياحسرة على العرب . . وعلى الثموب التي أوهنها الحرمان الأليم !

إننا لنعرض مشاكلنا هذه ، بضمير المواطن المخلص الغيور ، وكل رجائنا أن يتقبلها الآخرون بنفس هذا الضمير ، فذلك أجدر الأتقي لنا مشاكلاً ، وأحرى أن تجرى حيانتنا مع تيار العافية والسلام وقين بنا أن نعلم أن بقاء حق التملك الزراعى بدون تحديد - أمر لا يمكن أن يطاق ، وهو بعد ذلك وزر اجتماعي لا تقره إنسانية ، ولا يقره دين . . وخاصة بعد أن بلغ الشعب عشرين مليوناً يريدون أن يخرجوا من نطاق الرق ، ويسلموا من قبضة الاحتكار وسوف نبدى رأينا فيما يتبغى عمله لوضع هذه الأوزار ، وإماطة أذاها عن المجتمع في نهاية هذا الفصل من الكتاب .

٢ - صكوك الموت :

وثلاثة الأثاني - هي الإيجارات الزراعية ، وإن هذه العقود

التي تبرم كل عام بين المالكين والمستأجرين لتحمل بين مطورها
مأساة مفردة... وهي صكوك موت حقاً، بوقعها الفلاح وهو
كاره صاغر ذليل... وفي كل قرية من قرى مصر — تتسمع
الشهقات المسكظومة التي تريد أن تصرخ وتنبعث من جشع الملاك
الذين يعاملون المستأجرين بغرائز نهمة... ثم يصرفها عن الصراخ
ما تعلمه من أن عاقبة شكوها ستكون خسرأ.

وإني لأعرف، تفتيشاً، أنزل بالناس عذاباً أليماً، ولفق لهم
النهم السكواذب، وجلده ظهورهم بالسياط، لأنهم فقط رفعوا إلى
وكلاته ورقساته ملتصاً رجون فيه تخفيض الإيجارات، وأغفاهم
من التوقيع على يابض ١.

ولقد أدركت بعض الحكومات المصرية ما في ارتفاع الإيجارات
الزراعية من ظلم، وماوراءها من متاعب فادحة للجمتمع بأسره،
فألقت لجنة لدراسة الموضوع... وأذكر أن اللجنة قررت وجوب
تخفيضها وتحديد أسعار مناسبة لها، ثم وثت القرار، ولم نعد نسمع
له ركزاً... مع أن التخفيض بداية كل إصلاح مرئجي ورخاء
مرتقب — فالغلاء الذي نثن تحت مطارقه... إنما ترجع أكثر
أسبابه إلى الغلاء الفاحش في تأجير الأرض الزراعية.. وأولئك
الفلاحون الذين يكونون تسعة أعشار الشعب لا يجدون ما يسمدون
به أنفسهم وأبنائهم، لأنهم يستأجرون الفدان بخمسين أو أربعين
أو ثلاثين جنيهاً، وينفقون عليه مثل ذلك... ثم يعجز محصوله
عن الوفاء بمجموع هذه النفقات ١.

ولقد سمعت أذنأي معالي أحمد حسين باشا، وزير الشؤون
الاجتماعية سابقاً، يقول في محاضرة له أيام كان وكيلًا للشئون:

• إن وزارة الأوقاف باشرت بنفسها زراعة بعض تفتيشها التي كانت تؤجرها للأهالي ، نشرت خسارة فادحة بيد أنها حين عادت في السنة التالية وأجرتها للزارعين فرارا من الخسارة لم تأخذها بهم رحمة ولا نصفه ، فجعلت أسعارها باهظة ، وهي تعلم علم اليقين أن محصولها في أجود حالاته لن يفي بالإيجار والتكاليف أبداً فإذا كانت الحكومة نفسها تضرب الأمثال لبقيسة المالكين بهذه القسوة والكرهانة ، فلن يتجه الفلاح بمظلمته وشكواه ؟

إن بقاء هذا الوضع القاسي في بلادنا يحول بينها وبين كل هدف وغاية . وإذا كنا حتى اليوم نحامل القلة المالككة على حساب الملايين المعذبة المصددة بعقود الإيجارات الزراعية . . فقد آن الأوان لأن نراجع ضمائرنا . . ونرسل البصر في رحلة سريعة إلى أربعة آلاف قرية ليرجع البصر خاسئاً وهو حسير ، بحمل صورة المأساة التي تحمل عن الوصف . . صورة الفلاح المواطن الذي يتوسل إلينا بمصريته وبآدميته ، وبالتراب المقدس . . . تراب الوطن الذي يسقيه بدمعه وعرقه ، فيصير ذهاباً ينساب إلى جيوب المالكين — يتوسل إلينا بذلك كله ، وأن تمكن له في أرضه ، ونمنحه فرصة يتذوق بها طعم الحياة !

وهنا سؤال نتوجه به إلى السادة أصحاب التفتيش والضيايع : هل فكر أحدكم مرة في أن يرور مزارعي ضيعته وتفتيشه ليرى كيف يعيشون . . أو هل سأل نفسه عقب حفلة ساهرة حمراء .. عن المعجزة الخارقة التي يوائمها الفلاح بين دخله ومصرفاته ؟ لينهم يشرفون بزياراتهم تلك الحظائر التي تموج موجاً بالحيوان البليد المسخر ، ولينهم يفكرون من أجله كل عام ساعة واحدة ،

عندما تتكسدس أمامهم مئات الألوف من الجنهات التي انصدعت عنها
أرض ضربها الفلاح بفأسه ، وشقها بساعده ، وأبلى فيها أحسن البلاء !
إذن لعلوا أى وزر أنهم يحترحونه حين يؤجرون القدان
الواحد بخمسين جنيتها ، أو أربعين . . فلا يستطيع المؤجر الذي
سينفق مثل هذا المبالغ ، أو دونه ، على الأرض إلا أن يواجه الموت
كل عام ثلاث مرات — عند ما تهل مواسم التحصيل ، والتي هي
للأسف مواسم الحصاد ، موسم الذرة وموسم القمح وموسم القطن
وإذا استسغنا — جدلا — من رجل يملك عشرة أفدنة أو
عشرين ، أن يؤجر القدان بثلاثين جنيتها أو أربعين ، فكيف
تستسبع ذلك من تفتيش يتكون من آلاف الأفدنة ويتنظم قرى
كاملة . ويستطيع إذا أجر بسعر متواضع معقول ، أن يجمع أموالا
طائلة تناسب ملكه العريض الكبير ١٩

لمكن لهؤلاء السادة منطقا آخر مدعما بالبراهين الدالة على أن
الفلاح سعيد جداً في ظل هذه الإيجارات التي نتطفل نحن بنقدها
وتحجر يحيا . ١

ويضربون لك مثلاً بالجاموسة ، ويبيض الدجاج ، فهم يقدمون
بلغة الأرقام التي لا يأتيناها الباطل ، إحصاء دقيقاً ينبئنا أن الجاموسة
وحدها تدر للفلاح كل عام من لبنها ، وسمتها ، وتاجها ما لا يقل
عن خمسين جنيتها .

ولقد أنجبوا بهذه الوثيقة المضحكة وزارة الزراعة التي جندت
قسم الإحصاء التابع لها لتبحث هذا الكشف الرائع الخطير . . ولم
تدم فرحتنا وأسفاه . ١ إذ تبين لقسم الإحصاء أن نفقات الجاموسة
من برسيم وتبن وفول وخدمة عامة ، تستغرق معظم ما تدره وتنتجه

ولا يتبقى لصاحبها في أحسن الظروف أكثر من سبعة جنيهات في العام
هذا إذا سلبت الجاموسة من العوارض الجامعة التي تترص بها
دون أن تجد من الطب البيطرى معونة أو نفعا .

• • •

٤ — العامل والموظف الصغير :

وإذا نحن جاوزنا المستأجر الزراعى إلى العامل الزراعى الفينا
شرا مقاما وأندح عبنا . . . ولقد قامت ، مصلحة الفلاح ، يبحث
حالة العمال الزراعيين الذين يعملون في الحقول والنفائش ، فإلى
أى شيء أفضى بحثها . ؟

لقد اكتشفت حقائق مؤلمة ومنحجلة . . . ففى بعض النفائش
وجدت الرجل يستأجر بخمسة قروش . . . بينما يستأجر الحمار
بعشرة قروش . . . ومعنى هذا أن المساواة لم تتحقق بعد ، بين
الإنسان المصرى . . . والحمار المصرى . . .

كذلك وجدت أن أقل ما يجب أن يظفر به العامل الزراعى
يومية لكي يعيش أدنى وأحققر معيشة — هو ثلاثة عشر قرشا ،
بيد أن أغلبية هؤلاء العمال تتراوح أجورهم بين خمسة قروش وعشرة
فى اليوم . . . ولستمع لو كبل وزارة الشئون الذى هو الآن وزيرها
يعلق على هذه الموازنة فيقول : « وإذن فالعامل الزراعى مضطر
لكى يعيش فى أحط مستوى ، أنه يقتضى كل يوم ما بين ثمانية
قروش وثلاثة قروش . »

وكذلك وجدت مصلحة الفلاح ، أن المدة التى يشتغلها العامل
الزراعى لا تتجاوز ستة أشهر فى كل عام ! كما ألفته محروما كل

الحرمان مما يتمتع به زميله العامل الصناعي من التشريعات
والتشكيلات النافعة ؟

فلبيست لهم نقابات ، ولا يباح لهم أن يؤلفوها . وليس لديهم
قانون ساعات العمل ، ولا قانون التعويض عن إصابات العمل ،
ولا قانون تشغيل الأحداث والفساء ، ولا غير هذه من القوانين
التي دعمت شخصية العامل الصناعي إلى حد كبير وحرم منها ذلك
المواطن المنسى المسكين !

أليس إرهاب هذه المجموعة التفتية من المواطنين وإهمالها ،
إهدار ألسنة الوطن ، وتعبقها لنهضته ، وتكدير آلامه ؟
وحين نغادر العامل الزراعي إلى العامل الصناعي ، نجد هذا
الآخر لا يزال في حضيض الفاقة والإهمال . رغم ما أحرزته الحركة
العالية من نجاح ونجاح ، ورغم ما ظفروا به من حقوق وتشريعات !
وحين نغادر الاثنين إلى الموظف الصغير . . نجد ما لا عين رأت
ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر !

نجد الشقاء ، والدين ، وفوضى المعيشة — قد تضامنت جميعا ،
وتداخلت ، وصيغ منها هذا الكائن المرغف المفلت . . الذي
لا يموت ولا يحيا !

أعرف موظفا — هو صورة لآلاف مثله — خدم الحكومة
خمس وعشرين عاما ، ولا يزال في خدمتها ، له بنون وبنات .
ودخله الشهرى سبعة جنيهات مصرية . مع أنه يقوم بعمله الكتابي
خير قيام ، ويحده كل رؤسائه وزملائه . . ومنذ عام أشيع أن
أمثاله من المنسبين سيتلون الدرجة التاسعة . . وفرح المسكين
فرحاً لم يفرح مثله قبله . وملأت أمه الجو بصياح الغبطة اومضت

تبشر الناس أن ابنها سيأخذ ، ثمرة ٩٠٠٠ . ومضى عام كامل ، ولا يزال المسكين ينتظر ، . لكن ولامه لواجه لم يتغير .. فتراه ينهض صباح كل يوم فيغدو إلى الديوان ، لينجز أعماله .. ثم يروح إلى البيت ، لواجه أنقاله وأحاله . . . ١

ألا سحقاً لهذه المحنة التي نسميها حياة !

كيف يعيش هذا المخلوق ، وكيف يعيش الآلاف من نظرائه أيتها الدولة الرشيدة . ١٤٠ إنه لو قضى هذا العمر المديد بتاجر في الفقر ذاته لكان اليوم مريضاً ناهياً عظيماً . . لكن حظ السوء أوقعه في خدمة الحكومة ، فهو — بعد خمسة وعشرين عاماً — قد رجع لا يخفى حين . . بل يخفى الحكومة !

• • •

إن الوظيفة هي : العقدة الحيوية ، في جسم المجتمع .. هي مركز التنفس الذي ينظم دورات الدم ، وحركات الأجهزة ، ويسلم الجسم إذا سلم ، ويفطب إذا عطب . . وهذا الجيش اللجب من صغار الموظفين — يمسك بيده مصائر الأمة ومصالحها ، وما لم نشعرهم بأنهم موضع عناية الدولة ورعايتها ، فإن يؤدوا واجباتهم إلا في جو من الضجر والفتور ... وهذا هو سر البطء القاتل الذي يتسم به الروتين الحكومي عندنا ، والذي يعطل مصالح المجتمع ، ويفسد عليه أموره — كما أن المحسوبة التي تصطف من بينهم من لا كفاية له ولا موهبة سوى قرابة أو مصاهرة أو تبعية ؛ ثم ترفعه فوق نظرائه درجات . . قد أفدت ذمما كثيرة ، وجعلت الاختلاس

عند كثيرين فضيلة يتناقضون في إحرازها . . وصرنا نسمع عن كاتب بسيط يستطيع أن يتخلص مائة ألف من الجنيات . !

حقاً أن المجتمع يحمل في رحمه جنين كل جرم يقترب فيه . وإن الحكومة حين تتخلى عن واجباتها إزاء رعاياها ومواطنيها ، لتهمي نفسها بنفسها مصيراً قاسياً أليماً . . وهي بحرمانها الموظف الصغير من ضرورات الحياة ، وإغداقها مئات الجنيات وآلافها على كبار الموظفين ، تعرض على الفساد والفوضى .

• • •

هذه مهاب العواصف التي تهدد سلام المجتمع ، وتنوعده بكارثة محققة — ولبست السلامة أمراً معجز الدرك ، أو صعب المزاولة . . بل لنا لقادرون على أن نأسو كلومنا أسوأ جيلاً ، ونبدد تلك العواصف السافية والعاتية ، إذا تسلحنا بروح الإنصاف والإيثار ، وآمنا بضرورة حدوث تحول اجتماعي شامل ، وبذلنا جميعاً — الحكومة والشعب — محاولة صادقة لإتمام هذا التحول دون أن نريق قطرة دم واحدة ، ومن غير أن يكفر بعضنا ببعض ويلمعن بعضنا بعضاً .

والآن . . وقد استبان لنا أن الحبز هو السلام ، وأن مرد كل تأخر وانهدار وتذمر ، إلى الفقر وما يعانيه الشعب من خصاصة وسحرمان . . فقد آن لنا أن نضع أقدامنا على الطريق الذي يقضي بنا إلى الغاية النبيلة التي يتحقق ببلوغها معنى وجودنا وحياتنا — فأين هذا الطريق . . ؟

• • •

لا شيء سوى الاشتراكية :

عندما نزلت عبارة « العدالة الاجتماعية » ضيفا على مجتمعا
المصري عقيب الحرب . . . وأخذت ألسنة المواطنين تتداولها ،
وتلفظ بها ، كشت أجدها طعاماً لذيذاً ، وجرساً منقماً عذاباً دون أن
أعرف حقيقة مدلولها ، وما تمثله من نظم ومناهج . . . حتى رأيتها
تجرى على ألسنة الطبقة الكائنة التي يشكو المجتمع من استغلالها
وجشعها وكرانيتها ، وسمعت قوارير هذه الطبقة ورؤساءها يرددون
في ضوضاء وصخب نفس العبارة التي يرددونها المحرومون وهي « نريد
العدالة الاجتماعية » ! فبدأت أشك في مدلولها ومعناها . . . وقررت
أن أقف على تفسير علمي صحيح لما خشية أن نكون قد وقعنا في غرام
هدف يضرنا ولا ينفعنا . . . فألقيت الراسخين في العلم يعرفون
العدل الاجتماعي بأنه « طائفة من المبادئ والنظم التي ثبتت بالتجربة
أن المنفعة الاجتماعية تبلغ بها حداً أقصى ، والتي اعترف الناس
بأن لها من الأهمية ما يفسخ جميع الاعتبارات الوقتية » .

ويظهر أن زعماء الرجعية الاقتصادية لا يعنون بالعدالة الاجتماعية
هذا الذي عناه العلماء . . . وإلا ما نادوا بها ، وأنهم يهدفون بترديدها
والهتاف بها إلى مداراة الوعي ، وملء قلوب الشعب بالمنى والآمال

والآن . . . نستطيع أن نطرح هذا السؤال :

هل العدالة الاجتماعية روسية الجنسية ، ماركسية الدم ؟ أم
هي فطرة أحست بها الإنسانية منذ أحست بوجودها ، ومنذ سمعت
وجيب الوعي والحياة يخفق بين جنينها . . ؟

وهو سؤال نوجهه لأولئك الذين يرجفون بالتهم على كل من

يرفع عقيرته مستحثاً سير الإصلاح في بلادنا الحبيبة . . حتى إنهم
ليعتبرون كل كلمة من أجل المساواة والعدل . نفثة من نفثات ماركس
وآية من إنجيل الشيوعية . . ناسين أن أراجيقهم هذه تنبئ الشيوعية
ذاتها ، وتضفي عليها ألواناً زاهية من التكريم ، وهي في نفس
الوقت لن توبق رواد العدل الاجتماعي عن غايتهم — لأنهم يؤمنون
به وبالشعب إيماناً لا يوهنه عواء الدئاب .

• • •

إن التاريخ الإنساني مترع بالمحاولات التي بذلها العقل ليخرج
العدالة في أحسن تقويم وأول نظام . . وما من رائد حر مر بالتاريخ
إلا وقد خلف وراءه آثار كدحه في سبيل الظفر بمستوى أرق ،
وتعاون أسى ، للبشرية جميعها .

وفي كفاح موسى وعيسى ومحمد عليهم السلام . نرى النجاح شافاً
مستمراً بينهم وبين ذوى الأثنية المفرطة . ونبصر فيضاً من التوجيهات
الداعية إلى تنفيذ مشيئة الله في أن يعيش الناس إخواناً أو مساوية .
إذن فالعدل الاجتماعي ، والاشتراكية ، التي هي أصدق مظهر
له — فطرة عربية يحسها الجنس البشري كله إحساساً قوياً واضحاً
وليس ضربة لازب أن يكون المؤمنون بهما الداعون إليهما ، بلاشفة
يعذبون ويضطهدون . . ولتعد لتعريف العدل الاجتماعي مرة
أخرى . . ، طائفة من المبادئ والنظم ثبتت بالتجربة أن المنفعة
الاجتماعية تبلغ بها حدها الأقصى . . ، ثم لتنظر ذات اليمين
وذاة الشمال باحثين عن النظام أو المبدأ الذي يحقق هذه الغاية .
لقد انعقد لإجماع العالم المنحصر كله على أن النظام الذي يتأخر به
المنفعة الاجتماعية حدها الأقصى ، في الوقت الحاضر — هو الاشتراكية .

ويشجلى هذا الإجماع العالمى الرشيد فى أخذ الدول الناهضة جميعها بهذا النظام ، وتطبيقه على مجتمعاتها تطبيقاً قد يختلف وسائله . . . ولكنه فى شتى مظاهره يقضى إلى غاية واحدة . . . وإن مواكب الأمم الراقية لتتخطط الأبصار وهى سائرة فى طريقها إلى قم الاشتراكية العليا دون أن تنهم نفسها ، أو يتهم بعضها بعضاً بتلك التهم المعروفة التى غلظك منها رصيذاً عنخماً ١

أثرون إنجلترا شيوعية — وهى التى سعدت بالضريبة التصاعدية إلى ٩٤٪، وراحت فى سرعة البرق تؤرم الملكيات الإنتاجية الكبرى ٩٠٠ أم أثرون أمريكا شيوعية — وهى التى لا يقل أدنى مرتب لأدنى فرد فيها عما يعادل عندنا خمسين جنياً مصرأ ٩٠٠ .
لنذكر جيداً هذه الحقائق الثلاث :

أولاً — أن العدل الاجتماعى ضرورة لازمة نادى بها الشعب والحكومة . وافق المجتمع كله عليها .
ثانياً — أن العدل الاجتماعى هو النظام الذى تبلغ به المنفعة الاجتماعية حداً ما الأقصى .

ثالثاً . أن النظام الذى حقق هذه الغاية فى الفترة الحاضرة هو الاشتراكية . . . ولا شئ سواها .

أما سياسة الترفيع ، التى نسير عليها . . . مثل صرف إعانات للغلاء . . . أو بدل تفرغ . . . أو بدل شعاعة ، كما عبر بعض الموظفين . . . فإن ذلك كله وإن كان يخفف من خفق الصداق وآلامه إلا أنه لن يستأسل شأفة العلة الخبيثة والمرضى الدفين . ولا شئ يحسم هذه الفوضى التى نعانيها مثل أن نخطو خطوة كتلك التى خطتها إنجلترا مثلاً . فتتحول من مجتمع رأسمالى منطرف إلى مجتمع

اشتراكي معتدل تنظم الاشتراكية كل مرافقه أو جلها وتنحدر فيه قوى الإنتاج المحبوسة في أيدي الرأسماليين المتطرفين وطبيعي أننا لن نجد من المدين ولا من المعقل ولا من الظروف معارضة لهذا التحول الرشيد ، بل منجد منها جميعاً . ولا سيما الدين ، عرباً وتعصبداً .. فإن كل توجهات الرسول لتتزع إلى الاشتراكية في كل نظام يتذكره الناس ويحقق منافعهم ومصالحهم . وإطالما كان عليه السلام يقول : « إن الأشعرين كانوا إذا أرموا في غزو أو قتل في أيديهم الطعام .. جمعوا ما عندهم في ثوب واحد ثم اقتسموه فيما بينهم . فهم مني . وأنا منهم » فلنخط هذه الخطوة الأولى في شجاعة وثقة ، فإن من ورائها المجد والعافية والسلام .

من هنا تبدأ اشتراكيئنا :

منذ أربعة أعوام وقف « إريك جونستون » رئيس الفرقة التجارية الأمريكية يومذاك ، يلقي خطبة وداع نشرتها مجلة المختار في حينها .. وكانت تلك الخطبة نصيحة نفيسة ، يقدمها للرأسمالية الأمريكية ، أحد أقطابها العاقلين .. ولقد قال فيها : نحن نقول : إننا نريد تعزيز المسكنة الاقتصادية للطبقة المتوسطة ، وهذا يعني أن يقل عدد الذين في الحضيض وعدد الذين في القمة ، وأن يكثر عدد الذين في الوسط . إذن فما عيب تحديد حد أدنى للأجور يحفظ على الإنسان كرامته ؟ فهذه إذن وسيلة لرفع مستوى الذين في الحضيض . أليست كذلك ؟ وهي أيضاً وسيلة لزيادة عدد الذين في الوسط . ونحن نقول : إنه يؤسفنا أن نرى السكساد في الحين بعد الحين ، ونعطل الحال عن العمل في فصول بعينها ونقول إننا نطلب

عملاً ثابتاً للعمال إذن فما هو عيب الأجر السنوي ؟ إنه يكفل للعامل
عملاً ثابتاً سنة كاملة ، أليس كذلك ؟

« ونحن نقول : إننا نريد حقاً أن نرى نعم الحياة أوفر انتشاراً
بين الناس ، إذن فما هو عيب نظام المشاركة في الأرباح ؟ ما هو
عيب استئجار الخوافر للعمال حتى يزيدوا إنتاجهم . فيزيد ربحهم ،
وربحوا أيضاً ؟ »

« ونحن نقول : إننا نريد لجميع الناس يومياً أفضل وتعليماً أرقى ،
وإننا نطلب مستوى صحيحاً أعلى يكفل حسن العيش للجميع حين
تتقدم بهم السن ، وإننا نريد لجميع أسباب الرخاء الحقيقي لجميع الناس .
فإذا كنا نريد ذلك حقاً ، فيجب أن تكون ثمة وسائل لتحقيقه .
ولست أزعم أن الوسائل التي ذكرناها هي الدواء لكل داء بل أقول
إنها أشياء ينبغي لنا معشر رجال الأعمال أن نفكر فيها إذا أردنا
أن تكفل لأنفسنا مستقبلاً ، بما تكفله لساكني الناس من مستقبل .
« إن تعريف الرأسمالية في المعجم أصبح مبتاً كالحيوانات
المنقرضة : الرأسمالية حشد رأس المال ، نفوذ رأس المال ، في انحصار
في أيدي رجال قلائل .

وقد عاش رجال الأعمال أمداً طويلاً في ظلال هذا التعريف ،
وهو لا ينطبق إلا على ما مضى من عهد السلب والذهب والسالبين
والمحتكرين . . أما الآن فقلوبنا نظركم في أرجاء الأرض تروا
ما نتم فيها . فقد زالت الرأسمالية القديمة أو كادت صفت في روسيا
وهي في حشجة الموت في أوربة وتكاد تختفي في بريطانيا . .
« ولقد كانت فترة رياستي للفرقة التجارية فترة تجربة ودراسة
وقد اقتضاني عمل في أن أنجول في أفطار الأرض ، فرأيت مصرع

الرأسمالية يعنى وأسمى ، وقد اقتضى عملي أيضا أن أتجول في أمريكا
مراراً لا أحصر لها ، فخرجت من رحلاتي كلها بهذه العبرة : إما أن
تسائر المبادئ الحرة ، وإما أن تواجه خطر الانقراض . هذا هو
ناموس الحياة : المسيرة أو الانقراض . .

• • •

هذه الكلمات الصريحة الجليظة قلت في أمريكا من رجل يمثل
الرأسمالية تمثيلاً عريقاً . حتى لقد دفعه ولاؤدها إلى الحرص على
اسمها ، فوضع مقترحاته السابقة . ودعوته الجديدة تحت عنوان
الرأسمالية الجديدة . أو الرأسمالية الديمقراطية .

ونحن ننقل هنا هذا القدر الكبير من خطابه لسبيين :

الأول : أنه شاهد من أهلها . . يعلن أن عهد الرأسمالية --
عهد الساب والنهب ، والسلبين والمحتكرين . قد مضى وانقضى .
الثاني : أننا ونحن نحاول الآن تقديم المواد التي تصاغ منها
اشتراكيتنا -- نقضل أن نعالج الموضوع بالطريقة التي عالجها هو
بها -- إذ حدد الأهداف التي يجب على المجتمع أن يسعى إليها ،
وهي أهداف لا تنحرف عن صميم الاشتراكية قيد أنملة . . وإن
سميت بغير اسمها . وترك الوسائل للمرونة والتجربة . بشرط أن
تتسجم مع المبادئ الحرة وتسيرها وتطابقها ، وضرب الأمثال
ببعض الوسائل التي يراها ضرورية لتحقيق منفعة المجتمع كمشاكة
العامل صاحب العمل في الربح .

وهذا بالضبط ما نريد الآن أن نصنعه -- فبعد أن حددنا الهدف
العزير الذي ينبغي أن تتعاون جميعا على بلوغه ، وهو الاشتراكية
الودیعة الشاملة . . لا نرى ضرورة للالتزام بنظام بعينه ، أو الجود

والتعصب لوسائل معينة . . ولا بأس أن نختار من الوسائل ما يوائم
مزاجنا وطبيعتنا مادامت تسير مبادئ التقدم والحرية ، ونقضى
إلى تعزيز المكانة الاقتصادية للطبقات المهضومة ، وعلى كل مواطن
— حاكما كان أو محكوما — أن يساهم في البحث عن وسائل تحقيق
هدفنا المشترك .

وإننا لنقدم هنا ما نعتقد أنه نقطة البدء في كل اشتراكية صالحة
وما لا يمكن في نظرنا أن نقوم عدالة اجتماعية ، أو نشاد مدنية
ورشيعة إلا به . وإذا كنا قد أتينا من قبل على العوامل الشريرة التي
تعتاق نمونا ، أو نعكر سلامنا — فإن الوسائل التي نحبذها لتكوين
اشتراكية المنشودة ، هي ما يقابل تلك المواقف ، ويعمل في الوجهة
المضادة لها ، وتتلخص فيها يأتي :

١ — التقريب بين الطبقات

وذلك بمكافحة الحواجز التي تفصل بين أبناء المجتمع الواحد ،
وتتيح لبعضهم كل الفرص ، وتحرم الآخرين منها . وقد أقر
مجلس الوزراء المشروع الجديد لإعانة الفلاح . . وإنها خطوة جريئة
موفقة تستأهل الحمد والشكر .

فالبروم فقط سيتاح للوظائف الصغير الذي نعمناه منذ
قريب ، أن يحس أنه كائن حي موجود . . سيتاح له أن يتزوج
ولو قليلا عن شفا الهاوية التي كان يوشك أن يتردى فيها ، إذا لم
تطارده المذابح المسعورة من التجار الجشعين الذين يتربعون على
عرش الأسعار ؛ يعززون بها ويدلون ، ويحيون ويميتون ا

ولكن هذه الإعانة الضخمة رغم أنها مفرحة ومرضية فهي غير كافية . . ذلك لأنها أولا - لا تزال دون ضرورات ذلك المواطن الصغير . وثانيا ، فلأن المواطن المحروم لا يتذمر لحرمانه فقط ، بل هو على حد تعبير الأستاذ السابحي ، لا يقول أنا جائع . . وإنما يقول : أنت أيها الغني تأكل أكثر مما ينبغي أن تأكل ، وتملك أكثر مما ينبغي أن تملك ، وتتفق على شهواتك أكثر مما ينبغي أن تتفق . . .

لا بد إذن من تقريب المسافات الشاسعة والمنهات البعيدة التي تفصل بين الموظف الذي يتقاضى عشرة جنيهات ورئيس الوزارة الذي يتقاضى ثلثمائة جنيه . . والتي تفصل بين وفراش الأزهر ، الذي يتقاضى حتى مع إعانة الغلاء الجديدة سبعة جنيهات وشيخ الأزهر الذي يتقاضى قرابة ألف جنيه مابين مرتب وأوقاف . . إنا لنطالع بعيون مبهورة أخبار تلك الدول الرشيدة المنحصرة ، فرى الفارق بين أضخم مرتب في الدولة وأصغر مرتب فيها لا يزيد عن أربعة أمثال أو خمسة ، في - سويسرا - مثلا - يتقاضى الكناس ما يعادل عندنا خمسة وعشرين جنيها ، ويتقاضى رئيس الجمهورية خمسة أمثاله فقط . وفي أمريكا يتقاضى عسكري المرور ما يعادل عندنا مائة جنيه وأكثر في الشهر ، ثم يتقاضى ترومان ، أربعة أمثال أو تزيد قليلا ؛ وكذلك في إنجلترا وفرنسا وروسيا وفي كل مكان له من الحضارة والرفق حظ ونصيب .

فالخطوة التالية التي نرجوها بعد إعانة الغلاء الجديدة التي تميزت برفع مستوى الصغار دون الكبار ، هي التقريب بين المرتبات على أسس جديدة ، وذلك بتخفيض المرتبات الضخمة وإضافة الفرق

إلى المراتب الصغيرة . . . وسواء علينا أن يكون هذا الحل عظيم
العائدة المادية لتروظف الصغير أو ضئيلها . فإن أعظم ما مستجنيه
من ورائه هو تصحيح وضع عاملي قاس ، وهو — كما قال إريك
جونستون — من قبل — سيقبل عدد الذين في الخضيض ، وعدد
الذين في القمة . وسيكثر عدد الذين في الوسط .

• • •

وكذلك لا بد من تقريب المسافة التي تفصل بين من يملك
عشرات الألوف من الأفدنة ، ومن لا يملك شيئاً . . بين من يملك
قربة كاملة ، ومن يملك حفنات من تراب . . بين صاحب العمل الذي
يذهب بكل الربح وكل الخير وكل الفائدة ، والعامل الذي يعود آخر
النهار يدين قدأجنتا ، وجسم يترنح من وطأة الاعياء . . وفي حديثنا
القادم عن الملكيات الزراعية والصناعية منقدم المقترحات التي
تعبنا على التقريب بين الطبقات .

ولسكننا قبل مغادرة هذا الجزء من الحديث ، نريد أن نلفت
النظر إلى عنصر أصيل في تحقيق المساواة وذلك الحواجز الظلمة
والفوارق العاتقة . . ذلك هو تحقيق المساواة بين الناس أمام
القانون ، فنحن نلاحظ أن الشريف الذي يختلس ويسرق لا يناله
القانون بسوء ، بينما المواطن الذي تمتد به لقروش نافذة يساق إلى
مصير مظلم كله عذاب ونكال ، مردداً قول خليل مطران :

ما بين لصوص ولصوص فرق في الأعلى والأدنى

لصغارهم الشنق المزرى وكبارهم الشرف الأسنى

وهذا التمييز هو أخطر أنواع التمايز الظالم البغيض الذي يقضى

على هبة القانون وسمعته . ما أروع ذلك المبدأ الحر الذي أعلنه

محمد بن عبد الله في رحاب الجزيرة : ولوسرقت فاطمة بنت محمد
لقطع محمد يدها ، وحين جاءه أحد ولاته ، فرآه الرسول
مشتعلا ببردة جميلة نفيسة ، فسأله من أين لك هذا ؟ فلما أجاب
بأنها أهديت إليه قال له :

— أرايت لو جئت في دارك لم تبرحها أكان الناس يهدونك
شيئاً ؟ إن كل ما يأتيك وأنتم لنا رداء ، فأنما هو حق بيت المال .
قم فأوده عنها فيه .

إن اللصوص الكبار أخطر على الأمة ، وعلى أرزاقها من
صغار اللصوص ، فالأولون يسرقون الملايين محتمين بالوظيفة
الكبيرة التي يحتلون ، أو بالجاه العريض الذي يشتملون به —
وما قصة إسماعيل المفتش ، الذي كان يلقب بالخدوي الصغير ،
بغائبة عنا ولا بعيدة منا .

لقد كان وزير المالية ، وما أن طرده الخديو إسماعيل باشا ،
حتى اكتشف سرقة أربعين مليون فرنك من مال الدولة .
ولقد وصف قنصل أمريكا في مصر آنئذ ، ملك هذا اللص
العظيم ، فقال : لم يكن ملك سليمان يضم كل هذه القصور والحدائق
والجوارى والمجوهرات .

كان في قصوره سبعائة جارية ، وله ثلاثون ألفاً من أجود
الأفدنة ، واشترى مرة لزوجه مروحة مرصعة بالجواهر استوردتها
من باريس بما يقرب من نصف مليون فرنك ، كل ذلك غير الأربعين
مليوناً السابقة . . . أنفقتون أن إسماعيل المفتش هذا قد مات ؟
لا .. إنه لم يموت . . . مادام يوجد بيننا من طرازه عشرات وعشرات .
إن قانون ، من أين لك هذا ؟ ، هو الوسيلة الناجعة للمساواة بين

المواطنين أمام القانون . وهو الكلمة الرهيبية التي ستجلبل في روع
الصوص الكبار حين يحاولون السلب والنهب ، فيكفوا أيديهم
خوفاً وحذراً — فأين هذا القانون ، وما مصيره ؟

إن الحاكم التزيه هو وحده القادر على أن يجعله حقيقة ماثلة
ونافذة وصارمة . فأين هذا الحاكم لنحييه تحية الولاء والإعجاب ؟

• • •

ب - مشروع محمد خطاب :

وتبدأ اشتراكنا كذلك بتحديد الملكيات الزراعية ، وتغيير
الأوضاع الإقطاعية تغييراً يمكن رفيق الأرض من التحرر والخلاص .
وصحيح أن الحكومة بدأت تستصلح بعض الأرض وتبيعها للفلاح
بيعاً يشبه المنحة والهبة ، وهي خطوة محمودة أيضاً ، بيد أنها لن تنحو
عن مجتمعنا وصحة الإقطاعية المقيتة ، وإن تقدم للظالم السفهان
الإقطرات لن تبلغ فاه ، ولقيات لا تقيم صلباً ولا أوداً .

ولقد زال السبب الذي من أجله قسمت الإقطاعيات الزراعية
قسمتها الأولى . . يوم كان الفلاح عاجزاً عن زراعة المساحات
الواسعة ، وكان تعداد الفلاحين نزرأ ضئيلاً .

أما اليوم فكل فلاح قادر على أن يزرع . وهو يريد أن يطلع عليه
نهاره غده ، وفي يده عشرة أقدنة أو خمسة . يعمل فيها سيداً لا عبداً
ولا أجيراً . فلماذا لا تمكنه من هذه الرغبة فيسترد كرامته وشخصيته
ويبذل من الجهد الرضى ما ينسج ثروة الوطن ويضاعفها ؟

لمساذ لا نصنع كما صنعت تركيا العاقلة التي اشترت حكومتها

الإقطاعيات الكبرى ، ثم باعتما للفلاحين ، وقسمتها عليهم قسمة عادلة فاضلة مرضية ؟

إن لدينا مشروعا ، جاهزا ، هو مشروع محمد خطاب بك الذي أعلنه تحت قبة البرلمان وهو أحدث شيوخه الموقرين ، وأبلى في الدفاع عنه أحسن البلاء ، ونستطيع أن نعدله ونرفع الحد الأدنى خمسين فدانا أخرى إذا كان ذلك يفتح الإقطاعيين ويرضيهم .

لا بد من تصفية هذه الإقطاعيات عن طريق الحكومة . . ونحن نؤمن بواسطة الاستقراء . أن تصفيتها آتية لا ريب فيها ، وهذه الشمس — شمس مصر الصافية ستشرق يوما ما ، وقريبا جدا ، على المزارع المبتوثة في أرض الوادي الأخضر ، تمثل سيادة الفلاح ، ونرغم إلى تحرره واستقلاله . . فلماذا إذن نرجئ هذا اليوم الجليل ؟ فلنتقدم الحكومة ، أوليتقدم البرلمان . أوليتقدم معا . إن وثيقة الرق التي سنسجل نهضة مصر الحقيقية ، لانزال بيضاء غائقة — تنتظر الحكومة المخلصنة القوية التي نكتب فيها هذا السطر الواحد : لاملكية زراعية فوق المائة فدان .

هذا السطر الذي سيدفع الوطن مائة عام إلى الأمام ، والذي سيحقق لسكان أربعة آلاف قرية تكافؤ الفرص قدر المستطاع ، والذي سيثمر منافسة عادلة وهائلة يفتح فيها الغلاء ، وتمهدنا تحسين أحوال المعيشة في الأمة كلها .

ج — تجديد الإيجارات الزراعية فوراً :

ولماذا لم يستجب أولو الأمر لهذه المشيئة التي أجمع عليها الشعب ورأوا لأسباب مقنعة أن يرجئوها . فنأسف إلى حين ، على

الفرصة الخالدة التي يزهقونها . . وعليهم فوراً باسم الشعب الذي
حياتهم بثقته وتأييده ، أن يرفعوا عن الفلاح ذلك الإصر المبهظ
الثقل — إصر الإيجارات الزراعية الطائشة الجشعة . الآن لا غداً .
فربما فات قوماً أجل أمرهم من التأني وكان الخزم لو عجلوا

• • •

من هم هؤلاء الذين يعيثون هناك ، وراء الستار الحديدي
للتفايش والضباع ، وبوقعون الإيجارات على بياض ، وتفيض
أعينهم من الدمع حزناً ، ألا يجدوا ما ينفعون . ؟
إنهم آباؤنا ، وأمهاتنا ، وإخوتنا . إنهم ذخّر هذا البلد
وشرايبته وحياته — وسوف يستروحون غسبات من الراحة إذا
نحن ذكرناهم في كفاحهم المضى وشفاتهم الرهيب — فقدّمنا لهم
هذه الخدمة البسيرة وهبطنا بأجور الأرض التي يستأجرونها إلى
حد مستطاع معقول .

فلنصنع كما صنعت ، سويسرا ، إذ ألغت لجائاً فنية قسمت
أرضها الزراعية إلى اثنتي عشرة طبقة ، ثم جعلت لكل طبقة منها
أجراً معلوماً .

ولنصنع كما صنعت ، أيرلندا ، التي أنشأت محاكم خاصة لتتصرف
على تنظيم العلاقة بين المالك والمستأجر ، وتفصل في كل نزاع يقوم
بينهما ، وتفرغ لمراقبة المالكين حتى لا يتحايلوا على القانون
ويستغلوا المستأجر استغلالاً لا غير مشروع .

ما أبسر هذه الخطوة ، وما أجل نفعها ، فهل نبخل بها على
علايين المواطنين الذين يهوننا الخياض . ؟

وهناك اقتراح آخر عظيم الفائدة — للاستاذ توفيق الحكيم .

فلقد كتبت إليه في يونيو سنة ١٩٤٨ ، كتابا خاصا بموضوعنا هذا ، وكنا يوم ذاك في موسم الحصاد الذي أحاله الإيجارات المرتفعة إلى ، مآتم الحصاد ، فنشر الرسالة وعلق عليها بأقتراحه الجليل — وهذه هي رسالتى إليه .

... من هو بطل المعركة في فلسطين ؟ ومن الذى يصنع هناك المعجزات ، ويشتري المجيد بدمه وعصمه وحياته ؟ أليس هو جندي الجيش ؟ ... إن جنود الجيش هؤلاء ، هم أبناء خمسة عشر مليوناً من الفلاحين الذين يحتازون اليوم محنة جاوزت طاقتهم ... خمسة عشر مليوناً كتب عليهم أن يموتوا كل عام مرتين ... ومتى ؟ في مواسم الحياة والشمس ... في موسم الحصاد ... إنك لو هبطت اليوم أغلب تفانيننا ، لهالك منظر خطرنا وهم يكفون القمح من والأجران ، كنس ... وبأخذونه نظير الإيجار ، دون أن يتركوا فحة واحدة لتلك الذى سماها بدمه وعرقه ... ولستنا بالطبع نطالب أصحاب هذه التفانين أن يهرعوا بالإيجار ، وإنما نرجوهم وقد دعينا إلى الترفية عن حبسنا العظيم ، أن يعلموا أن أكرم نرفيه عن الجنود هو البر بآبائهم وأهليهم ، وذلك بعدم إرهابهم في التحصيل ، ونشر الأستاذ الكبير هذه الرسالة بالعدد (١٩٠) من أخبار اليوم — ثم علق عليها بهذا الرأى :

إذا كان القانون لا يجيز الحجز على كل مرتب الموظفين ، بل يترك له قدراً يمكنه من العيش ، فماذا يمنع من سن مثل هذا القانون بالنسبة إلى الفلاح الذى يعمل فى الأرض . لماذا لا تعتبر الدولة أن الفلاح الذى هو عماد الثروة القومية شبيه بموظفيها ، فتترك له قدراً من المحصول يكتات به ، تخرجه من نطاق الحجز ، ومن حساب السداد

يوم تسوء الحال ، ولا يستطيع الحصول أن يقي بقيمة الإيجار .
ولقد آن الأوان أن ننصف الفلاح وأن نعني بمعاشه ، وأن
نحوطه بشيء من الحماية . . فقد اتقضى العهد الذي يقال فيه للفلاح :
« يمتنا كيف نسد ولا يمتنا كيف نأكل ! » .

....

والآن - تستطيع وزارة الاقتصاد القومي أن تثبت فائدتها
للفلاح بالذات ، فتصدر تشريعا يجعل جزءا كافيا مما تخرجه
الأرض ، منطقة حرام . لا تقبل الحجز ولا المطاردة ، وأن
تصدر أيضا التشريعات التي تحدد إيجارات الأطنان وتخفيضها
مستهدية بالإجراءات التي اتبعتها دول ناهضة والتي ذكرنا بعضها .
ونحن نعلم أن الإقطاعيين الزراعيين ، من كل حزب وقبيل ،
يقفون بالمرصاد لكل محاولة من هذا النوع - ولكننا نعلم أيضا
أن الحكومة المؤمنة بشعبها ، لا يزيد لها هذا الترهص إلا عرما
وإصرارا . . ونعلم أيضا أن الحكم الذي يشايح هوى هذه الطائفة
ويتسيم بسياها ، لا بد أن تذهب ربحه ويصير من الخائنين .

وإنا نرجو أن يبق سادتنا إلى ضمائرهم ، وأن يهبهم الله من صحة
العقل ، وصحة العاطفة ما يذكرون به أن الوقت الذي نعيش فيه
أمره واحدة قد آن أوانه ، وأن لكل كائن حي ، حقا في أرض الله
وسمائه . . وأن الله ذاته هو الذي سجل هذا الحق في وثيقة خالدة
حين قال : « وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعا منه ،
أفيسطيع كائن من كان من البشر ، أن يحتكر لنفسه ، وحسابه
الخاص ضوء القمر ، وحرارة الشمس . والسحاب الثقيل . . »

إن منافع الأرض مثل ذلك ، لا ينبغي أن يحتكرها لأنفسهم طائفة
ثم يحرم منها بقية الناس .

د - التأمين . - وحقوق العمال :

ومن الوسائل التي لا مناص من الأخذ بها لتتحول إلى مجتمع
أشترأ كي رشيد - تأمين مرافق الدولة قدر المستطاع وصيانة
حقوق العمل :

ولقد رأينا من قبل ، كيف طبقت حكومة العمال في إنجلترا
سياسة التأمين على نطاق واسع ، والآن وهي تتقدم إلى الشعب
الإنجليزي مطالبة بثقته في الانتخابات ، لم تعد بأكثر من أنها
ستؤتي سياسة التأمين على نطاق أوسع . إن التأمين هو الوضع
الطبيعي الذي ارتضاه الناس ، ويسارع إليه المجتمع الإنساني ، وفي
ظله يندم التباين البعيد بين دخول الأفراد ، وبين الأغنياء
والفقراء ، لأنه يعني نقل ملكية الإنتاج إلى الدولة وتحرير قوى
الإنتاج المحبوسة في أيدي الرأسماليين ، والقضاء على الفروق الاجتماعية
والتباين الكبير في الدخل المالي .

وكثيرا ما تزعم الكهانة أن نقل ملكية الإنتاج إلى الدولة
مخالفة لمخلوقة ، وخروج على تعاليم الدين . فهل هذا الزعم صحيح
وهل سياسة التأمين تعني هدم الملكية الفردية ؟
إننا لكي نجيب على هذا الزعم ونفنده ، ينبغي أولاً أن ندرك
الفارق بين حق التملك ، ونوع التملك .

فالأول وهو حق أو مبدأ الملكية الشخصية - أمر مفروغ
من ثبوته شرعا وعقلا وعرفا . وكل بلاد العالم قاطبة تحترم هذا

الحق وتعترف به لرعاياها ومواضيعها .

ولكن الثاني - أى نوع الملكية - هو الذى يخضع لظروف الأمة ، وتطوراتها الاجتماعية ، فيتحرك ويتغير حسب الحاجة والظروف . فإذا اختارت حكومتنا مثلاً نوعاً معيناً من الملكية ، وهو الملكيات الإنتاجية ، وحررتنا من أيدي الأفراد ، وأشرقت عليه لصالح الأمة - فإن الدين يبارك هذا التصرف ويثبته .

ونحن نعلم - ولكننا أيضاً نعلمون - أن الإسلام لا يحرم فرض الضرائب التصاعدية ، ولا ضرائب التركات ، ولا تحديد الملكية الزراعية مثلاً . ما دام والى الأمر يرى مصلحة المجتمع وتقدمه فى ذلك . مع أن هذه الضرائب ، ولا سيما ضريبة التركات ، اقتطاع جزء من حق ممتلك لمصاحبه ، وإذن فأنجزه على بعض الشيء لصالح الدولة تجبزه كذلك على الكل .

ولكن تستبين وجهة نظر الدين فى الفسارق بين حق الملكية ونوعها ، تضرب هذا المثل :

أراد زيد ، من الناس أن يحوز لنفسه قصراً ، ويمتلك عربة من أحدث طراز ، وطائرة خاصة تحاق به فى جو السماء ، ومن وراء هذا كله رصيد دسم فى أحد المصارف . فهل يحرم عليه الإسلام امتلاك هذه الأشياء ما دام قد جاء بها من طريق مشروع ؟ طبعاً لا . ولكن ، إذا أراد هذا الزيد ، أن يمتلك خسارة مثلاً ، أو حظيرة مزرعة بالخنازير . والمفروض فيه أنه مسلم ، فهل يحل له هذا الامتلاك ؟ طبعاً لا . لأن طريق التملك والتقليك هو البيع والشراء . وهذه محظورات حرم على المسلم بيعها وشراؤها ، فأى له امتلاكها ؟ ومن هذا المثال ندرك أنه إذا كان مبدأ الملكية ثابتاً للأفراد ،

فإن نوع الملكية متحرك ، يخضع لأحكام الإباحة والتحریم ، فيباح
 للفرد بعض أنواعها ، ويحرم عليه بعض آخر . . . ومن المعلوم أن
 حكم الحاكم ، ولا سيما فيما يتصل بشئون الدنيا ونظمها ، يتمتع بمثل
 سلطة الحكم الشرعي من حيث النفوذ والاحترام — فإذا رأى ،
 كما ذكرنا من قبل ، أن يجعل ملكية الإنتاج حقاً للدولة وحدها ،
 ويحرم منها الأفراد ، كان ذلك جائزاً ، وكان شرعاً ودينياً .
 لقد أذن الله ورسوله ، من يحتكر من أرزاق الناس أقدام
 قح ، أو أرطال زيت ، باللعنة الماحقة ، فكيف لا يغضب على الذين
 يحتكرون ينابيع الحياة ووسائل الإنتاج احتكارات بقوت على الدولة
 أغراضها ومصالحها . . . ؟

• • •

وحين تصبح لناسية تأميم نافذة ، فإن حقوق العمل متصان
 في ظل هذه السياسة ، وما أجمع هذه الكلمة التي قالها الرأسمالي
 الأمريكي « إريك جونستون » :

« إن الحكم في دولة ديمقراطية هو حكم الأكثرية ، فينبغي
 للأكثرية ، وهم العاملون ، أن نحس أنها تنال قسطها من الربح في
 نظام قائم على مبدأ الربح ، فإن لم نحس ذلك قريباً رأيت أن تعمل
 على قيام نظام آخر . . »

وإن الحكومة لتؤدى خدمة كبرى — لنفسها ، وللوطن —
 إذا أتاحت للعامل الزراعى فرصة التكوين ، فتتولى تأليف نقابات
 لهم تضم جميع العمال الزراعيين في القرى . وتدرهم على نظمها ،
 ليشتبوا عن طوق الجهالة والخنول والبدائية . وتبدأ من فورها هذا
 بتجربة نظام المزارع التعاونية وتعاونها بالإرشاد الفنى والقروض

والآلات ؛ فإن الأمم التي جربت هذه الخطوة تشهد بنتائجها الباهرة
وأثرها في ، بحسن مقدار الإيراد ، وفي زيادة مساحة الأرض
المزروعة . وفي التوسع الكبير في استخدام الآلات وتطبيق
الأساليب العلمية في الزراعة وازدياد الانتاج . .

• • •

وبعد ، فلننازعهم أننا نقترح هنا منهجاً اشتراكياً كاملاً ، إذ
أن هذا العمل فوق طاقتنا واستعدادنا ، ولنا نزع أيضاً أن هذه
الوسائل التي نحدثنا عنها ، وطالبنا بأن تبدأ بها اشتراكيتنا ، هي
وحدتها العلاج الشامل لأمرضنا — وليست كلها فقط خطوات أولية
تفضي بنا إلى اشتراكية مابغة واضحة المعالم ، محددة الأهداف
وفائدة هذه الوسائل الأولية من الوضوح بحيث لا تحتاج لكي
نملك حق الحديث عنها والإيمان بها والدعوة إليها ، إلى أن نحمل
دكتوراه في الاقتصاد السياسي ، فلهؤلاء العلماء الاقتصاديين نترك
تفصيلات هذه المبادئ ، وتطبيقها التطبيق الرشيد ، بما لديهم من
مقدرة كافية لإدراكها وجعلها حقائق ماثلة وواقعاً ملموساً .

• • •

وأخيراً . . ففوا هذا السيل :

والوسيلة الأخيرة التي لابد منها لتنفيذ نهج اشتراكى صحيح .
هي تحديد النسل وتنظيمه .

وقد يسأل سائل : ما علاقة الاشتراكية بتحديد النسل ؟
وجوابنا أن لها به أوثق الصلات ، ولا سيما حين يراد تطبيقها
في مجتمع كمجتمعنا الذي يفره طوفان من السيل البشرى ، يتدفق

من الأرحام بغير وعى وبلا حساب .
فالاشتراكية هنا يجب أن تنتظم شيئين :

١ - تنظيم الإنتاج المادى .

ب - تنظيم الإنتاج البشرى .

وإن أى تفاوت يقوم بين الإنتاجين ليسبب للأمة متاعب
عضوية... من أجل ذلك يصبح حقاً لازماً على المجتمع لكي يسعد -
أن يعرف راجه إزاء هذه المشكلة ، وبؤديه على خير الوجوه وأنماها .
وإذن ، فمن تتوجه بالحديث الآن إلى المواطنين ، فعلى
كواهلهم وحدهم يقع عبء مكافحة هذا الطوفان . . . وهنا حقيقة
يفضى أن نعرف جيداً ، هى أنه لا أمل مطلقاً فى تحسين مستوى
المعيشة بينما ما دامت نسبة المواليد تزايد تزايداً فاحشاً . حيث
يهبط على المجتمع أربع مائة ألف نسمة كل عام ، وهو غير مستعد
لاستقبالهم ، ولا قادر على رعايتهم - ولو لا كثرة الوفيات بين أطفاله
لأصبحت الحياة فيه ضرباً من الخرافة والفوضى والحال .

وموطن الخطورة فى هذه المشكلة ، أن المجتمع لا يعرف عنها
شيئاً ، ولا يدرك قط أنه أمام كارثة تهدد رقيه وسعادته .

فما على أحدنا إلا أن يتزوج ، ثم إذا هو وزوجه ، معمل
تفريخ ، يضرب الرقم التباسى فى إنتاج البنين والبنات - ولا يحاول
الوالدان أن يفكرا : هل لذريتهما الوافدة مكان فى المجتمع أو ليس
لها فيه مقام ؟ وهل يملكان من الفرص والإمكانات ما يسمح
للضحايا بالحياة أو هما لا يملكان ؟

وإن مقارنة بسيطة بين بعض فقرات تمونا ، ثم يثنانى نسبة النمو
وبين الأمم الأخرى التى لديها من الموارد أضعاف أضعاف الذى

لدينا التفتح عموماً على خطورة هذه القوض التناسلية التي تمارسها ونتمسكها
 فينا زدنا في الأربعين عاماً من سنة ١٨٩٧ إلى سنة ١٩٣٧ ،
 مليون فقط ، إذا بنا يزيد في الأعوام العشرة من سنة ١٩٣٧ إلى
 سنة ١٩٤٨ خمسة ملايين مرة واحدة ! ونحن ننقل هذه الأرقام
 عن مقال نشرته جريدة الزمان والمذكور محمد عوض بك ، الذي
 ذكر أيضاً ، أن نسبة المواليد في مصر أعظم منها في أى قطر آخر ،
 وأن النمو في مصر يماثل ضعف النمو في الولايات المتحدة ، رغم
 ما تزخر به من موارد ضخمة ، وذهب كالجبال !

وإنما اشتمال مرة أخرى ، لولم تكن نسبة الوفيات عندنا أعلى
نسبة في العالم . فكيف كان تعدادنا يبلغ اليوم ، وكيف كنا نعيش ؟
إننا أمام نحو غير طفيف يشبه مرضه ونحو العظام ، . وكلاهما
قد يعجب الناظرين . بين أيهما يخفيان وراء المظهر علة فأسسه ،
ووياء جاعها مستظير أ

ولقد قرأنا أول هذا الفصل ، كلفة للعالم الكبير ، سير جون
نوبل أور . . . والآن لنستمع إلى فيعه الأكبر من التصخم المنتظر
في سكان الكوكب الذي نعيش فيه ، في الوقت الذي نفقد فيه الأرض
بسبب عوامل التآكل والاحتلال الملايين الأمان من طينتها الطيبة
الخصبة فيقول : . . . إن استهلاك الفرد لا يمكن أن يبلغ مستوى
ما عليه في عام ١٩٣٨ ، وذلك لأن سكان العالم زادوا اليوم مائة وخمسين
مليون نسمة ، عما كان عليه تعدادهم منذ عشر سنوات ، وفي السنين
الأربعين أو الخمسين القادمة سيزيد سكان العالم زيادة تتراوح بين
خمسائة مليون وألف مليون نفس يجب أن يطعموا . . . والموارد
التي تمدنا بالغذاء تشير إلى التلعب بسرعة كبيرة ، فان عوامل التآكل

والاضمحلال تأكل من الأرض سنويا ملايين الأطنان من طينتها
الطينية في كل قارة وتقذف بها إلى البحر ، فتحن إذن نعيش على
كوكب منهوب . . . (١)

فهذه النظرة التي ينظر بها العالم إلى مستقبل العالم . هي التي يجب
أن ننظر بها إلى مستقبل مجتمعاتنا المصرية .

إن النسبة بين عدد السكان عندنا وبين مواردنا صاعدة لانكاد
نطبق سماعها ومرآها . فالأرض الزراعية التي كانت مصر تستثمرها
وتعداد أهلها خمسة ملايين . . . الانزال هي التي تزرعها اليوم
وتعداد سكانها عشرون مليوناً . انما جعل البطالة ، والاملاق ،
والمرض حلفاء مخلصين لمجتمعنا .

ونحن نعلم أن منذاً هذه الفوضى التناسلية ، راجع إلى سوء فهم
الدين والقدر والتوكل — كما يدعوننا إلى إعلان وجهة النظر الدينية
في هذه المشكلة الرهيبة فنقول : إن الاسلام يبيع التحكم في النسل
لصالح المجتمع وصالح الفرد ، ويمد الاسراف فيه — مع وجود
الخصاصة والضييق — ضرباً من البلاء لا يطاق .

وفي حديث كريم أن النبي . عليه السلام ، كان يكثّر من هذا
الدعاء : اللهم إني أعوذ بك من جهد البلاء .

قيل : وما جهد البلاء يا رسول الله ؟

قال : قلة المال ، وكثرة العيال

ومثل عن العزل . فقال : لا عليكم ألا تعزلوا .

(١) من خطابه الذي ألقاه في مؤتمر جامعة شعوب الهند للسلامة ونور هذه المائدة
بوشدغل في أبريل سنة ١٩٥٨ وكان هو رئيس المائدة وقد نشرت صحف هذا
الخطاب في جيبه .

والعزل يومذاك كان الوسيلة الوحيدة التي يمكن بها التحكم في النسل
وضبطه ، وقد أباحه الرسول بالإقديكاراً بنافي الحديث السابق وكما سنرى
في الأثر الآتي - وكلها دعوتها وذكرت أساسيدها ككتب السنة الصحيحة .
روى أنه جلس إلى عمر - علي والزبير وسعيد ونقر من
أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فتذاكروا العزل . فقال :
لا بأس به . فقام رجل وقال : إنهم يزعمون أنها مودة المصغرى
فقال علي رضي الله عنه : لا تكون مودة حتى تمر على التارات
السبع : تكون سلالة من طين ، ثم تكون نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة
ثم عظاما ، ثم لحماً ، ثم تصير خلقاً آخر . فقال عمر رضي الله عنه :
صدقت أطلال الله بقاءك

وإذا كان الإسلام يبيح العزل - وهو حيولة بين الحيوان المنوي
وبين الوعاء الذي يتجمع فيه وينمو ويكون شخصيته التي تصبح فيما
بعد إنساناً - فإنه يبيح بالقياس على ذلك كل وسيلة أخرى مستحدثة
وكثيراً ما يخطر ببال السذج من الناس أن التحكم في النسل
لا يتفق والثقة في الله والإيمان به ، وأنه ما من نفس أراد لها الله
أن توجد إلا وستوجد ، شئنا أم أبينا . ونحن ننفي الشطر الأول من
اعتراضهم ، ونوافقهم على الشطر الأخير . بيد أننا نلفت أنظارهم
إلى أن الإيمان بوجود من أراد له الله أن يوجد ، لا يتعارض مع
دعوتنا إلى التحكم في النسل وضبطه .

فنحن نؤمن حين يطوف بالناس وباء أنه ما من نفس كتب الله لها
الموت به إلا وسوف تموت . وما من أخرى قدر لها البقاء إلا وستقضي
ثم لا يمتنعنا إيماننا هذا عن نعيته كل القوى لإبادة الوباء ومطاردته
وهذا هو نفس موقفنا من وباء الطوفان الآدمي الذي يوشك أن يجرف

المجتمع ويلقى به في ساحل القوضى والإلاق إن لم يكن قد جرفه فعلا
 فإذا ما كنت فرداً عاقلاً، ومواطناً صالحاً - كان جدير أن لا أخرج
 للحياة عن طريق أكثر - ما تطيقه ظروفى، وتقدر عليه فرصى
 وإمكانياتى . وإذا ما تحكمت فى النقل بكل الوسائل الناجمة ثم فاجأتى
 القدر بعصبة . . أعنى بمولود . . فما باليد أنثى حيلة ، لقد سار كل
 واحد مثا - أنا والقدر - فى طريقه . . وأدبت واجبى الذى فرضه
 على العقل والدين ، ونفذ القدر مشيئة عليا ليس إلى تعويقها من سبيل .

• • •

إن الأبناء نعيم وفردوس ومتاع للوالدين أى متاع ، وعناد
 للوطن ما بعده من عناد . . إذا اتسقوا مع زمانهم، ولم يكونوا فوق
 مستوى طاقة أهليهم ومجتمعهم . إذا مرضوا وعولجوا، وإذا ظلموا
 وجدوا - لهم من الحياة ما يشاءون ، وأكثر مما يشاءون .

أما حين يتدققون كالسبل المنهمر ، فإنهم يكونون لعنة على
 أنفسهم ، وشقاء لأبائهم ، ولوطنهم . وعندئذ تتجاوب أنحاء
 المجتمع بشبهة أبى العلاء المعرى :

هذا جنائى أبى على وما جنيت على أحد

وبصيحة شاعرنا المصرى ، ابن الوفاء ، :

أبى ، وفى النار مثوى كل والدة ووالد أنجبا للبؤس أمثالى
 وقد بظن مواطنونا الصالحون أنهم بهذا القبض الأدنى الذى
 ينتجون ، يستجيئون للرسول القائل : « فئا كحوا ، تناسلوا ، فإنى
 مباه بكم الأمم يوم القيامة » .

ولئن فهم يفسون ، أو يجهلون أن الرسول نفسه ، تدبأ بهذا
 الفناء وأنكره وقال : « تردون على حوضى يوم القيامة أرسالا

وأما فاقول بعداً بعداً ، سحفاً سحفاً ،

وهذا الطرد الذي منه حظي به الملايين الكثيرة يوم القيامة بين
أن موضوع المباحاة ليس العدد - بل القيمة ، والأهلية ، والصلاحية
فلنذهب إلى رشدنا ، ولندرك جيداً أنه إذا كان إنجاب الذرية
قدراً نافذاً ، فإن التحكم في هذا الانجاب قدر نافذ أيضاً - وعليها
أن نصنع كما صنع عمر ، حين فر من قدر إلى قدر .. هل فر من قدر
يرهقنا ويضيقنا إلى قدر ينعشنا ويحيينا .

° ° °

ولا بد مع تحديد الفصل من تنظيمه ، والفرق بين الاثنين واضح :
الأول يعني الكم ، والثاني يعني الكيف ، وكلاهما ضروريان لسلام
المجتمع وسلامته .

والمواطن الصالح لا يقبل أن يكون أباً ، وزوجاً ، وهو يحمل
بجموعة من الأمراض والأوبئة ، يعلم أنه سيورثها لعقبه وذريته ،
وإن الدين والعقل والصالح العام والخاص : يفرضون علينا وجوب
التحرر من المرض قدر المستطاع قبلما نحاول أن نصير آباء أو
أمهات ، وأن نتوجه إلى مكاتب الكشف الطبي في غبطة وشجاعة
قبل ما نحاول أن نكون أزواجاً أو زوجات .

وإذا كان العقل البشري قدر أى منذ آلاف السنين ، أن يقتل
الطفل الضعيف المريض ليتخلص منه ، فليكن سبيلنا اليوم ، ألا
توجد هذا الطفل الضعيف المريض - وهو مانع به بتنظيم النسل .
صحيح أن كثرة عدد الأمة يقيدھا اجتماعياً وسياسياً واقتصادياً
إذ يمكنھن من إعداد جيش وفير ، ومن اقتناء الأيدي العاملة الكثيرة .
ولكن هذا المعنى ينبغي ألا ينسینا أن أقدار الأمم لا تنطأ الآن

بالكثرة التافهة العاطلة ، كما تناط بالقلة الناضجة العاملة . وإن
الإجابة عن : كيف أهلها ؟ لا : كم أهلها ؟ هي التي تقرر مصائر
الامة وتعين مقامها في الحياة .

وصحيح كذلك أن بعض الأمم الكبرى الناهضة ، تعمل على
تدمية النسل ، وتمنع جوائز الامومة ، لمن تنجب أكبر قدر من
الابناء ، ولما كثرها أمم مستعدة بنظمها ، وإمكاناتها لاستقبال أبنائها
الوافدين الذين يجدون كل الفرص والمباهج والمرات من أول
لحظة تستقبلهم فيها الحياة .

فإلى أن ترقى نظمنا ، ويتم استعدادنا ، وتنسج إمكاناتنا ،
وتستغل ثروتنا المضيعة هباء - يذهب أن يكون المقص ، لا الإنجاب
هو الذي تكافئ عليه الدولة بجوائز ونياشين .

والآن كيف نقاوم هذا الوباء ؟

لا نظن أن الحكومة مستعدة لمكافئته بقانون . فضلا عن أن
مثل هذا العمل لا يكاد يجدى ويفيد .

وإذن فلنتوجه إلى الشعب لثقله هذه الحقائق ، ونحدد لكل مواطن
واجبه حيال هذه المشكلة . ونستطيع عن طريق الإذاعة ، والصحافة
ومنابر الجمعة ، والمسرح الشعبي الطواف في القرى ، والروايات
الدينامية والمسرحية أن نفتصر على هذا الطوفان .

وإني لأناشد كل مواطن يقرأ هذه السطور ويؤمن بها - أن
يتعهد بتبليغها إلى عشرة فقط من المواطنين . وإذا نحن سألنا : ما هي
الوسائل التي تمكننا من التحديد ؟ كان جوابنا : إن العلم قديماً منها الشيء
الكثير ، ونستطيع إذا صح منا العزم أن نجد الوسيلة لما نريد .
إن المأر هيباً يعض قلوبنا حين نلتقي في الشوارع بصبية صغار

مهازل قد غامت وجوههم بالصفرة والانتكاس والحرمان ،
وازدهمت عليها علامات استفهام كثيرة تنسأل :

لماذا جئتم بنا ، وأنتم عاجزون عن إطعام جائعنا ، وإبراء سقيمنا ؟
ومن أجل هؤلاء الضحايا . . ومن سيلحقون بهم ، من الذين
يتربص بهم سوء الحظ المحتقن في طوايا الشبهوات . . يجب أن تصنع
شيئاً ونفكر قليلاً .

وبعد فقد آن أن نفرغ من هذا الفصل . . الخبر هو السلام .
بعد أن أضأنا شمعة نبصر في ضورتها طريق الرخاء والمجد . وبعد
أن سقنا بعض الوسائل الهامة التي نعتقد أنها قادرة على إبلاغنا
حياة سميكة ، وتمكيننا من البدء في اشتراكية واضحة مسعدة .

وقد أشرنا فيه إلى بعض الواجبات المفروضة التي تنتظر كلاً من
الحكومة ، وأصحاب الأعمال والممتلكات ، والمواطنين . فليحمل
كل واجباته وتبعاته . . ولنسر معا .

إن السياسة لم تعد دهاء وتهرباً . . بل هي — كما يقول سان
سيمون — الفرأسي ، علم الإنتاج . .

وإن الرأسمالية لم تعد احتكاراً وانتفاخ أوداج ، بل هي اليوم
تكاثر الفرص لجميع الناس . .

وإن المواطنة لم تعد تعني موقف الحياد والعزلة أمام
الواجبات العامة ، بل هي أن تؤدي كل التزاماتك ك مواطن ،
وتحمل تبعه الرشد كإنسان .

قومية الحكم...

• إن الذي يقول لك : اعتقد ما أعتقد
وإلا تحكم — لا بد أن يقول لك : اعتقد
ما أعتقد ، وإلا فتك ،
(فولتير)

في المجتمع اليوم رأى ذائع ، بطالب ذووه بحكومة دينية ،
تحكم بما أنزل الله ، وتقيم الحدود في الأرض ، لأن إقامة حد واحد
منها خير للناس من أن يضروا أربعين يوماً ..

ومن العبث تجاهل هذا الرأي أو التقليل من شأنه . فانه - وهذه
هي الحقيقة - ينظم بين دعائه والمؤمنين به مجموعة طيبة من خير
عناصر الأمة وشبابها . خرجوا من المحنة التي مرت بهم أكثر إيماناً
به ، وأشد تعصباً له . وليس معتقل التطور ، ولا السباط ، بقادرين
على إخماد رأى أو تحويله عن وجهته . فالمبادئ لا تتقل والعقائد
لا تمذب ولا تجلد . وسباط الجند لا تزيد حملة المبادئ والأفكار
إلا تقانياً وإصراراً . . . يمكن التفاهم ومحاولة الإقناع هما اللذان
يظهر أن الأفكار من بعض ما يشوبها من وهم وخطأ .

وإذا كنا نرى في الحكومات الدينية تجربة فاشلة .. ونرى في
العمل على عودتها انتكاساً إلى الأوتار الطرية المرهقة التي تخلصت منها
الإنسانية بمشقة وكبد . ومجازفة بالدين ذاته بمجازفة تعرض نقاوته
للكدر ، وسلامته للخطر . فقد أصبح من أقدم واجباتنا أن
تقدم لنا قسمة هذا الرأي . نحضرنا إلى ذلك الرغبة الصادقة في تطهير
كفاح الشعب بما قد يعوقه ، أو يرده على أعقابها ، والحرص على
صيانة الدين وإبقائه بعيداً عن مهاب العواصف والنداريات .

وإنا لنقف في خضم هذا العالم الذي تتقاذف أمه وتندافع إلى
الأمم سائلين أنفسنا : أنمضي قدما أم ننتكس إلى الوراء ؟

أنحرف عن قومية الحكم إلى عنصريته وطائفية ، أم نضاعف
هذه القومية ونتميها ؟ أنقر من عهد حرية الفكر وحرية القول
وحرية النقد - مهما يكن ذلك ضئيلاً - إلى عهد من قال لأمره

لم ؟ فقد حل دمه وبرئت منه ذمة الله . أم ثبت هذا العهد ونعوانه
على التزوج والاستواء ؟

أمنزج الدين بالدولة . فنفق الدولة ونفق الدين ؟ أم يعمل كل
منهما في ميدانه ، فترجحهما معاً ، ونزج أنفسنا ومستقبلنا ؟
وهنا في هذا الفصل سنجيب بصراحة وسنحلل ، ميكولوجية ،
الحكومة الدينية لتعرف القرائن التي تصدر عنها في تصرفاتها وسياساتها
وسنتبع العناصر السبعة التي تكون شخصيتها . والمثلات الكثيرة
التي ميزت تاريخها بالقسوة والفوضى .

ولا أظننا بحاجة إلى التنبيه على أننا بهذا الاتجاه لا نغض من
قيمة الدين وشأبه ، بل نعمل مخلصين على التحليق به فوق المخاوف
والأخطار التي تهدده حين يدعى لتحمل مسؤولية الأخطاء الفاحشة
التي تخرجها الحكومات المستغلة له المتنحلة لنفسها اسمه .

ولعلنا لم نفس بعد ، ما حدث للمسيحية .. فحين حولتها الكنيسة
إلى دولة وساطان ، واقررت باسمها أشد أصناف البغي والقسوة ،
جاء يوم ثار فيه الناس جميعاً على المسيحية وعلى الكنيسة ، واتخذوها
هزواً ولعباً ، وخلعوا كل مافي أعناقهم للدين من عهد وطاعة حتى
إذا عادت الكنيسة بالمسيحية إلى مكانها الطبيعي ، تبشر وتمهدى
فقط . رجع الآبقون إليها ، ولاذوا من جديد بها ، وبدأت هي
تستعيد سلطانها الأدبي ، واستقرارها الذاتي .

لا تغضبوا ...

وسوف يغضب هذا الفصل ناماً كثيرين ، كما ستغضب النصول
الأخرى ، آخرين وآخرين . عما قد يحملني على أن أصنع مثلاً صنع

عمر رضى الله عنه، إذ ضرب كفاً بكف وقال: يا حق ما أبقيت لى حبيباً -
وعزير على الذين أوتوا موهبة الحب والصفاء أن يعملوا على
إغضاب أحد . ولكن ما حيلتهم إذا خيروا بين العاطفة والعقل ،
وبين المجاملة والواجب ، وبين الناس والحق ؟

إنهم إذن غير ملومين . على أننا سنظل نسأل : هؤلاء
الغاضبون .. ما الذى أغضبهم ؟ إننا إذ نتقد الرأسمالية مثلاً ، لانفسى
أنها عامل من عوامل الرقى ، وأحد الاطوار التى يمر بها التقدم وهو
ماض إلى غايته . ونحن لم نسألها إلا أن تفسح الطريق لاشتراكية
عادلة يطلبها الشعب ويريدها ، وبذلك تظفر لنفسها بحسن الختام .

وحين نتقد السكينة والكمينة ، فلا جل أن تفرح كلما آذناهم
فيفيقوا عما هم فيه من وهم وضلال ، وبذلك ينفذون أنفسهم وينفذون
معهم ضحاياهم من الجماهير . وحين نتقد الآن الحكومة الدينية .
ذلك الأمل العذب الذى يرنو إليه فى أوقه البعید جماعات من الشباب
ويكاد وهو فى هالكة السحرية يخطف أبصارهم — فإنما يحفزنا إلى
البر بهؤلاء الميامين وجوعهم شطر تلك الغاية . . لأن التجارب
الكثيرة التى كلفت الإنسانية من وقتها ودمها أبهظ التكاليف جدرة
بأن تحملنا على بذل النصيحة للذين يحاولون إعادة المأساة من جديد
جاعلين من أنفسهم ومن شعوبهم وقوداً لتجربة فاشلة .

ثم لماذا بغضبك الرأى المخالف ، والفكرة المغايرة ؟
إنك بغضبك هذا تقدم الدليل على أنك لست شيئاً . وإنك
لم تبلغ بعد ، الدرجة التى تجعلك صاحب فكرة ومبدأ . ذلك أن
ولامك لفكرتك يحملك على احترام فكرة غيرك وتقدير رأيه ،

كيا يحترم هو فكرتك ويقدر رأيك .

وليس من حقلك أن نجر منى التفكير المستقل أو تسكت ملكة
النقد عندى ، بل إن ذلك ليس من صالحك .
أوافق أنت أنك على الحق ؟

إذن فلا تخش على الحق من المناقشة والمناظرة ، فإنهما لا يزيدانه
إلا نصاعة واتلافا . ودعى أمكر وفكر معى ، فتحن كما قال أفلاطون :
« مجانين إذا لم نستطع أن نفكر . . .
« ومنهصبون إذا لم نرد أن نفكر . . .
« وعبيد إذا لم نجرؤ أن نفكر . . .

وإذا رضيت أن تكون أحدهؤلاء ، فاهب وحرك ، ولا
تأخذنا معك ١ . إن الاستراية فى فسكره لا تعنى العزوف عن الحقيقة
وما أكثر الذين ينشدون الحقائق بكل مالدبهم من جهد . ولكنهم
يستريون دائما فى الأفكار ، الجاهزة ، والأفكار المتغطمة التى
تنادى أحدا من عليائها : خل عقلك وتعال . ١

ولإنك لتجرد فكرتك من أهم مبررات قبولها وتأثيرها حين
تمسحها من القدماسة المفتعلة . ما يجعل نقدها فى نظرك خطية وتجبديفاً
فلنتعلم من غيرنا . من أوئك الذين سبقونا إلى الرشد سبقاً بعيداً
واستكن آراؤنا ، مهما اختلفت ، شئوا عانبحث فى ضوءها المجتمع
عن الحقيقة ، لا حراً أبصطك بعضها ببعض . ويضرب بعضها بعضها
ويلقل كل منا الآخر إذا بعدت بيننا شقة الخلاف :

« أنا لا أقر كلمة واحدة بما كتبت . ولكنى سأقف حتى الموت
مدافعا عن حريتك ، مؤيداً حقك فى أن تقول ما تريد ، (١)

(١) هذه هى الكلمة الخالصة التى قالها فولتير لروسو ، عندما حكمت المحلات

طبيعة الدين :

لا نريد هنا أن نثير البحث القديم : هل الحكومة جزء من الدين أم ليست جزءاً منه ، ولن نتعرض له إلا بقدر يسير لا يخرجننا عن مهمتنا التي هي تحليل نفسية الحكومة الدينية ، وإقامة البراهين على أنها في تسع وتسعين في المائة من حالاتها جحيم وفوضى . وأنها إحدى المؤسسات التاريخية التي استنفدت أغراضها ، ولم يعد لها في التاريخ الحديث دور توديه .

وإن بما يهدتنا في بحثنا هذا ، أن نعرف طبيعة الدين ، وطبيعة الحكومة الدينية لئلا نرى بعد : هل يتواءمان ويتداخلان ؟

لقد جاءت المسيحية تعمل المحبة . وجاء الإسلام يعلم التوحيد ولو أنك وضعت إحدى الكلمتين مكان الأخرى لأدت غرضها . وأفادت معناها . وكلاهما وسيلة إلى أجل ما في الوجود وأسسى - إلى الحرية . ولكن التقليد الذي تلقيناه عن طريقه عقيدة التوحيد قد أطفأ إحساسنا بها ، ولكي نستعيد وضع هذا الإحساس وحرارته فلنتصور ذلك المبدأ الرفيع وهو يغادر السماء توا . إلى مجتمع معشاه أرباب وتسعة أعشاره رقيق وعبيد ، صانحاً بينهم : إن هذا أمته واحدة وأما ربكم . لا إله إلا الله الواحد القهار . ملاحظين أن ذاك المجتمع كان منطقة نفوذ لأرباب البشر . فأبوجهل ، والوليد ، وأبو طب ، كل أولئك متألهون . وجماهير فريش رقيق مستعبدين ، لا حول لهم ولا طول ولكي ترد هذه الآدمية المهانة اعتبارها ، ثم لكي تقارب بينها وبين المترعين على قيم الثراء والجاه ، وتوحد المجتمع الذي فرقت بينه

== الويسرية باسم الله = الله الأجاني = عدم معارضة قولهم لأراه روسو وقد دعا.

قروى غير طبيعية ، واستحوذ عليه أمياد كثيرون — فلا بد أولاً
من أن نوحدهذا المجتمع إله وسيد — أى تهديه إلى هذا الإله
الموجود الحق ، والسيد الأحد الذى لا سيد سواه . وبذلك تنزل
الأرباب الكاذبين عن عروشهم ، وتعلو كلمة الناس . وتنشر لواء
الحرية كى ينفى إلى ظلاله أولئك العبيد الذين احترقت أبشارهم بحر
الهجير المنبعث من جحيم الأرباب المخلوعين .

هذا ما صنعه محمد بالتوحيد . . . وهذا ما صنعه عيسى بالمحبة .
الناس سواسية ، والناس إخوة ، والحرية للجميع . ولقد أدرك
أرباب قريش هذه الحقيقة ، ورأوا فى توحيد الإله تقويضاً تاماً
لسيادتهم وما يعبدون . فلقد أصبحت رموس العبيد ترتفع إلى
السماء بعد أن كانت ترتفع إليهم . ونفوسه بعد أن كانت تقدم لهم
يتمثل فهمهم لهذه الحقيقة فى حجاج أبى جهل لرسول الله
صلى الله عليه وسلم .

- أجمتينا يا محمد لتعمل ابن سمية الدليل ، والوليد سواه ؟
- نعم فاعلموا ولدا آدم ، وآدم من تراب
- وتعلمهم أنداداً لنا وهم عبيدنا ومولانا ؟
- نعم ، ونعلمهم أئمة ، ونعلمهم الوارثين ، ونمكن لهم فى الأرض

هذه إحدى خصائص الدين قبل أن تخالطه الكمائنات
والخرافات . تحرير البشر من التسلط والاستغلال قبل أن فى طبيعة
الحكومات الدينية التى حكمت باسم الدين قروناً طويلة شئ من ذلك ؟
منجيب عن هذا السؤال فى حديثنا عنها بعد أن نزيد طبيعة
الدين توضيحاً — وذلك باقتفاء الغايات السامية التى جاء لتحقيقها

والسبل التي سلكها لبوغ هذه القبايات .

لقد سأل مفروق بن عمرو : رسول الله :

— إلام تدعوا يا أخا فريش ؟ فأجاب :

— إلى توحيد الله وأنى رسوله .

— وإلام أبضاً ؟

فتلا الرسول هذه الآية الكريمة : **وإن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى** يعظكم لعلكم تذكرون .

وهذه أيضاً بعض خصائص الدين ، العدل في الحكم ، والإحسان في

العمل . فهل اتسمت الحكومات المدينية بهذه السمة في تاريخها الطويل

والدين يدعو إلى الحب ، ويعجد المنحايين في الله ، ويعمل على

تكتيل البشر ويجمعهم على قلب رجل واحد ، ويحفل بأغصان الناس إلى

الله وإلى رسوله أولئك المفرقين بين الأحياء ، المتمسكين بالبراء العيب .

ولقد كان الرسول عليه السلام يحس إحساساً واضعاً بمهمته ،

ويعرفها حق المعرفة ، وهي أنه هاد وبشير ، وليس رئيس حكومة

ولا جباراً في الأرض ، عرضوا عليه يوماً أن يجعلوا له مثل ما

للأباطرة والحكام ، ففرع وقال : **لست كأحدكم إنما أنا رحمة مهداة** ،

ودخل عليه عمر ذات يوم فوجده مضطجعاً على حصير قدائر

في جنبه فقال له : **ألا تتخذ لك فراشاً وطيباً** لينا يارسول الله ،

فأجابه الرسول : **مهلاً يا عمر ! انظروا كسروية ؟ إنها تبوء لأملاك**

ففي هاتين الواقعتين تبصر تحديداً صريحاً لموظيفة الرسول ،

ومهمة الدين : النبوة لا الملك . والهداية لا الحكم .

وصحيح أن الرسول فاض ، وعقد المعاهدات ، وقاد الجيش ،

ومارس كثيراً من مظاهر السلطة التي مارسها الحكام ، وأقام بعض

خلفائه من بعده حكومات واسعة النفوذ عظيمة السلطان ، كان العدل لحنها وسداها . ولكن هذا لا يعنى أن هناك طرازاً خاصاً من الحكومات يعتبره الدين بعض أركانها وقرائنه ، بحيث إذا لم يقيم يكون قد أنهى منه ركن ، وسقطت فريضة . بل إن كل حكومة تحقق الغرض من قيامها ، وهو تحقيق المنفعة الاجتماعية للأمة — يباركها الدين ويعترف بها .

وإن الرسول لم يكن حريصاً على أن يمثل شخصية الحاكم ، لأن مقام الرسالة أرفع مقام . لولا الضرورات الاجتماعية التي ألجأته إلى ذلك ليحقق المنفعة والسعادة لمجتمعه الجديد ، من أجل هذا رأيناه ينفض يده من أكثر شؤون الدنيا التي يستطيع الناس أن يلتبسوا لأنفسهم فيها مخزجاً ويقول لهم : « أتم أعلم بشتون دنياكم » وعلى ذكر الحكومات التي أقامها بعض الخلفاء الراشدين ، وقبل أن نذهب إلى الحكومات الدينية لنحدث عن قسوتها وفوضاها نحب أن نلاحظ أن التوفيق الذي صادف أبا بكر وعمر ، وجعل لحكومتيهما تاريخاً مقدراً مجيداً ، لا يهض دليلاً مناقضاً لرأينا في فساد الحكومة الدينية . لأن هذا الطراز الرفيع من الحكم — فضلاً عن ندرته التي تكاد تجعله وسط مئات من الشواهد الأخرى ظاهرة غير طبيعية — يعتمد على الكفاية الشخصية والكمال الذاتي للذين كانوا يتمتع بهم رؤساء تلك الحكومات كأبي بكر ، وعمر بن الخطاب وعمر بن عبد العزيز . بدليل أنه عندما توفي عمر وجاء عثمان . . ذهبت تلك المقاييس المثالية والخصائص الرشيدة التي كانت تنشع بها الحكومة . وحلت مكانها أخطاء أودت بحياة عثمان ، وفتحت على المسلمين أبواب فتنة عاصفة هوجاء ، بسبب تلك البطانة التي

استغلت ودأعة عثمان ، وثقته المطلقة بها . فطبعت الحكم بطابعها ،
وسخرته لأطامعها واستغلاظها . ثم نوالى بعد ذلك الحكم الجائر
والملك المعوض الذي تنبأ به الرسول عليه الصلاة والسلام في
حديثه ، الخلافة بعدى ثلاثون سنة ثم يكون ملكا عضوضا ،

وهذه مسألة جديدة بالنظر ، فرغم أن تجربة الحكومة الدينية
قد توافرت لها في العصر الإسلامي الأول كل عناصر النجاح والتقدم
من قادة تناهوا في الإخلاص ونزاهة القصد ، وشعب مترع النفس
بالولاء لقادته ودعوته ، وجدة المبادئ وحرارتها بما يضاعف في
مؤثرات الفوز والنجاح . رغم هذا وغيره فقد أخفقت المحاولة
وانتهى الأمر بعد حين قريب إلى تنافس دموى هلى الحكم ، وفتنة
بين الناس وقادتهم وبين القادة بعضهم مع بعض ، وإلى نوع من
الحكم ليس بينه وبين الدين وشيعة ولا صلة . وإن زعم أصحابه
أنه حكم ديني . بل حكم الله ورسوله . ١

• • •

الدين والدولة :

عرفنا إذن طبيعة الدين ووظائفه التي جمعها الرسول في هاتين
العبارتين من روايته : : نبوة لأمك . وإنما أنا رحمة مهداة . .
فما حاجة الدين إذن إلى أن يكون دولة ؟

وكيف يمكن أن يكونها . وهو عبارة عن حقائق خالدة لا تتغير
بينما الدولة نظم تخضع لمواهل التطور والترقي المستمر ، والتبدل الدائم ؟
وهل الدين أدنى مرتبة من الدولة حتى يتحول إليها ، ويندمج فيها ؟
ثم إن الدولة بنظمها الدائمة التغيير عرضة للنقد والتجريح .

وعرضة للسقوط والمزائم والاستعمار ، فكيف نعرض الدين لهذه المهاب أو بعضها ؟ إن الذين يريدون أن يجعلوا الدين دولة ، ويؤمنون بوجوب قيام حكومة دينية ، يبررون ذلك بثلاثة أمور :
 الأول : القضاء على الرذائل الثاني : إقامة الحدود .
 الثالث : تحرير البلاد والعمل لاستكمال استقلالها ، وإنعاش أهلها .
 ونبدأ بمناقشة الأخير فنقول : إنه لا يشترط لتحرير البلاد وتدعيم استقلالها ونهضتها ، أن تقوم بهذا العمل حكومة دينية دون سواها . فإن أية حكومة قومية تقدم بالقوة والوطنية قادرة على تحقيق هذا الهدف . بل هي ولا ريب أقدر عليه من حكومة طائفية لا تمثل وحدة الأمة تمثيلاً كاملاً .

وأما الأول - وهو القضاء على الرذائل : فنحن نعلم أنه لا سبيل إلى ذلك إلا بتطهير النفس وتعويدها على احترام ذاتها ، وليست الدولة هي التي تستطيع بقوانينها أن تهبنا نقاوة النفس ، فما أيسر مغالبة القوانين واقتراف شتى فنون الرذائل دون أن نسمع أو ندرى ، بل إن مكافحة الإثم بقانون تجعل له من اللذة والإغراء ما يدفع الكاشيرين إلى تذوقه ومقارفته ، ثم إدمانه ، كما ترى في الخشيش ، وبقية المخدرات ، وهنا تصدق الحكمة القائلة : ما وضعت القوانين إلا لتخرق .^١ وتحقق فطنة عائشة رضي الله عنها إذ قالت :
 « لو حرم على الناس جاحم البحر ، لقال قاتل : لو أذوقه ١٩ ،

فالدين وحده - من غير أن يكون دولة - هو القادر على أن يوقظ في ضمائرنا واعظ الله ، ويجدد قلوبنا ، ويشبع حاجتنا الروحية التي إذا تمت وأزدهرت أغنفتنا عن كثير من شهواتنا الخفية والمعلنة وهذه الهداية إلى الفضيلة عن طريق الترويض والاقتناع هي رسالة الدين

ألم تأت يوماً على طريق ممتد، قرأت في بدايته علامات وشواهد
ترشدك وتذكرك على متجه ومرساة، وهل هو عهد للسير، أم به
مالاً يمكن من عبوره والسير فيه؟ إن تعاليم الدين كذلك. هي
علامات إرشاد، ترشدك إلى الطريق المستقيم، لكنها لا تنكر هك
على السير فيه. فمن أبصر فلنفسه، ومن عى فعلها. وما أنت
عليهم بجبار. فذكر بالقرآن من يخاف وعيد.

أولاً إن نفوذ الدين، وأثره في مكافحة الرذيلة ليكونان أرسخ قدماً
وقوم سببلاً حين يسلك طريقه إلى النفوس بالنساح والرفق
والحجاج الهادي والمنطق الرصين. أما حين تتحول هذه الوسائل
إلى سوط الحكومة الدينية وسيفها، فإن الفضيلة آتت تصاب بحزع أليم.
بقيت إقامة الحدود! فما هذه الحدود التي تريد حكومة دينية
لتقيمها؟ إن الحدود في الإسلام كثيرة. وحدود السرقة والزنا والخمر
هي أهمها وأكثرها اتصالاً بشئون الناس، وهي أيضاً التي يلوح بها
طلاب الحكومة الدينية، ويمنون الناس بإقامتها، كأنما يمتنونهم
بالفردوس المفقود!

وسنرى الآن أن هذه الحدود جميعاً موقوفة عن العمل، وليس
هناك مجال لإقامتها. فأما حد السرقة، فقد وقفه عمر في أيام
المجاعات، وصارت سنة رشيدة من بعده.

وسئل الإمام أحمد عن رجل سرق محتاجاً: أبقام عليه الحد؟
فأجاب: لعمرى لا أقطعه إذا حلت الحاجة. والناس في شدة
وجاعة، والشرق الإسلامي كله مجاعات مادام لم يستوف الناس فيه
ضرورات الحياة. وإذن فحد السرقة موقوف حتى ينزل الرخاء
مكان الجدوب والاحمال، ويوم يوجد الرخاء فلن نجد السارقين.

وإن وجدتهم فاقطع منهم كل معصم وساق — على أن يضع أيد سارقة إن تحتاج إلى قيام حكومة دينية خاصة — فإحدى واحدة في القانون تقوم مقامها ، وتبطل الضرورة الداعية لقيامها .

وأما حد الزنا فإن أمر إقامته يحمل موانع تنفيذه . فقد شرط الله لإقامته أن تثبت الخطيئة بإقرار مقترفا ، أو بالبينّة ، واشترط أن تكون البينة أربعة شهود ، وأن يروا العملية الجنسية نفسها رؤية سافرة . . أو على حد تعبير الرسول ذاته يرون المرود في المسكحة ، والرشاء في البئر ، ويكاد يكون من المستحيل حدوث ذلك لاعتبارات كثيرة نذكرها بدهاء . ولو أن شهوداً ثلاثاً رأوا الخطيئة رؤية كاملة مستوعبة ، فإن الله لا يقيم لشهادتهم هذه وزناً بل ويأمر بحل كل واحد منهم ثمانين جلدة ، ويعتبرهم قاذبين لاشهوداً .

وإذن فإن يثبت هذا الحد بالبينة . كما أنه أيضاً أن يثبت بالاقرار . فإن أحداً إن يذهب من تلقاء ذاته لإقدام نفسه على العار والفضيحة والمهينة الشنيعة رجماً بالحجارة . أو جلداً بالسياط .

ومن أجل هذه العراقيل التي وضعها الدين نفسه في طريق هذا الحد رحمة بالناموس وبرأ ، لا نجد طول تاريخ الرسول وخلفائه وقائع معدودة . أقيم فيها هذا الحد . وكان كل أبطالها معتريين . . دفعتهم إلى الاعتراف نزعاً مثالية ، حببت إليهم تطهير النفس وتحميلها مسؤولية وزرها في هذه الحياة الدنيا . وهي نوعة نادرة بل منقرضة ولقد رأينا كيف أن أحد هؤلاء المعترفين المثاليين واسمه ، ماعز ، حاول عندما وجد مس الحجارة وعذابها أن يفر ، وصرخ : « يا قوم ردوني إلى رسول الله . فإن قومي غروني عن نفسي . يقول جابر : فلم ننزع منه حتى قتلناه . فلما رجعنا إلى رسول الله وأخبرناه قال :

« فها لا تركتموه ، وجئتموني به ١٤ »

وحد الخمر مثل حد الزنا تماماً ، في صعوبة تنفيذها أو استحالتها فهو لا يقام إلا بالاقرار أو البيعة ، وبينته شاهدان ، ولا تنحصر شهادتهما في رؤية الشارب وهو يشرب فقط ، بل لابد - في رأي بعض الفقهاء - أن يشهدا بأنه شرب وهو عالم مختار ، عالم بأن هذا الشراب خمر مسكر ، ومختار غير مكره على شربه ، وهذا العلم مكنون في ضمير الشارب ، وإن يستطيع الشاهدان بلوغه أو الاطاعة به ، ولا سيما إذا زعم الشارب أنه شرب غير عالم . ثم ماهو حد الخمر ؟

يروى مسلم في صحيحه : أن الرسول - جلد شارباً بجزءين أربعين ، ويقول بعض الصحابة : كنا نؤتي بالشارب في عهد رسول الله ، فنقوم إليه فنضربه بأيدينا . وأطراف ثيابنا ، مما جعل بعض الفقهاء ، ومنهم صاحب الروضة الندية ، يرون أن عقوبة الخمر من باب التعزير ، لا الحدود ، وللحاكم أن يعين مقدارها .

وهذا الحديث الذي سقناه عن الحدود واضح الدلالة على أننا لا نجحدّها ، وإنما نستعيد إقامتها لنصر أو لاستحالة إثبات موجباتها ومن البداهة المدركة أن حد الزنا لا يكون معناه أن نخلي بين الناس والآثام بغير حوائجها . فستكون ثمة عقوبات أخرى زاجرة في انتظار كل مفسد .

يفسر لنا ذلك حكم عمر في قضية غلبان حاطب التي مرت بنا في الفصل الثاني من الكتاب . لأنه حين أبي إقامة حد السرقة عليهم إذ تبين ما دفعهم إليها من جوع وحرمان ، استعاض عن الحد بتوقيع عقوبة أخرى ، لا عليهم ، بل على سيدم الذي كان نقته وكرأته سبباً في إقدام الأغيلة على الجريمة .

ويجب أن تذكر مرة أخرى أن الرسول هو القائل : « ادرءوا الحدود بالشبهات » أى امنعوا إقامتها لآية شبيهة عارضة . ولقد جاءه سارق معترف فقال له عليه السلام : « ما إغالك سرقت ؟ » . وجاءه زان معترف ، فقال له : « ما إغالك زנית ؟ » .

وقال الإمام أحمد — وهو المشهور بتشدده فى الأحكام — « لا بأس بتلقين السارق ليرجع عن إقراره » . وذكر ابن قدامة فى الجزء العاشر من « المغنى » ، بالصفحة (٢٩٤) : « أتى رجل سارق إلى عمر فقال له : أسرقت ؟ قل : لا — فقال : لا ، فتركه عمر ولم يقم عليه حداً . وروى معنى ذلك عن أبى بكر الصديق وأبى هريرة وابن مسعود وأبى الدرداء ، وبه قال إسحق وأبو ثور . »

وكذلك قال ابن قدامة : « يستحب للإمام أن يلتمس شبهة ايدرأ بها الحد » . وبهذه المناقشة العابرة لدعوى « إقامة الحدود » تنفى الضرورة الداعية لقيام حكومة دينية من أجلها خاصة .

ولا يهربنا أبداً منظر تلك الأيدي المعلقة أمام قصور بعض الحكومات الدينية . والتي قطعت لأنها امتدت إلى ثمن رغيغ خبز تسكت به صباح أمعاء حاجها الجوع والسغب . بينما الأحكام الذين يزعمون أنهم يحكمون بما أنزل الله يخوضون فى الذهب واللذات خوفاً . وهم أحق الناس بأن تجرى عليهم هذه الحدود .

غرائز الحكومة الدينية . ١

أما رقة عرفنا شيئاً عن طبيعة الدين وخصائصه التى تميزه ، وتكون شخصيته ، فمن الخير أن تعرف شيئاً عن طبائع الحكومة الدينية تلك الطبائع التى تأصلت فيها وتركزت مما يجعلنا نستسمح علم النفس فى تسميتها بالغرائز . وهى بعيدة عن الدين كل البعد . فالحقيقة

أن الحكومة الدينية ، وإن ظفرت بهذه التسمية التي توهم أن لها بالدين صلة ، لا تستلهم مبادئها وسلوكها من كتاب الله ولا من سنة رسوله ، بل من نفسية الحاكمين وأطاعهم ومنافعهم الذاتية . ومن تلك الغرائز التي تصدر عنها في كل اتجاهاتها وهي :
أولا ، الغموض المطلق : فهي تعتمد في قيامها على سلطة غامضة

لا يعرف مآتها ، ولا يعلم مداها ، وصلة الناس بها يجب أن تقوم على أساس من الطاعة العمياء ، والتسليم الكلي والتفويض المطلق . إنها لا تفسر وجودها بأكثر من أنها ظل الله في الأرض . ولا تعطى عن مناجها سوى فكرة غامضة كي لا تدع مجالاً لمناقشتها ، زاعمة أنها فكرة إلهية . كأنما الأفكار الإلهية أحاج وأماز . ودمتورها الذي تخضع له وتقوم به ما هو ؟ إنها حين تسأل هذا السؤال تفر وتهرب إلى الغموض الذي لا تستطيع أن تعيش إلا فيه وتقول : هو الدين . . هو القرآن .

لكن القرآن كما قال علي : « حمال أوجه » ، والسنة كذلك أيضاً ولقد كان أصحاب علي وهم يحرضون على دم معاوية وقتاله يقدمون بين أيديهم طلبعة هائلة من الآيات والأحاديث ، هي نفس الآيات والأحاديث التي كان يحرض بها أصحاب معاوية على دم علي وقتاله . وكذلك كان الحال في الحرب الطويلة الأمد التي دارت بين العباسيين والأمويين .
وبعض آيات القرآن التي استغلت استعلا لا مفرضاً ، قتل عثمان وبها تجمع الخوارج حول علي . ثم بها ذانها قتل الخوارج علياً .
ولطالما وقف يزيد الطاغية - الذي لم يكن يطيق أن يرى كأس نخرة فارغة - يخطب الناس ويحرضهم على قتل الحسين مسلحاً بآية وحديث :
أما الآية فهي : « ومن يبتغ غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى

ونصله جهنم وساءت مصيراً ، زاعماً أن الحسين قد شق عصا الطاعة ، وتولى غير سبيل الجماعة .

وأما الحديث فهو : من أراد أن يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع ، فاضربوا عنقه بالسيف كائناً من كان ، زاعماً مرة أخرى أن الحسين يعمل على تمزيق وحدة المسلمين .

ولقد صدقته الجماهير الساذجة واستجابت له ، ولا سيّاحين ألقى بعبارة « كائناً من كان » . . .

ولسكن هذا الحاكم الديني لم يلبث أن جحد القرآن والسنة اللذين كانا سلاحه في انتصاره . إذ قال وهو يعبث برأس الحسين الذبيح : لعبت هاشم بالملك فلا خبر جاء ولا وحى نزل

ومن المفارقات ، أن هذا الغموض الذي تعمش فيه الحكومة الدينية هو سر ضعفها ، وسر قوتها .

فرعما أنها ظل الله في الأرض ، وهو الأمر الذي تستمد منه قوتها ، لا يلبث أن يتكشف زيفه وهتانه حين يكوى الناس ببغيها ، ويلفحهم بحيرها ، فتفقد نفقتهم ، ويتضائل احترامها في نفوسهم .

ثانياً : والحكومة الدينية لا تنق بالذكاء الانساني ولا تأنس له ولا تمنحه فرصة التعبير عن ذاته ، لأنها تخافه وتخشاه ، وتعلم أنه

القوة الوحيدة القادرة على إحراجها ، وهي تنفع الدهماء والموام بمشروعية هدم الذكاء ، ومكائنه بحجة داحضة . وهي أن الأواين لم يتركوا للآخرين شيئاً ، وأن أمورنا لا تصلح بالابتكار ، بل بالتبعية والتقليد .

لذلك فهي تفضل أن تستعين بالذين ليست لهم موهبة ، سوى التجرّد من كل موهبة . والذين يتمتعون بمناعة ضد الفهم الواسع والادراك الفطن ، والحصافة والوعي .

ثالثاً : وهي لكي تفنع الناس بضرورة قيامها وبقائها ، تهيب
بجانب الضعف الانساني فيهم . فتلقى في روعهم أن رواد الخير والفكر
والحرية والاصلاح ، ليسوا سوى أعداء لله ورسوله ، يحاولون
نقي الدين من المجتمع ، يهدم السلطة التي تمثله وتصونه .

وإذا كان الناس بظاء إذا مادعوا إلى حب ، وسرا إذا مادعوا
إلى بعض . . فإنهم سرعان ما يستخطون على هؤلاء الرواد المصلحين
ويدخلون معهم في عراك طويل تستفيد السلطة الدينية منه في صرف
الجهال عن مساوئها ومظالمها ، وفي إطالة عمرها ، وتمكين ساطرتها .

رابعاً : والغرور المقدس من شر غرائز الحكومة الدينية .
وهي لهذا لا تقبل النصيحة ولا التوجيه بل ولا لفت النظر . . فضلاً
عن المعارضة والنقد . وإن حرية النقد ، وحرية المعارضة ، وحرية
الفكر . كل هذه المقدسات عملة زائفة في نظرها ، لا تسمح بتداولها
بين الناس أبداً . وإن الحديث الذي قتل به الحسين لا يزال في انتظارك
إذا حاولت أن تنقد الحاكم الديني أو تخطئه .

هناك تساق إلى الموت ، وأنت يتلى عليك . . من أراد أن
يفرق أمر هذه الأمة وهي جميع ، فاضربوا عنقه بالسيف كأننا من كان ،
أليست المعارضة تقريباً بين الأمة وتمزيقاً لوحدة الجماعة ؟ إن
الحكومات الدينية لا تفهمها إلا هكذا ، والويل لنا إذا لم نشاركها
فهمها الظالم السقيم .

خامساً : والوحدانية المطلقة - أعني غرائزها ، وهي تحفزها
إلى مكافأة الرأي مهما كان حكماً ، والأحزاب مهما تكن غلصة نافعة .
وإننا لنذكر تلك الخطيئة العصاة . التي ألقاها الحجاج ويداه
تقطران من دم سعيد بن جبير العظيم : . أما بعد ، فإن الإمام ظل

الله في الأرض ، وأنا امتداد هذا الظل إليكم ، فمن نازعنا هذا الأمر ،
فقد جعل نفسه ندأ وشريكاً . ومن يشرك بالله فكأنما خر من
السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق .

إن هذه الفلسفة ليست فلسفة الحجاج وحده ، بل هي روح كل
حكومة دينية قامت ، أو ستقوم . إذا استثنينا بعض حكومات نادرة*
مثل حكومتى أبى بكر وعمر . فلا تجد حكومة دينية قط تؤمن بغير
نفسها ، أو تسمح بقيام أحزاب تعارضها ، أو حتى تهاونها . وإذا
كانت تتخذ من تأويل الحجاج السابق ما يدعم وحدانيته ، فهي
تلمس لمخافة حرية المعارضة حجة أخرى تنطوى على كثير من
الدهاء . إذ تفهم الجماهير الغافلة أنه ليس معنى الحرية أن يتحرر الناس
من الإكراه والخوف والظلم ، بل أن يتحرروا من الخطيئة والإثم .
وإن أكبر الكبائر والآثام هي نقد الحاكم ومعارضة أخطائه
ومناقشة تصرفاته . ولكي تؤكد هذا الفهم نزع للناس أن رسول الله
قال : « اسمع لحاكمك وأطعه وإن ضرب ظهرك وأخذ مالك » .
هذه هي الحرية - أن تتحرر من الخطيئة . والخطيئة هي نقد
الحكومة وسؤالها لم .

سادساً : ومن طبائعها الأصلية . الجود العريق الذى يجعل
استجابتها للحياة استجابة سلبية وعكسية ، فهي لا تسير معها ، بل ضدها ،
ولا تستقبل الأمام بل تستديره ، وبزاعها دائماً الركود والورائية .
ولو أن حكومة دينية تحررت من الجود كطبع أصيل فيها . فإنها
تتكلفه . وتقف بالمرصاد لكل تطور جديد ، كما تظل حائرة ثقة
الجماهير التى ارتبطت بصورة الدين في ذهنها بكل ما هو جامد وقديم .
سابعاً : والقسوة المتوحشة تحتل من طبيعة الحكومة الدينية

مساحة واسعة . وهي سيده غرائرها وأكثرها عتواً ونفوذاً .
وإنها تحرر عنقك ، ونهرق دمك ، وهي تصيح من فرط نشوتها :
واها لريخ الجنة ! كأنما رأسك مزلاج يوصد باب الفردوس ، فإذا
انزاح هذا المزلاج عن مكانه فتح باب الفردوس وهبت نسائمه !
وهي تستمد تبرير قسوتها وبطشها من نفس الغموض الذي تستمد
منه سلطتها . فحسب أن تعلق في عنقك اتهاماً مهما بالزندقة والاحقاد .
أما كيف ، ولماذا ، وما البرهان ؟ فيجب أن تذكر ، إن كنت قد نسيت ،
أن الحكام الدينيين لا يناقشون ، ولا يسألون عما يفعلون .

هذه بعض الغرائز التي تعمل في نفسية الحاكم باسم الدين
وتعين لهم اتجاهاتهم . وهي كما رأينا ، بعيدة كل البعد عن حقائق
الدين وقضايله - فكلما لا يستويان وجهة ولا وسيلة . ولا نكاد
نجد حكومة استغلت لنفسها فداية الدين وعصمته إلا وهي تتطوى
على كل هذه الخصائص والغرائز .

ولدى التاريخ من الشواهد القديمة والحديثة ، المتقوضة والقائمة ،
ما نستبين في أخلاطه صدق كل هذا الذي ذكرناه ، ونذكر فداحة
الحوادث الذي تعانيه الأمم حين يوقعها سوء الطالع في قبضة حكومة
دينية من ذلك الطراز ، ويؤكد أن الحكومات التي حكمت الناس
باسم الدين - سواء في المسيحية أو في الاسلام - كانت أمواً مثل
للحكم الرديء المطلق . ما عدا قلة نادرة فاضلة ، لا نكاد الهين نقع
عليها في زحام الكثرة الباغية .

ذلك الستار الحديدي . ١ .

وحين تزعم أن الحكومة الدينية ستار حديدي يخفي وراءه جحيمياً
وفوضى ، لا يكون من العسير إقامة الدليل على صحة هذا الاتهام المتواضع .

وحسبنا أن نرفع الستار عن التاريخ لنبصر الطريق الذي قطعته
الإنسانية وهي ماضية إلى غايتها ، كله دم وحماجم وأشلاء . تروى
في فزع قصة الحرية واجهة والعدل مع الحكام الدينيين . وتحكى في
أنين مقطع الأنفاس نبأ الضحايا الذين كان في بعضهم من النبوغ
والعقوبة ما يهب الحياة فنونا وإبداعا لو أنهم عاشوا لها ، ولكن
رأيا حرا غافتوا به ، أو قالوه جهرة ، قذف بهم إلى هذا الطريق
أشلاء ومزقا ، وفي أغلب تجاربها الغاية تجدها لا تبدأ إلا حيث
تنتهى حرية الفرد والمجتمع ، وذلك أثر حضنى ونتيجة لازمة لغرائزها
القاسية العتيدة التي تحدثنا عنها من قبل حديثا موجزا .

ففي الحكومات الدينية المسيحية ابتكرت وسائل التعذيب التي
لا تخجل للشيطان نفسه بيال ، فكان « الخازوق » ، و« تد التشهير » ،
وصلم الأذان ، و« حرق العلواء بالنار » وهم أحياء ، والتفتيش ،

وفي الحكومات الدينية الإسلامية حدثت أهوال مروعة ،
حتى إن حاكما دينيا واحدا — وهو الحجاج — أباد البقية الكريمة
الصالحة من صحابة رسول الله ومقتنى آثاره ومعلمه ، حتى قال فيه
عمر بن عبد العزيز : « لو جاءت كل أمة بخطاياها ، وجئنا نحن
بالحجاج وحده ، لرجعناهم » .

وإن نبش التاريخ القديم ، وإخراج جثث هذه الحكومات من
تحت ترابه — قد لا ينهض بالبرهنة الحاسمة على قضيتنا هذه ، كما
ينهض بها الاستشهاد ببعض الحكومات الدينية المعاصرة ، وذلك
لنعلم صدق نظرنا إلى أخلاقها التي أسميناها غرائز ، حين ترى
الحكومة الدينية في عام ١٩٥١ء — صورة طبق الأصل لأصولها
القديمة منذ القرون الأولى . . لم تختلف عنها في تفكيرها ، ولا في

قسوتها ووسائل تعذيبها .. مما يؤكد أن غرائزها تلك ، غير قابلة للتعلية ، وأنها لا تتطور ولا تترقى.

وقد يخطر ببالك بعد قراءة الشواهد الآتية عن بعض الحكومات الدينية المعاصرة ، أن تسألنا :

لماذا ضربت هذا الطراز من الحكومات مثلاً ؟

والجواب : لأن الحكم الديني للأسف مهما يبدأ سليماً صالحاً ، ينته لا محالة إلى هذه الدمامة وهذا التدهور ... ولو فرضنا أن حكومة دينية قامت في مصر اليوم — فإنها ستبدأ بداية حسنة يفرضها عليها ما في المجتمع الآن من وعي وحضارة .. بيد أنها بعد حين قريب أو بعيد ، ستتجزأ أول فرصة تلقاها في الطريق لتنتكس بنفسها وبالمجتمع إلى مجاها الذي لا تستطيع الحياة إلا فيه . إلى غرائزها ومصادر سلوكها . وعندئذ تصبح جحيماً لا يطاق ، وتصبح — كما وصفها الرسول العظيم — ملكاً عضوضاً ،

وإما لتخالجنار هبة مفرقة حين نذير أعيننا فيمن يجاورنا من بعض الأمم ، فنراها ملفوفة في ضباب الحكم الديني — كما يسمى نفسه — نحن وتعمل متحسسة طريق الخلاص من حكوماتها الدينية التي كأن التاريخ قد استبقاها لتظل معللاً زاجراً ، وآية مذكورة للذين ينسون تجاربها المريعة ، فيحاولون بعثها من مرقدها .

ولاسنا وحدنا الذين نستشعر هذه الرهبة . بل إن بعض زعماء الشرق الإسلامي قد وجدوها في أنفسهم وصاحوا بها بين ظهراني مثل هذه الحكومات . ففي المؤتمر الاقتصادي الإسلامي الدولي الذي انعقد في كراتشي يوم ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٤٩ — وقف السيد غلام محمد وزير مالية الباكستان متحدثاً عن بعض بلاد العرب

التي يحكمها رجال الدين حكماً فاشياً جشعاً فقال :

« هنا مجموعة بشرية هائلة تئن تحت وطأة الفقر ، مع أن لها مصادر طبيعية وافرة . وإن الأقطار الإسلامية لترزح في الداخل تحت تأثير الطبقات الحاكمة ، وتحت تأثير مجموعة من رجال الدين الجامدين . »
« إن الشعوب الإسلامية لترتجف من الفرع حين تمر بخاطر ها ذكرى الحكومات الدينية التي حولت الاسلام إلى حكم أو تقراطى قام على الدكتاتورية والاكراه . ولقد كان رجال الدين الذين ارتبطت مصالحهم بهذا اللون الفاسد من الحكم يناصرونه ويدعمونه ، ومنذ أيام قريية وقف المنفور له السيد لياقت على خان رئيس وزراء الباكستان وصاح تحت قبة السكونجرحس الأمريكى :

« لما أن نسمح للسلطة الدينية أن تعود . . . وليس لها بيتنا . كان . »
وفي كتاب « النظام الدستوري للدولة المصرية » ، وهو يدرس بتخصص القضاء بالأزهر ، « إن دعاة الديكتاتورية يحاولون التشبه بأصحاب الديانات . . يحاولون الظفر بسلطان شعبي لا يأتمر بحكم العقل والمنطق ، بل يرتكز على ضرب من ضروب الأيمان الوجداني . »
« ولا نظن أن المؤلف يعني بأصحاب الديانات - الأنبياء والمرسلين - فهم مبرءون من ذلك طبعاً ، وإنما يقصد رجال الدين والحاكين باسمه الذين يستغلونه استغلالاً بعيداً ، ويعيشون به كأنهم أصحابه ومنشئوه . »
« وإذا كنا الآن ستقدم لك بعض الحكومات الدينية المعاصرة فإننا لن نسميها بأسمائها ، وذلك حتى لا يظن ظان أننا نقصد التشهير والتجريح الشخصي . ولنستمع لشاهد من أهلها ، وهو كاتب عربي نشر بالقاهرة كتاباً عام ١٩٤٧ عنونه « جزيرة العرب تتم حكماها » وتحدث فيه عن بعض الحكومات الدينية بجزيرة العرب . »

قيل ذلك نحدد مرة أخرى مانعنيه بالحكومة الدينية ، ونبين
مدلول هذا التعبير . فالحكومة الدينية التي ننقدها ، والذي عقدنا
هذا الفصل للكشف عن مساوئها وأضرارها ، وللتحذير من الانتكاس
إليها . هي تلك التي تعتمد على سلطة مبهم غامضة ، ولا تقوم على
أسس دستورية واضحة تحدد تبعاتها حبال الشعب كما هو شأن
الحكومات القومية ، والتي تمنح نفسها قداسة زائفة وعصمة مدعاة .
ولا تخال الحكومات الدينية المعاصرة والمجاورة إلا من هذا
الطراز . فهي تحكم بهواها . ثم تزعم أنها تحكم بما أنزل الله .
وقد نقشت على راياتها - لا إله إلا الله ، محمد رسول الله . .
ووراء هاتين الشهادتين المظلومتين ، تبرع الحكومات المتألفة التي
تتخذ الناس موالى وعبيداً .

وسوف نقتطف من كتاب « جزيرة العرب » حكمها ،
فقرات متنوعة تكون في مجموعها صورة كاملة للملاحم لها :

« يشبه نظام الحكم الموجود هناك ، ذلك النظام الشائع في أوروبا
في القرون الوسطى . ويسرقون الجمهور نحو أغراضهم كأنساق قطعان
الماشية . يؤتى بمن يراد تعذيبه ، فيؤمر بطرحه أرضاً ، ويجلس
اثنان على رأسه ، ومثلهما على رجله ، وينهال عليه اثنان ضرباً
بالسياط حتى يفقد وعيه . فإذا لم يعترف بما يوجه إليه من اتهام أنقل
بالحديد ، ثم تعلق أظفاره بالكيتين ، ويكوى بالسفائيد الحماة
بالنار ، ثم يخرج بعد ذلك للناس صورة مشوهة متداعية . . قد
مستحوا الهول والفرع ، وحطموا الإرهاب والعداب . وهناك في
سجون « . . . يعيش نصف الشعب بهم باطلة ، وهي سجون
تفوق في فظاعتها ما يتصوره أي إنسان ، فهي قبور مظلمة خالية

من النوافذ . وفي غاية القذارة . ويعيش المسجونون فيها بين جيوش
من الحشرات المؤذية . وليس للساجين غذاء ولا كساء ، بل
يعيشون مما يتصدق به الشعب الجائع عليهم . والقيود والأغلال
من الأمور الضرورية . وتمضى عليهم السنين وهم يرسفون فيها ،
فتتورم مفاصلهم وتتقيح — وهناك عدا القيود ، توجد الحشبة أو
الخطبة التي لا يتخلو منها سجن في جزيرة العرب ، ولا يتخلو هي من
ضحاياها ، وهي تشبه صاري السفن الشراعية ، ممدودة في أرض
السجن . وفي أعلاها نقوب تدخل فيها رجلا السجين وتغفل عليهما
فلا يستطيع الجلوس أو الوقوف بل يظل مستلقياً على قفاه كالمعلق
لا يلامس الأرض إلا ظهره .

هذه بعض فقرات من الكتاب تحدثنا حديث من رأى وسمع
من القسوة والإرهاب اللذين تفرضهما حكومات دينية على البشرية
المعدية هناك . وقد اخترنا أهدأ الفقرات وأرطبها حتى لا تحترق
أعصاب القارىء وتزول مكيفته . وهو يحدثنا عن المستوى الفكري
للكل الحكومات وشعوبها وعن السياسة المرسومة هناك لحرمان
الناس من علم وثقافة يقول في صفحة ٢٢ : « وذات يوم كنت
جالساً عند رئيس شعبة سياسية — في إحدى هذه الحكومات —
فطلب الرئيس مدير المدرسة فلما حضر دار بينهما الحوار الآتي :

مدير المدرسة : ماذا تأمرون يا مولاي الرئيس .

رئيس الشعبة السياسية : أين جدول الدروس .

ثم يتناوله ويطلعه يامعان ويقول :

— ما هذا ؟ جغرافيا يا مولاي .

— جغرافيا . أما تعلمون أنها حرام ؟

— نحن يا مولاي الرئيس لا نعلم الجغرافيا المحرمة . بل نعلم فقط القدم الحلال منها ، وهو الذي يعين على معرفة القبلة وأوقات الصلاة .

— لماذا لا تعلمون علم التوحيد عوضاً عن هذا ؟

— نحن نعلم القرآن وفيه توحيد وأخلاق وتربية .

— لكن كتاب كشف الشبهات ، كتاب جميل في التوحيد .

ثم التفت إلى مدير المدرسة غاضباً ، وتناول القلم الأحمر ، وشطب كلمة « جغرافيا » من الجدول ووضع مكانها : توحيد ، كتاب كشف الشبهات ،

ترى هل سيصدق القارىء هذه القصة . إنها حقاً تكاد تكون أسطورة ، ولكم كنا نود أن تكون خيالاً حتى لا نجد جماعات بشرية تضرب عليها هذه الجهالة الصارمة . . . ولسكنها لسوء حفظنا حقيقة مؤكدة ، تؤكد لها مهزلة أخرى نعلمها علم اليقين . فقد ألف رجل أسمى لا يحمل أبة درجة عليية كتاباً حكم فيه بكفر من يقول بحركة الأرض ، وبالخاوية ، وزعم أن الأمراض ، عفاريت ، تحل الأجسام ، وذكر أنه هو نفسه قد أجلى بعض العفاريت ، بالصرب عن جسام كانت مريضة فشفيت . . . وأهاب بالمسلمين ألا يعلموا أولادهم الجغرافيا لأنها زندقة وضلال . ثم رفع هذا الهذيان إلى الحكومة الدينية التي حرمت تدريس الجغرافيا في مدارسها . فتقبلته بقبول حسن ، وأمرت أن يمنع هذا المؤلف ، هذه الترجمة الخروعة ، مرتباً شهرياً قدره أربعون جنيهاً مصرياً — عدا هبات أخرى — تكريماً للمعلم والعبقريه والنبوغ . . .

أربعون جنيهاً أو تزيد . تقطع من قوت الشعب ثم تمنح

مكافأة دائمة لأحد الذين يعملون على حرمانه من الثور والحياة ..
وتقديراً لكتاب ينجل نيلز إحدى المدارس الأولية عندما أن
ينسب إليه . . . ١

ولنعد لكتاب « جزيرة العرب تنهم حكماها » ليجدنا عن
اقتصاديات هذه الحكومات الدينية فيقول :

« . . . وهناك تحتبس مرتبات الموظفين والجند وأرزاقهم عدة
شهور متوالية . . . ولبس المرافق العامة أى نصيب يذكر . . . ويستملك
الحكام من الكماليات والضروريات ما يعادل نصف الدخل العام .
ويذهب ربع الدخل هبات وأعطيات متنوعة المقاصد . ويورع
الربع الباقي من الدخل العام على الموظفين . وعلى مرافق البلاد العامة .
ونحن من جانبنا نذكر نبأ نشرته الصحف في حينه . يدمغ تلك
الحكومات بالفوضى الاقتصادية المزرية . فقد سافر أحد كبار
أمرائها يوماً إلى أمريكا . وهناك قدم إلى الرئيس « ترومان » شيئاً
من الذهب الخالص ، في عهد من الذهب الخالص أيضاً وقدرت عنهما
بعشرين ألفاً من الجنيهات . . . وطبعاً أراد ترومان أن يرد النجدة
بأحسن منها أو بمثلها . . . فإذا كانت هديته ؟ إنها صورة له على
« كارت بوستال » لا تزيد تكاليفها عن عشرين قرشاً . ١

ويجدنا كتاب « جزيرة العرب تنهم حكماها » كما يجدنا كل
الذين زاروا تلك البلاد ، أنه ليس بها مستشفيات ولا أندية ثقافية
ولا مدارس تذكر . . . وليس مرد ذلك الإبحال العمراني إلى عجز
مالى . . . فقد رأينا كيف يمتحنون الهدايا والمرتبات ، وكيف يهيش
كبراؤهم في ترف تتضاءل أمامه خرافات ألف ليلة وليلة ، ولكن
الأسباب ترجع إلى عقيدة الحكومة الدينية ، حيث ترى في مثل

هذه المنشآت هرطقة وضلالا .

وعلى الذين يرون في هذا التفسير مبالغة منا ، أن يستمعوا
للقصة الآتية : حدث أن نفشى وباء الطاعون ، في أمة من تلك
الأمم ، حيث راح يحصد الناس حصداً مروعا ، وعلت حكومة
أجنبية بالكارثة التي أحدثها الوباء الخبيث فعرضت على الحكومة
الدينية أن توفد إلى بلادها بعثة طبية لإنقاذها . فما كان جوابها
إلا أن قالت : إن الطاعون رحمة من الله ورضوان ، ونحن لا تكافح
رحمته ورضوانه .

وفي هذا البلد السعيد ، دعيت طبيبة فرنسية لمعالجة إحدى
زوجات بعض حكامه ، ولما غادرته إثر انتهاء مهمتها صرحت
لوكالات الأنباء بأن نسبة الوفيات بين أطفال هذا البلد ٩٥ ٪
وأن هذا الشعب مهدد بالانقراض والاختفاء في مدى مائة عام إن
لم تتداركه حكومته المتوكله على الله والناصرة لدين الله .

وحسبنا هذا القدر بعد أن اكتملت ملامح الصورة المفرعة
التي يخوف الله بها عباده ، صورة الحكومة الدينية ، موديل ١٩٥٠
الحكومة التي تحرم تدريس الجغرافيا ، والتي ترى في الطاعون رحمة
للتعالم ولا تكافح ، والتي تحبس نصف الشعب في سجون تأنفها
الحشرات ، والتي تجعل بالسياسة عمال مطبعتها الحكومية لأنهم
طالبوا مرة بزيادة أجورهم ، والتي جعلت من بلادها «سلخانات»
بشرية ، تفوح منها زهمة الاضطهاد وريح العذاب ، والتي لا تعرف
بلادها سلاماً ولا أمناً سوى سلام الموت وأمن القبور .

ونكاد نسمع من يقول : إن بعض الحكومات القومسية
المدنية قد تتعرف من وسائل التعذيب واليخى مثل هذا الذي

قصصه علينا . وهذا حق لا يد أن الحكومة القومية التي تتبع سبيل
 البنى لا يمكن أن تبقى طويلا مهما حاولت تبريرها وقوتها لأن
 من ورائها رأيا عاما حرا قادرا على أن يزلها ولو بعد حين ومن
 ورائها كذلك قوى هائلة تشريعية ، وقضائية تستطيع أن تخرجها .
 أما الحكومة الدينية مهما تكن مهذبة الأوضاع ، فالأمر كله
 لها ، لا معقب لحكمها ، ولا معارض لمشيئتها .
 ومرة أخرى . . . لا نحتاجونا بعمر . . . فإنكم إن تجددوا من
 طرازه سواء .

إن المعارضة في الحكومات المدنية واجب وطني وأمانة قومية
 ووظيفة سياسية يقدمها الدستور ، ويقوم بخدمتها القانون .
 ولزعيمها في البرلمان من الحقوق والاعتبار مثل مال رئيس الحكومة
 ورئيس البرلمان . بينما هي في الحكومة الدينية جريمة وكفر —
 ومهما نظاهرت بمنحها شيئا من التسامح الشكلى ، فإنها تضمر إزاءها
 تعصبا فعليا تستمد من غرائزها ومبادئها .

ثم إن الحكومة القومية لا تجمع مساوى الحكم الأخرى التي
 تتميز بها الحكومات الدينية من جهل ورجعية وجود — لأنها لا تتعد
 دائما وتسير مع الحياة ومع التطور دون أن تشد بحبال من مسد
 إلى تقاليد قديمة جامدة . لظالما أسائل نفسي عن مصير مصر لو أنها
 قضت هذه الحقبة من حياتها في ظل حكومة دينية . . ؟

أى انحطاط كان سيجعل منها مسخا شاماً ، وأية لعنة كانت
 مستحق بها وتجعل منها نسخة أخرى من تلك الطبقات الرديئة التي
 رأينا بعضاً منها . لقد كان من المستحيل أن تزدهر حياتنا الفكرية
 والوجدانية والعمرانية هذا الازدهار يعكس علينا حيويته وجماله .

وكان من المستحيل أن يفيغ من بيننا في الأدب والعلم والفن
والصحافة — أولئك الذين نبغوا في ظلال الحكم القوي .
وكان من المستحيل أن نظفرهم بؤلام الرواد الأحرار من الكتاب
والمصلحين الذين لا نسمع اسم أحدهم أو نقرأه حتى تنساب فينا
أحاسيس الحرية والفضيلة والحب، ومشاعر المعرفة والسعد والجمال .
لم تكن المرأة ستبلغ هذا الذي بلغته من الثقافة . واستواء
الشخصية . والكمال : لأن المرأة في منهج الحكومة الدينية مجردة
ومتاع . ولم تكن الحرية الشخصية ستظفر بما ظفرت به من حقوق
— لأن الحكومات الدينية تخافها وتضرب على شعوبها ستاراً
حديدياً من الجاسوسية والإرغام . ولم تكن قافلة التقدم الاقتصادي
والاجتماعي والسياسي متسير ، لأن الحكومة الدينية تمثل التقاليد
التي لا تتغير ولا تسير . وتعلم أن كل تقدم يصاحبه تدهور في قوتها
وقيمتها . وشعارها الخالد : ليس في الامكان أبدع مما كان . !
رجل الدولة .. ورجل الدين :

ما هي وظيفة الدولة ؟ وما هي وظيفة الدين ؟

أما وظيفة الدين فقد ذكرنا من قبل أنها الهداية والإشاد إلى
أنبل ما في الحياة من معنويات وفضائل ، وتبليغ كلمات الله التي
تهدي إلى الحق والفضيلة والصلاح . والعمل على تنقية النفس الانسانية
وتجديدها باستمرار حتى نظل مرآة صافية تنعكس عليها أخلاق الله
بالأمر الذي دعانا إليه الرسول عليه الصلاة والسلام بقوله :

« تخلقوا بأخلاق الله . إن ربي على صراط مستقيم ،

بقي أن نعرف وظيفة الدولة — وهي رعاية المصالح المدنية
للمواطنين بتنظيم معيشتهم ، وإقرار النظام بينهم ، وتوفير أسباب

الحياة لهم من علم وصحة وحرية ، والمحافظة على سلامة الوطن من
أى عدوان خارجي ، وفق أحكام قوانين الدولة .

ومن المقابلة بين الموظفين — وظيفتي الدولة والدين — نستطيع
أن نرى الفارق الكبير بين اختصاص رجل الدولة ، واختصاص
رجل الدين ، ونرى أيضا الفارق بين وسائل كل منهما

فاختصاص رجل الدولة : حماية القانون وتنفيذه لصالح الأمة .
ووسيلته لذلك الإكراه والعقاب بالنسبة لكل مواطن لا يحترم
قانون دولته ويطيعه . واختصاص رجل الدين : العناية بالنفس
الإنسانية كيما تظل فاضلة وقيمة الصلة ببارئها . ووسيلة الوعظ
والإرشاد والافتناع .

ولذن فهل يستطيع رجل الدين أن يصير رجل دولة ؟ أى
يصبح من حقه استعمال الإكراه وإنزال العقاب ؟

لقد أجاب الله على هذا بقوله الكريم : « لا إكراه في الدين ،
وأما قوله : « وقالوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله ،
فهو حكم خاص بحالة الاعنداء الخارجى المسلح . بدليل قوله تعالى :
« فإن قاتلوكم فاقتلوهم » . وقوله : « ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين » .

وبدليل أن الرسول لم يكن يكره أى بلد يفتحه . على الإيمان
والارتباط بأوامر دينه ودعوته إذا هم دفعوا ضريبة الحماية .

فلو كانت القوة أو الإكراه وسيلة للإيمان والدين — لفرض عليهم
إذن أن يؤمنوا وهم كارهون . ومن هنا يصبح منطق رجل الدين غير

مستساغ ولا مقبول إذا هو طالب بالدولة ليخدم الدين وينشر مبادئه .
لأن وسائل الدولة من عقاب وإكراه لا يمكن أن تحمل الإنسان

على عقيدة معينة . وهى كما يقول : تمسوس ، لا تنتج إلا اعترافات

يحدوها الرأى والتفانى ، ولا تثبت المبادئ الدينية ، والفضائل المثلى ، إلا بالتفصيل والاقناع ، لذلك فإن الوحى لم يحاول أبداً أن يفرض حقائقه على الناس لعلهم أنه لا جدوى من هذا الإلزام إلا إذا اقتنع العقل بالموعظة الحسنة ، والمنطق الوئيد .

قد يقول رجل الدين : أريد أن أكون رجل دولة وحكومة ، لأخى الدين من الملحدين الذين يشككون الناس فى حقيقته ، ويضائلون من قيمته ، وينشرون فلسفات إلحادية جامدة .

ولكن هذه الحجة لا تبرر قط أن يصير الدين دولة — وهى تحمل بين طياتها المحاولة نفسها التى قلنا إن الدين يبرأ منها وهى فرض الإيمان بالإكراه والبطش . إذ ليس من اليسير أن تطالب إلى إنسان الإيمان بشكراً أو عقيدة وقد سلبته حق بحثها ومناقشتها واختيارها . وإذن فقبل أن تعالبه بالإيمان لابد أن تمنحه من الحرية ما يمكنه من إيمان مبرور ورشيد .

إنه لا إيمان بغير اختيار ، والعقاب لا يغير العقائد ، ولا يمكن أن يفرض الهداية بقانون ، لأن الأمر سيكون ، كما قال جون لوك ، إما أن يصاحب القانون عقاب المخالفين أو لا يصاحبه ، فإن كان بغير عقاب فإنه يفقد نفوذه ، وإن يكن الثانى . فمعنى هذا أن الإيمان الذى يراد فرضه عاجز عن الاقتناع .

وما دام الإلحاد فكرة باطلة مزعومة الوجدان والبرهان . فهل تعجزنا عن دحضها بالمنطق والقول ، حتى نذهب ونلتمس لأصحابها التعذيب والتنكيل ؟

هذا ، وإن الحكومة القومية تحمى عقائد الدين وتصورها ، ولكن بوسائلها المعقولة ، التى يحبذها الدين وينشرح لها قلبه ، والتى

تعتمد على الإقناع ، وتحترم حرية الفكر وحرية الضمير . لطالما كان الإلحاد تهمة تسخر الحكومات الدينية على كل عبقرى تحشى عقله ، وتخاف ذكاه .. ومانبأ ابن رشد ، مفخرة الإسلام المفردة بغائب عنا : فقد نفاه الخليفة الأندلسي ، وطارده رجال الدين مطاردة عنيفة بعد أن خلعه وأعليه كل ألقاب الزندقة ، وأوحى بالإلحاد إذا فإذا أراد رجل الدين الصادق أن يخدم وطنه ودينه ، فليبق مكانه مبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً .
والآن :

لعلنا نكون قد وفقنا في عرض وجهة نظرنا هذه .. وأتخنا الآخرين فرصة التفكير في موضوعها من جديد .
وإننا ندعو كل مواطن ، قلبه بجميع وروحه حر ، أن يناقش هذا البحث بفكر غير متحيز ولا متعصب ، وأن يبحث في ضوء العقل والتجربة أمر الحكومات الدينية ، فقد يهديه بحثه إلى كشف مساوئ أخرى طالم نقطن إليها . وقد يؤمن معنا أن إنمها أكبر من نعمها ، وأنها ، وقد جعلت شعارها : أعتقد ما أعتقد وإلا قتلتك ، تذيب شخصية الأمة ، وتشيع في المجتمع الخوف والانحطاط ، وأنها كالنبات الطفيلي ، تستل الحياة عما تستمد منه حياتها — وهو الدين . إن أجل خدمة تؤديه للدين ، هي أن نجعله قريباً من قلوب الناس ، عميقاً في نفوسهم ، ونطعم الدولة والمجتمع بروحه الحى ، ومعنوياته الفاضلة — لا أن نأثى بحكومة تستغله في تقديس ذاتها ، وتبرير أطاعها ، واستكراه الناس لجبروتها .
وأجل خدمة نقدمها للوطن — هي أن نعمل بكل وسيلة مستطاعة لتنمية القومية ونكتيلها ، والصعود بروحها ونظمها إلى

قة الرسوخ والاستقرار. وإن أمام الشباب الراغب في خدمة
بلاده مبادئ ثلاثة تسجل العاملين وتناديهم إليها :
الخدمة الدينية — لرفع مستوى النفس الإنسانية وإتمام نورها
الخدمة الاجتماعية — لرفع مستوى الضمير الاجتماعي واحترام حيويته.
الخدمة السياسية — لرفع مستوى الوعي والحكم ، وجعل السياسة
خدمة لا حرفة .

وإن نستطيع أن نجد إحدى هذه ، إلا إذا انفردنا لها وركزنا
كل حياتنا وجهودنا فيها .

أما الذين يظنون أنهم يقدرون عليها جميعا ، فإنهم يجاهدونها جميعا .
فلنختار لأنفسنا المجال الذي يتخصص فيه نشاطنا .

خدمة الدين . عن طريق الدعوة والإرشاد .

أو خدمة المجتمع . عن طريق الخدمة الاجتماعية بوسائلها المعروفة .

أو خدمة الدولة . عن طريق السياسة السافرة الرشيدة التي

تمثل متهجاً مرسوماً ، وفكرة ذات موضوع .

ومرة أخرى — أذكروا أن الدين يجب أن يظل كما أرادته ربه

نبوة لا ملكاً ، وهداية لا حكومة ، وموعظة لا سوطاً .

وإن فصله عن السياسة ، وتحليقه فوقها ، خير عامل على بقاء

نقاوته وطهره ونفعه .

وإن فصله عن الدولة ينجي من تحمل تبعات أخطائها ومظالمها ،

ويحفظه في نفوس الناس ودأميته ، وذكر أباقياء ، واستجابته وتلبية .

وقبل أن تغادر هذا الحديث ندعوكم لأن تصلوا معنا من أجل

تلك الشعوب المعبدة الضريرة . التي تعيش هناك في بلاد الجوع ،

والخوف ، والحكومات الدينية .

الزينة المعطلة

• إنا النساء شقائق الرجال . . فمن مثل
الذي عليهن بالمعروف . .
(محمد رسول الله)

منذ بضعة أعوام ، كنا نتلقى العلم على شيخ فاضل - رحمه الله - وكان يفسر سورة « المزمل » ، ولبت في تفسيرها زمناً طويلاً ، بيد أنه مكث زمناً أطول عند هذه الآيات الكريمة : « وذروهم والمسكينين أولى النعمة ومهلهم قليلاً . إن لدينا أنكالا وجحيا . وطعاماً ذا غصة وعذاباً أليماً . يوم ترجف الأرض والجبال وكانت الجبال كثيباً مهيلاً » ظل يفسرها بأسلوب وعظي فياض حتى قضى شهرين كاملين ولما يرحمها .. وفي أثناء درس من تلك الدروس وقف أحد الطلاب وقال للشيخ : — متى يغادر هذه الآيات ؟ فأجاب : عندما تغادر نفوسكم مكانها . وكانت لفظة أدبية من الشيخ لها أثرها ومغزاها ، فهو لا يريد أن يغادر هذه الآيات المرجفة حتى ترحل نفوساً عن مكانها ، وتذهب ببعض ما في القلوب من ظلمة وقساوة .. ذكرت هذه الواقعة المؤنسة عندما أردت أن أكتب عن حقوق المرأة السيامية أو الإنسانية ، كما أحب أن أسميها ، إذ نصورت شفاهاً كثيرة ترتعش بهذا السؤال : — متى تنتهون من الحديث المكرر المعاد عن المرأة وحقوقها ؟ وجوابنا عليهم :

— عندما تنتهون أنتم إلى الاقتناع بأنها إنسان ، لها مثل ما للإنسان من حقوق كما أن عليها مثل الذي عليه من تبعات ، وإلى أن تبلغوا هذه النهاية السعيدة المشرفة ، وتخافتوا من ضوضاء الجدل ، وصياح الاستنكار ، ميظل الذين يدركون ما في ممارسة المرأة لحقوقها من مغاتم كثيرة ، يتحدثون ويتحدثون .. حتى يتبين لهم الحيط الأبيض من الحيط الأسود من الفجر .

والآن...ولماذا؟

وهذا حديث نسوقه في إيجاز عن قضية المرأة المصرية ، وإنه لمن توفيق الله وأنعمه أننا لم نعد إذ نتحدث عنها نطالب بحقوقها في الثقافة والعلم ، فقد كسبت هذا الحق لنفسها ، وبدأت الطلائع تندفق كالنور المذاب حاملات معرفة المعاهد وثقافة الجامعات ليقدن بها بلادهن الظمأى إلى جهدهن وجهادهن .

نعم ، لم نعد بحاجة إلى المطالبة بتعليم الفتاة ونحن نبصر كل صباح تلك الرموس المرتفعة التي تشق شوارع القاهرة ، والمدن المصرية ، كأنها شموع مضامة ، تلقى وهي في طريقها إلى معاهد العلم نوراً كاشفاً على ذكرى أولئك النفر الخالدين . قاسم أمين ، ومحمد عبده ، وسعد زغلول ، وهدي شعراوي ، الذين شادوا فوق كثران الرجمة المنهارة ، نهضة المرأة المصرية الثامية ، بعد أن فعضوا عنها قيودها ، وجعلوا لها من الجمالة والالتقاط مغرباً .

سنتحدث إذن حديثاً مباشراً عن حقوق المرأة السياسية التي يتساءل بعض الناس عن قيمتها وفائدتها لمجتمع لم يحسن رجاله حتى اليوم ممارسة حقهم الانتخابي - كما يتساءلون عن إمكان تحقيق ذلك ، وللمجتمع دينه وتقاليده اللذان يقفان دون تمرس هذه الحقوق . وكما يتساءلون . وما أكثر تساؤلهم ، عن وظيفة المرأة التي خلقها الله لها ، وهي رعاية البيت وتربية الأولاد . من سيقوم بها بعد أن تصبح هي ناخياً وناثياً ، ووزيراً .

وهي أسئلة تدل على أن أصحابها من السذاجة بحيث لا ينبغي أن تكون معارضتهم واستنكارهم عائقين عن تحقيق هذا الهدف المغمم بالاحتمالات الحسنة النافعة .

عندما ظهرت أول دفعة من المحاميات امتدت موجة مستنكار
من المتزمتين لم تلبث أن انحسرت عندما رأوا أن اشتغال المرأة
بالمحاماة لم يجرح كبرياء التقاليد ، ولم يصب الفضيلة بسوء .. ومن
قيل ذلك تسكررت نفس التجربة عندما ظهرت الطليعة الأولى من
المعلمات ، والكاتبات ، بل والطبيبات والمرحلات .

وإن كتاب ، تطور النهضة النسائية في مصر ، للدكتورين : درية
شفيع ، وإبراهيم عبده . ليحدثنا عن المشقة والحرمان اللذين صادفهما
محمد علي ، عندما أراد أن يفتح مدرسة للوليدات . فاضطرته
التقاليد وحمايتها . أن يشتري عشرة من الجوارى السوداوات
ليتعلمن فن الولادة بإشراف كلوت بك . لأنه لم يكن مسموحا
للغنيات يومذاك أن يتعلمن حتى ألزم الثقافات هن - وكان مصدر
هذا الحرمان والتحریم : التقاليد ، والفهم المغلوط للدين .. ولقد
استقرت هذا المثال بالذات ، لأنه كاد يتكرر في العام الماضي أي بعد
مرور قرن من الزمان . إذ قام وزير خطير . ففكر وقدر .. ثم
نظر .. ثم عيس وبسر .. ثم أصدر أمره بحومان الفتاة المصرية
من السفر في بعثات عليية إلى خارج البلاد . مع أن ثمة من المعارف
مالا يمكن أن نظفر به في بلادنا وجامعاتنا ، كما أننا لملك حق منع
فتاة من الطموح العلمي ؛ والقامس المعرفة في كافة مواردها إلا إذا
جاز لنا حرمان الفتى من هذا الطموح .

يقولون حسب البنت أن تعلم الثقافة الخفيفة ؛ وتحجيد التدبير
المنزلي . وتطريز الثياب .

وهذه القناعة في الواقع بعض أعراض مركب النقص والشعور
بالدونية الذي يجعلنا من أصحاب الهمم الهزيلة الضحلة التي لا تفوز

بالرغبات الكبيرة ، والآمال الشامخة .

والأفلاذا لا يخرج من بين قبياتنا أمثال مدام كورى ؛ وهى إذا شامت إحداهن أن تكونها ، ثم ذهبت تلمس وسائل ذلك عند قم الثقافة بهاتيك البلاد ، تمنعنا نحن من هذا الحق . ونهزأ بطموحها المتسلى الجرى ، هكذا حاول وزير معارف مستول ، أن يصنع ، ومتى ؟ فى منتصف القرن العشرين ! ويحدثنا أيضا كتاب « تطور النهضة النسائية » عن الحيلة التى لجأ إليها فيلسوفنا الأعظم لطفى السيد باشا ليسر دخول الطالبات جامعة فؤاد يوم كان مديراً لها ؛ إذ أصدر إلى مسكر تيرية الجامعة تعليمات تقضى بتقيد اسم كل طالب بحمل شهادات تؤهله للتعليم العالى دون إشارة إلى جنس الطالب ، وبهذه الطريقة سار الأمر من غير صعوبة فى البداية وقبلت الفتيات فى الجامعة . وفى سنة ١٩٣١ ظهرت صورة للدكتور طه حسين بك (باشا) فى نادى الجامعة وعن يمينه وبساره الطلية والطالبات جلوساً أينارلون الشاى ، وقامت القيامة لهذه الصورة البريئة التى تضرب المثل للأبوة فى وجود العميد مع الطلية والطالبات ، واتخذت الصورة تذكاة يتخلص بها الرجعيون من طه حسين ولطفى السيد .

وفى سنة ١٩٣٧ أبدى بعض الطلية رغبتهم فى فصل الفتيات عن الفتيان فى الجامعة ، وأبدت الصحف هذه الرغبة . ثم ظهرت بعض العناصر الرجعية فى عهد مجلس الوصاية وهاجمت الجامعة مهاجمة شديدة ، ودعى البعض إلى النظار فى الشوارع والمتناف بالفاظ نابية لا تليق .

ونحن نختار هذه الأمثلة أيضاً لثقابها بما حدث منذ عام . إذ وقف وزير الزراعة من خريجات عالمات يحملن من المؤهلات مثلبا يحمل

معاليه . موقفاً انطوى على كثير من الإنكسار وسوء التقدير .
وفي هذه المقابلات ، والمفارقات ظاهرة عجبية هي التي سقنا
من أجلها هذه الشواهد والأمثلة .

فتحن نلاحظ خلالها أن التحرش بحقوق المرأة ونهضتها كان
في الزمن الأول يأتي من أدنى . لامن فوق . أي من بعض طوائف
الشعب من الجاهلين . والمتزمطين ، والجامدين من رجال الدين .
أما اليوم فقد بدأ ينجي من فوق . أي من بعض وزراء الدولة
وكبار رجالها المسؤولين هذه واحدة .

والدلالة الثانية لتلك الظاهرة — هي أن حقوق المرأة المصرية
لا تزال حتى اليوم . وبعد ما أظهرته من براعة وتفوق في كل عمل
مارسته . بغير ضوابط وقوانين تؤمنها وتحميها . وتكفل لها وسائل
الرسوخ والبقاء ، رغم أنها إنسان . ومواطنة . ولو أردنا تعريبها
فإننا نقول : « مواطن مصري له حقوق وعليه واجبات » هذه ثانية .
والدلالة الثالثة . هي ذلك العيب الحكومي الذي اتخذ من
قضية المرأة غرضه وميدانه . فبجرة قلم يركلها وزير إلى الورد مائة
عام . . وذلك القانون المتناقض الذي كان منذ عام واحد يمنع
بعض المصريات المنحرفات بطاقات يمارسن بها الدعارة والبغاء .
ثم يحرم المصريات المثقفات من بطاقات يمارسن بها حقاً مشروعاً
هو الاقتراع . والذي أباح للمرأة أن تكون محامية . وحرّم عليها
أن تكون قاضية ، رغم إفتاء شيخ إسلام سابق هو الأستاذ الأكبر
الإمام المراغي بجواز ذلك شرعاً .

والذي أباح لها أن تكون أستاذة . وناظرة ، ومففشة . . ثم
استكثر عليها أن تكون نائبة ، أو شيخاً بالبرلمان .

صحيح أن هذا كله آت لا ريب فيه . . وكل آت كما يقال قريب
والمرأة المصرية تؤمن بذلك إيماناً حثيثاً على الصبر . والحكمة
والاتزان . . ولكنها اليوم : وأمام هذه النكسة التي جاءت من
فوق ، وأصبح محتملاً أن تتكرر مرات ومرات . . لم تعد تطبق
اليقاع خارج الأسوار . . في منق المنبوذين ولم تعد تقبل أن تقرر
مصايرها في غيبتها .

فيقضي الأمر حين تغيب نيم ولا يستأذنون وهم شهود
وكذلك لم تعد تأنس للوعود الكثيرة التي تسيل عذوبة ونفاقاً
وتنضح رقة وكذباً . . وصار من حقها أن تصبح في وجوهنا قائلة :
إن صدقا لا أحس به هو شيء يشبه الكذبا

وما دام مصيرها قد أمسى معلقاً بأهواء الحاكين ، ونزعاتهم
الشخصية — فقد وجب أن تشترك فوراً في البرلمان وفي الحكم كي
تساهم في تقرير مصايرها ، وحماية كيانها ، لكي تعمل بما تمليه غريزة
المحافظة على الذات حتى تنجو من طوفان الرجعية قبل أن يطغى على
معالم كفاحها ونهضتها — فليس أحد مثلها يستطيع التعبير عن ذاتها
وتفهم مطالبها والدفاع عن مصالحها وإن اتقى الكثرة الغالية
منا — نحن الرجال — لأضيق من ينسح لإدراك قضيتها . لأننا
لا ندرسها في ضوء مطالبها الحيوية وطبيعتها الإنسانية . . بل
نستعرضها دائماً في ظلام العقد النفسية ، والرواسب العصبية التي
تغص بها شخصياتنا . وأن انحصار خواطرنا في المرأة . والتعيب
من كل محاولة طيبة تبديها . لدليل على اكتناظ نفوسنا بتلك
العقد الخبيثة التي نلقى في روعنا أنه لا إصلاح ولا رقي ولا فضيلة
إلا بإذلال المرأة وإهدار حقها . وإكراهها على أن تعيش ضريراً

لا ترى النور ولا الحياة . ولكي نقنع بأن المرأة على حق إذا هي لم تأمن على مصالحها سواها . . فلفست مع السيدة « إنجي أفلاطون » تحدثنا في كتابها القيم « نحن النساء المصريات » عن المؤامرة السافرة ضد المرأة ، وتحيز الرجل لنفسه تحيزاً ظالماً .

.. فالقانون المصري يبيح الخيانة من جانب الرجل بشرط واحد فقط . هو أن يخوضها في غير بيت الزوجية — وأرض الله واسعة .. ولترك القانون نفسه يتحدث وكأنه حين يتلو أحكامه ينواري خجلاً من أنانية الرجل الصارخة . فالمادة ٢٧٤ ، من قانون العقوبات تقول : « المرأة المتزوجة التي ثبت زناها يحكم عليها بالحبس مدة لاتزيد على سنتين » . وهذا شيء جميل فالقانون يأخذ الفاسدة من النساء أخذاً عنيفاً رادعاً . وأما الفاسد من الرجال فهو الذي تعينه المادة ٧٧ ، حين تقول :

— كل زوج زنى في منزل الزوجية . . يجازى بالحبس مدة لاتزيد على ستة شهور .

إذن فالفاسد من الرجال — في عرف القانون — ليس الزاني في أى مكان وإنما من يذهب به الفجور إلى حد ارتكاب فعلته في منزل الزوجية . أليست أرض الله واسعة ؟ .

ولكن الأمر لا يقف عند هذا الحد . فالفاسدة من النساء تواجهها عقوبة الحبس مدة قد تصل إلى سنتين . أما الفاسد من الرجال — بل الفاسد الفاجر الذي ذهب به الفجور إلى ارتكاب الزنا في منزل الزوجية — فالعقوبة التي تواجهه لاتتجاوز ستة شهور هل نبالغ حين نقول إن القانون المصري يبيح للرجل الزنا بل يشجعه ويحبذه ؟ ثم نقلت المؤلف المناقشة التي دارت في مجلس النواب في أثناء

عرض هذا القانون. وإنك لنشعر وأنت تتلوها بالخجل الذي شعر به بعض النواب المحترمين الذين عارضوا القانون يومذاك أمثال الأستاذة مكرم عبيد باشا وسماعيل سليمان حمزة وزهير صبرى . ولو كان ضمن أعضاء البرلمان الذى نظر هذا القانون نساء لاستطاعت إحداهن أن تصرخ فى وجوه النواب قائلة : إن الله — أيها السادة — عند ما شرع عقوبة الزنا لم يفرق بين الرجل والمرأة فقال : « الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ، وجعل عقوبة الزوجين إذا خان أحدهما أو كلاهما أمانة الزوجية واحدة . فمن أين لكم هذا التمييز الذى جعل عقاب الزوج المنحرف أياما بقضيتها فى السجن ، أو عشرة جنيتها يدفعها غرامة . . بينما تسجن الزوجة المنحرفة حوايين كاملين ؟

وحدوا العقوبة بين الاثنين عسراً أو يسراً وإلا فأنتم ظالمون . بل أكاد أتيق بأن النساء لو شهدن عرض هذا القانون لطلبن بعقوبة أشد وأعنف من السجن سنتين ولكن بشرط أن يستوى فيها الرجل والمرأة . أفليس من الاتصاف إذن أن يتاح لنصف الأمة فرصة الدفاع عن نفسه ، بل والدفاع عن الفضيلة التى أثبت الرجال أنهم بمفردهم غير قادرين على الدفاع عنها . . ؟

وهناك مظهر آخر لإهدار حقوق المرأة ، والتفنى فى ظلمها ، تنقله لنا أيضا السيدة « إنجي » فى الصفحة الحادية والعشرين من كتابها : « قدمت وصفية سيد أحمد شرف أمام محكمة الجنح بتهمة اعتدائها على زوجها بالضرب ، وفى الجلسة سألتها القاضى عن صحة التهمة المنسوبة إليها فأجابته :

— نعم لقد ضربته دفاعاً عن نفسى أمام ضرباته . فقد كان

مسلحاً بأداة صلبة أراد أن يحطم به رأسى . فاضطرت إلى ضربه
لأنفادى الموت على يديه .

ودافع بحامى الزوجة دفاعاً طويلاً ، وأقام الحجج والبراهين
على ضرورة المساواة بين الزوجة والزوج فى الحقوق والواجبات
ولكن المحكمة لم تشاطره هذا الرأى . وقضت بأن للزوج الحق
فى تأديب زوجته جسمانياً وضربها وأدانت الزوجة فحكمت عليها
بالحبس شهراً مع إيقاف التنفيذ ، ا . هـ

لمثل هذا تريد المرأة أن تمارس حقها السياسى . لترفع الإصر
والأغلال التى عليها ، وتقضى على الفوارق الظالمة المعتسفة التى تفصل
بين شطرى الأمة من رجال ونساء . فهل هناك موانع صادقة تحول
بينها وبين ما تريد ؟ سننظر . .

منطق الطابور الرجعى :

إن رجال الطابور الرجعى يلوحون فى وجه الحقوق النسائية
بالدين تارة ، وبالتقاليد تارة أخرى ، أو بهما معاً . هذا عدا
ما يسمونه بالخروج عن الوظيفة الأصلية التى خلقت المرأة لها .
وهى المنزل . وإنه لمن سوء الحظ أن ترانا مضطرين لإتفاق الوقت
فى حاجة هذه الأوهام وتقييدها . ولكننا نخطئ كثيراً إذا أرسلنا
معها فى الجدل والنقاش . لذلك نكتفى بوقفه سريعة معها .

أما موقف الدين من حقوق المرأة فإنه يتعب المعارضين ويخذلهم .
ورغم أن الإسلام بمبادئه وتطبيقاته يقف بجانبنا ، ويبارك وجهة
نظرنا فى هذه القضية ، إلا أننا نستحي أن نقحمه فى مسألة نفرض
يده منها بعد أن بارك كل تطور فاضل رزين يطرأ عليها ، لذلك
نكتفى بأن نتثر على أسماعهم هذه الأسئلة : هل تعلمون أن النساء

كن يجتمع مع الرجال في مسجد رسول الله .. وأن مناقشة في
موضوع جنسي، دارت عنا ذات يوم بين الفريقين، ورسول الله
شيرها وشاهدها ؟

وهل تعلمون أن امرأة انشقت عنها الصفوف في المسجد يوم
كان عمر يقدم مشروع قانون لتخفيض المهور وتحديداتها . وبعد
إبدائها رأيها في جرأة وحصافة صاحب أمير المؤمنين مشروعها وهو
ينحنى إعجاباً بهذه السيدة ويقول : أصابت امرأة ، وأخطأ عمر ؟
وهل تعلمون أن كارثة كادت تودي بحياة الإسلام وتزهق
أنفاسه يوم الحديبية ، حين أبى أكثر المسلمين أن يصلحوا قرشاً
ويتحللوا دون أن يحجوا .. لولا رأى أنثى من فكر امرأة .. إذ
دخل الرسول على أم سلمة غضبان أسفاً . فلما أشارت عليه وأنفذ
مشورتها ، التأم الصدع ، واستمع الجمع ، واستجابوا لأمر الرسول
الذي عاد لصاحبة الرأي جذلان فرحاً يقول :

«جيدا أنت يا أم سلمة، لقد نجح المسلمون بك اليوم من عذاب أليم،
هل تعلمون هذا وأضعافه معه ؟

إذن فلا نقولوا : إذا كانت أموركم إلى نسائكم فيطن الأرض
خير لكم من ظهرها .. فإن في النساء من أنقذت عمر من إمضاء قانون
بحذف، وفيهن من حسمت فتنة عاصفة وأنجحت المسلمين من عذاب أليم !
يقولون : ليس للمرأة حقوق سياسية . لأن الله يقول : الرجال
قوامون على النساء .. ومعنى هذا أنها دون الرجل في البيت ، وفي
المجتمع ، وفي الدولة .. وهو تأويل لا يقدر عليه سواهم — بيد أن
معنى الآية واضح جلي ، ولا يحتمل كل هذا الالتواء والاعتساف
فهي لا تعدو أن تكون نزكية لسلطة الرجل في الأسرة ، وامتيازاً

عائلاً يمنحه الرجل نظير ما يحمله من تبعات . بدليل قوله تعالى في نفس الآية : وبما أنفقوا من أموالهم . . .

والآية الكريمة تشبه في الدلالة قولنا : البرلمان قوام على الحكومة . فهل يدل هذا التعبير على أن الحكومة ليس لها حقوق تمارسها ؟ على أن هناك حجة حاسمة تغنيها عن كل حجة ودليل — هي ذلك التفويض المطلق الذي منحه الدين للناس حين قال الرسول : « أنتم علم بشئون دنياكم » . أليست هذه الحقوق السياسية من شئون الدنيا ؟

نعم — ونحن إذن أحرار في اختيار الوضع الذي يحقق منفعتنا الاجتماعية ، ولا يجعلنا بين العالم مسخرة وهزوا .

ويحتاجون بالتقاليد والفضيلة . فها هي هذه التقاليد وهذه الفضيلة لقد سبق أن ناقشنا هذا المنطق المرتجف في عدة مقالات نشرتها مجلة « بنت النيل » مشكورة . وقلنا في إحداها ، تحت عنوان « الرذيلة . . في ثوبها التنكري » .

هل صحيح أن الغيرة على الفضيلة والتقاليد ، هي التي تحفزنا إلى مقاومة التطور ، والكيد المرأة ؟ إن يكن ذلك كذلك ، فما أخرجنا إذن إلى تحديد معنى الفضيلة والرذيلة ، ومعرفة مدى ما يجب على الأمم أن تقدمه للتقاليد من طاعة وولاء .

إن الفضائل الاجتماعية والقيم العليا التي تنظم حيوها حياة المجتمع وتناط بها وجهته . ليست التي يرتضيها فرد ، أو جماعة من الناس . وتلائم تفكيرهم وإحساسهم . بل هي التي تنسجم مع القاعدة . . . وتسمو عن الشذوذ . والقاعدة هنا : هي التطور ، والشذوذ : هو الرجعية والانتكاس . . فكل زحف إلى الوراء مهما يتسم بحسن

النية وسذاجة القصد ، ليس سوى رذيلة في ثوب تنكرى خداع .
وليس هناك إثم أشد ، ولا خطيئة أخش من مقاومة التطور ،
والإخضاع مستقبل الأمم لجهلها القديم .

ذلك أن التطور إرادة الله . وروح منه . وما مثل الذين
يحاولون مقاومته إلا كما سط كفيه إلى الشمس ليقضها عن المسير !
والإسلام كما ينبغي أن يفهم . لا يناوئ التطور ولا يخاضه . . .
وما نسخ القرآن بعضه بعضا ، وتبدل بعض آياته وأحكامه إلا لفئة
علوية تكشف عن جلال هذا التطور ، وضرورته للناس وللحياة .
وأما التقاليد . فليست سوى مظهر اجتماعي للأمم . وليست
قواعد ومبادئ خالدة أبدية تخضع لها ، وتصدر عنها في كافة عصورها
وأجيالها . . . وهي دائية التغير والتبدل . وتغير الشيء معناه خروجه
عن ذاته . وإذن فليس للتقاليد ذاتية أبدية تستحق الولاء والتقديس
ونحن الذين نخلقها ونصنعها ، فلا يليق بنا أن نعبدها كما تعبدا الأصنام .
أما تصورهم أن ممارسة المرأة حقوقها الدستورية سيحول بينها
وبين رعاية المنزل والحياة الزوجية ، فهو تصور مضحك . وكأنما
حسبوا أن كل امرأة من الاثنى عشر مليوناً ، سوف تصبح عضو
برلمان ، وأن مجرد مباشرتها هذه الحقوق سيسلب منها خصائصها
فلا تصلح بعد أن تكون زوجا لرجل ، أو أما ولد ، أو ربة بيت !
المصفدات في الأغلال :

لقد انطلق نساء العالم من السجن البغيض الذي كن يعشن في
ظلمة وظلامه . . . حتى نساء الدول الناشئة . والتي تدين بديننا ،
وتقاليدنا مثل تماليدينا — نفضت عن فساتن ما كن يتلفعن به من
أسمال الرجعية والبلية . . فهذه هي باكمتان ، ترسل إلى أضخم

منظمة عالمية — هيئة الأمم المتحدة — مندوبة لا مندوبا ، هي
السيدة « شايست أكرم الله » .
وتلك « أندونيسيا » تختار لوزارة الشؤون امرأة فتبدي في
وزارتها نشاطاً فذاً وتفوقاً بعيداً .

ولقد رأيت صورة لجيش النساء في باكستان ، ومن يتدربن
في مساحة التدريب على كل أعمال الجيش ، فرأيت منظرأ يخطف
الابصار ويهز الأنفاس . ولم يبق في الدنيا سوى نساء مصر ،
ونظائرهن من نساء بعض الدويلات النافذة التي لا تقع عليها العين
في زحام الحياة .. محرومات من حقوقهن المشروعة . فمنذ عام ١٨٩٣
واعترافات الدول بحقوق نساها تتتابع وتثال اثيالاً متداركا ..
فانجلترا وأمريكا وروسيا وفرنسا والهند وبلجيكا وأستراليا
وفنلندا والنرويج والدانمارك وأندونيسيا وهولندا وباكستان
والنشيك والنمسا والمجر واليونان وأفريقيا الجنوبية وسوريا ...
كل هذه الدول التي لا تعيش وراء جيل قاف ، ولا في بلاد
السند والبند .. بل على السكوكب الذي يتشرف ، بعملنا فوق
ظهره .. قد مكنت المرأة من حقوقها كواعان وكإنسان ، ووضعت
عنها أغلال التقاليد والجهالة .

ولقد آن للصفيدات في الأغلال عندنا أن ينطقن ، وآن للربة
المعطلة أن تؤدى دورها ، لينتقى المجتمع بها أنفاس الحياة .
إن حرمان المصرية من حقها الإنساني . حرمان للمجتمع من
فرصة نابضة جذيرة بأن تجعله راقياً وعظيماً — كما أنه يشيع في
أنفس نصف الأمة ، الشعور بالدونية ، الذي يضعضع الشخصية
ويهدد الكيان . ونحن حريصون على أن تكسب حقها فوراً ليصحح

بذلك وضع غاطلي مخطي... جعل مؤتمر السفراء الذي انعقد في لندن
أخيراً يكتب عنا في تقريره الذي نشرته صحف العالم، والذي تنقله
عن جريدة الأهرام: «إن شعوب الشرق الأوسط لا تزال تعيش
عيشة بدائية، وإن قوى الرجعية تجذبها إلى الوراء جذبا عنيفا...
وإنه ليس هناك سوى دولتين اثنتين فقط تسيران في سباق التطور
والرقى هما تركيا وإسرائيل...»

وحريصون على ذلك أيضاً - لئن فقد ملايين القرويات الآن
يضربون في عشواء الجبل، ويعشن عيشة السواتم. وإن يستطيع
إنقاذهن سوى المرأة المثقفة عند ما تتاح لها المساعدة في تشريع
القوانين وتنفيذها - فتضع منها وتنفسد ما يأخذ بيد أولئك
الأمهات والأخوات.

وحريصون مرة ثالثة، لأن منطق المرأة سليم ومقنع حين
تسألنا في دهشة: «كيف تجلسون على كرمى النيابة... رجالا
لا يعرفون من الحروف الأبجدية إلا السككاف». ونحرمون من
السيدات والفتيات من يعملن أرقى الدرجات العلمية العالمية، والمحلية
حقاً إنها مهينة! وحريصون أيضاً، لأن المرأة إنسان، لها
فكر وإرادة وشعور. وإذن فمن حقها أن تظفر بحقوق الإنسان.
وهي كذلك مواطنة، توزن بالمعيار الذي يوزن بكافة المواطنين.
ولقد سوت الشرائع كلها، سماوية ووضعية، بينها وبين الرجل في
تحمل المسئوليات والتبعات، فلماذا لا يسرى بينهما في التمتع بالحقوق؟
وحريصون مرة خامسة - لأن المرأة لم تباشر عملاً إلا وأنت
فيه بما يشبه المعجزات... وكفاحهن أيام الأوبئة لا يزال يتألق
أمام أعيننا لندكرنا إن نسينا. فإذا وسعنا لها نطاق السعي والعمل

والنجربة كان ذلك خليقاً أن تنتفع البلاد بجهودها في كل مجال وميدان .
واذكروا يا أعضاء الطابور . . . الرجعي ، أن ممارسة المرأة
لحقوقها لن تزيد لها إلا سمواً وشعوراً بالكرامة . وأن العقبة التي
تغارون عليها لا يجرحها إلا الحرمان والتكليل وإشعار صاحبها
أنها مجرد شيء يلعب به ويستمتع . وليس لها بعد ذلك ما لسيدها
الرجل من امتيازات وحقوق . . . وهذه العقبة لا تعصمها وتصورتها
جدران كهف أو بيت . بل جدران النفس الباطنة ، والمناعة
الذاتية الحرة التي تنشأ الثقافة والتجربة واحترام الذات ، وممارسة
الحقوق التي نجعل من صاحبها كما قال : أمرسون ، فضيلة قانونية
 واجتماعية وسياسية .

لقد آن أن تحمل هذه العقدة النفسية عند كلينا — الرجل
والمرأة — وننتهي من ذلك آخر حاجز ظالم يحول بين المصريات
وحقوقهن ، ولقد وجد بعض حضرات الشيوخ أن الدستور
بنصوصه الحاضرة لا يمنع عن المرأة حقها : ووجهدوا نصاً
، جاهزاً ، لا يحتاج لغير التطبيق والتنفيذ . . . ولكن حكوماتنا
لا تزال تنتظر الوقت المناسب .

ولنتوجه بالحديث إلى نساء مصر المثقفات لنصارحن بأن
الوقت المناسب لن يحمي حتى يبدن اهتماماً أكثر ، وحتى يصيبن
سعيهن بالإيجابية الجادة الحاسمة .

ومن هذه اللحظة يجب على الهيئات النسائية جميعها ، أن ترسم
منهاجاً كاملاً موحداً لتحضير المرأة الريفية وتدينها .

وليس من الضروري أن تبدأ من تحت . . . فتعلمن جميعاً
القراءة والكتابة ، بل إن البدء من فوق . . . أمرع وأنفع . .

فتعلمن ما لا بد منه من المبادئ الصحية ، والطريق التربوية العملية
والأشغال الخفيفة التي تستطيع أن تدر من ورائها ربما . . .

هل تعلمن أيتها السيدات . أن تسعين في المائة من أخواتكن
في القرى يعالجن رمد العين بروث الدواب . . . ويعالجن سعال
أبنائهن بشراب البول في الصباح المبكر ، على الريق !! ويعشن في
جو مسمم بالجهل والخرافات ؟

نريد أن تؤمن كل فتاة مثقفة بلغت السنة الرابعة الثانوية فما
فوقها ، أن في ذمتها للوطن ، تحضير نساء عشر . . عشر فقط ،
تنقلن من حيوانات صامتة إلى بشرية ناطقة شاعرة حية . . .

والطرق لهذا كثيرة ، نقتراح منها أن تنفق الجمعاعات النسائية كلها
على إنشاء تعاون مشترك يذهن لتنفيذ منهج يدرسه ويتقن عليه
ويقيم مكنيا ، للخدمة الريفية النسائية ، وتدعى كل فتاة مثقفة
إلى تقييد اسمها في هذا المكتب . حيث تلتقي دراسة أولية للعمل
الذي ستقوم به ، وتختار بعض القرى ، ولتبدأ بالقربية من القاهرة ،
وتعماً لكل قرية مجموعة من تلك الفتيات الرائدات .

وتقسم نساء القرية إلى عشرات ، تتولى كل فتاة منهن عشرآ .
وتتردد المجموعة على قريتها مرتين في الشهر على الأقل ، وفي
مواقيت معينة بحيث يكن على موعد مع عشراتهن ، فإذا هيبطت
المجموعة البلد ، انطلقت كل رائدة إلى عشراتها تعلم نساءها كيف
ينظمن بيوتهن كيف يرين أولادهن ؟ كيف يسعدن بحياتهن ..
وتحدثن عن بلادهن . ما هي ، وما تاريخها ؟ وما واجب كل
امرأة نحوها .

سيقول السذج من الناس ، ما فائدة ذلك . ولنا مستعدين أن

نناقشهم في جدوى هذا التثقيف حتى يعرفوا أولاً أثر الثقافة في تكوين الشخصية وإيمانها .

يعلمن التطريز والحياكة ، وحفظ الأطعمة وتجهيزها ، ويرشدن إلى ضرورة احتفاظ كل سيدة ، بأجزاها منزلاً ، في صندوق صغير تضم كل وسائل الاسعافات الأولية ، ويعرضن عليهن أشرطة للسينما الثقافية المكسدة بوزارة المعارف في اجتماع عام ، بدوار العمدة ، مثلاً . . . ويقمن لمن مهرجانات ، ويمتحن جوائز مشجعة مثل : وسام الأمومة ، ولا يمنع هذا الوسام لمن تنجب أولاداً أكثر بل التي تنجب أولاداً أصح وأقطف . . . ويعلمن ضرورة ووسائل تنظيم النسل وتجويده . . وهكذا نطرد في المشروع ونحقق كل احتمالاته النافعة المفيدة ، وحبدالو بدى به في عطلة الصيف القادمة .

ولا ينبغي أن يعوق المثقفات عن هذا الواجب شيء . . ولا قيمة لأى اعتبار قد يصد عن هذا السبيل ، كأننا ما كان .
إن خلق مجتمع متحضر نوعاً ما للنساء الرف . . يقف على رأس الوسائل الضرورية اللازمة لنموها ونهضتها ، وفي ذمهم المثقفات وضمائرهن ، يستقر هذا الدين . منتظراً الوفاء والساداد .
وفي ذمة كل حاكم وزعيم ومواطن ، تستقر حقوق النساء جميعاً وحق مصر في أن تنتفع برئتها الثانية المعطلة .

وبعد...؟

• ليس الشكل النعجة ،
• وإنما الشكل قبولها .
(الفزالي)

إلى هنا ننهي من عرض وجهة نظرنا في الموضوعات التي
طرقناها ، رجى أن تكون قد وفقتا إلى الوفاء بالعهد الذي التزمناه
في مقدمة الكتاب إذا قلنا :

— إنه شعبة مهداة إلى المجتمع ليبر في ضوءها ويرى .
ولقد بذل هذا الكتاب من ذات نفسه كل ما في طاقته كيما
يدل على الذي هو خير . ، ونرجو أن يكون القارئ قد بذل هو
الآخر من ذات نفسه ما يتقبل به هذه السطور البريئة الصادرة من
هوى وغرض .

ولقد آمنا بوجوب مواجهة مشكلاتنا مواجهة صريحة جريئة
والآن نهب بكل قارىء واجه معنا بعض هذه المشاكل على صفحات
الكتاب ، أن يواجهها في نفسه كذلك ، فإن العناية ببحث مشكلاتنا
من أبعث البواعث على الرجاء .

ولقد أرسل أحد تلاميذ الإمام الغزالي بكتاب إليه يسأله فيه
ذخراً من النصيح والتوجيه . فأجاب الغزالي إلى طلبه بكتاب بدأه
بهذه العبارة الواسعة :

« يا بني . ليس المشكل النصيحة . وإنما المشكل قبولها . . وإذا
كان المجتمع لم يسألنا نصيحاً ولا مشورة ، فلأن هذا الأمر واجب
مفروض ، وعلينا أن نسارع إلى أدائه دون أن ندعى إليه ، ودون
أن نرجو من ورائه جزاء أو شكوراً .

نعم : ليس المشكل النصيحة . وإنما المشكل قبولها ولكن لماذا
يعسر علينا تقبل النصيح والنقد ؟

إني لا أكاد أعرف لذلك جواباً وتفسيراً أفضل ولا أحكم مما
قاله « ج . بيوري » ، في كتابه « حرية الفكر » .

وهو أن الحقائق التي تأتي مغايرة لأرائنا القديمة ، وأفكارنا الموروثة ، تتطلب منا أول ما تتطلب : تغيير ، عالمنا العقلي ، . . . وليس في مكنة كل أحد أن يستجيب لهذا الداعي ، وينظم من جديد عالمه العقلي القديم المقدس . أرائنا سنظل عاجزين عن مطاردة الأوهام والخاوف التي نحول بينها وبين هذا التغيير ؟ إذا لم نحاول ، فسنظل كصاحب المركبة الذي كان يسير بمركبته المجردة في طريق مترب ، تتعثر وتشكفاً . حتى إذا صادف في طريقه عابراً سأله :

— كم بقي من هذا التل ، فأجابه الرجل دهشاً :

— قل . . . أي تل . . . إن عجلك الخلفيتين منزوعتان . . .

هكذا نحن ، سنظل نتعثر ونشكفاً . ظانين أن ظروفنا هي المائق ، وهي المانع ، وهي التل الذي يجهد المرء ويثير النقع الكثيف والحقيقة أن عجلكي مركبتنا المنزوعتين هما مصدر ألمنا وعثارنا . لا بد لنا من عجلات جديدة . . لا بد من تغيير ، وتحديد في عالمنا العقلي ، لنعلم أنه لم يعد على ظهر الأرض ما هو مستحيل . وأنه لا يزال في الإمكان ابدع وأروع مما كان — وإن العقول المقفلة التي لا تتقبل الجديد . والعقول الحائرة المترددة التي لا تريد أن تستقر وتقع على الصواب . هذه وتلك عاجزة عن أن تؤدي للوطن ضريبة وجودها حتى تنجرد الأولى من التحصن ضد الجديد ، وتحرر الأخرى من التردد والذهول .

وهذا الكتاب لا يزعم أنه يعلم كل الناس شيئاً جديداً . فبعضنا يحس هذه المشاكل ، حين يدبر خواطره على شئون بلاده . وفي كل ضمير منا تململ وألم . بيد أن المشاكل لا تزال قائمة ، جاثمة —

فلماذا ؟ . لأن ضميرنا في شخصياته المتعددة ، ضميرنا الاجتماعي ،
و ضميرنا السياسي ، و ضميرنا الديني .

هذا الضمير يرهقه الجبن والهلج ، فيفر من المشكلة قائماً بالتألم
والتفجع والحزن ، بل هو أحياناً يخلق المشاكل بنفسه لنفسه .
ويقتنع بعد ذلك بأنها فوق مستوى طاقته ومحاولاته .

فلنعلم أن المشكلة التي لاحل لها ، لم تخلق قبل ؛ وإن تخلق بعد
وأن كثيراً من مشاكلنا نحن بالذات لا يكاد يكون لها وجود إلا في
حروف الكلمة التي تعبر عنها . ولكن الجبن - جبن الضمير وجبن
الوازع ، وجبن الإرادة - هو الذي يسك بها أن تحل وتزول .
وما أروع هذه الحكمة الصينية ، وأكثر انطباقها علينا :

« قد يجد الجبان ستة وثلاثين حلاً لمشكلته . ولكنه لا يعجبه
سوى حل واحد منها ، هو . الفرار » . فتحن نعرف حلولاً لـ
لمشاكلنا . ثم نخافها جميعاً ونهربها . ونلوذ بالفرار ؛ حلال
المشكلات ، وصانع المعجزات . .

لا بد إذن من نبذ هذا الجبن من ضمير الفرد ، و ضمير المجتمع
و ضمير الدولة . والانطلاق من أسار الوم والخوف ليخلص كل
إلى واجبه يؤديه بلا تردد ولا تريب .

. . .

ولعلنا لم نسمع قط عن حادث تصادم جاء نتيجة الأناة والانتاد
وانتكن من مفتاح السرعة وعجلة القيادة . . بيد أننا نسمع كثيراً
عن تلك الحوادث التي يسببها الطيش السريع ، والسرعة الطائشة .
من أجل هذا ندعو إلى التثبت بالأناة والتزدة . ولكن أية أناة
هذه التي ندعو إليها ؟

إنها ليست المرادفة للثبات أو الركود والنوم العميق . بل هي التي تزامن التطور المستمر ، والعمل المستمر ، والسعي المستمر إلى أحسن ما في الحياة من فرص ، ونظم ، وإمكانيات .
وإن الأناة بهذا المعنى هي الباب الذي تنفذ منه إلى المجتمع قوى الحياة الشابّة المتزنة المجدية . أما ذلك النوع الآخر منها ، الذي عودتنا إياه حكومتنا ، فهو نوع رديء لا يفنى إلا إلى أحد شيئين : الموت ، أو الانفجار .

• • •

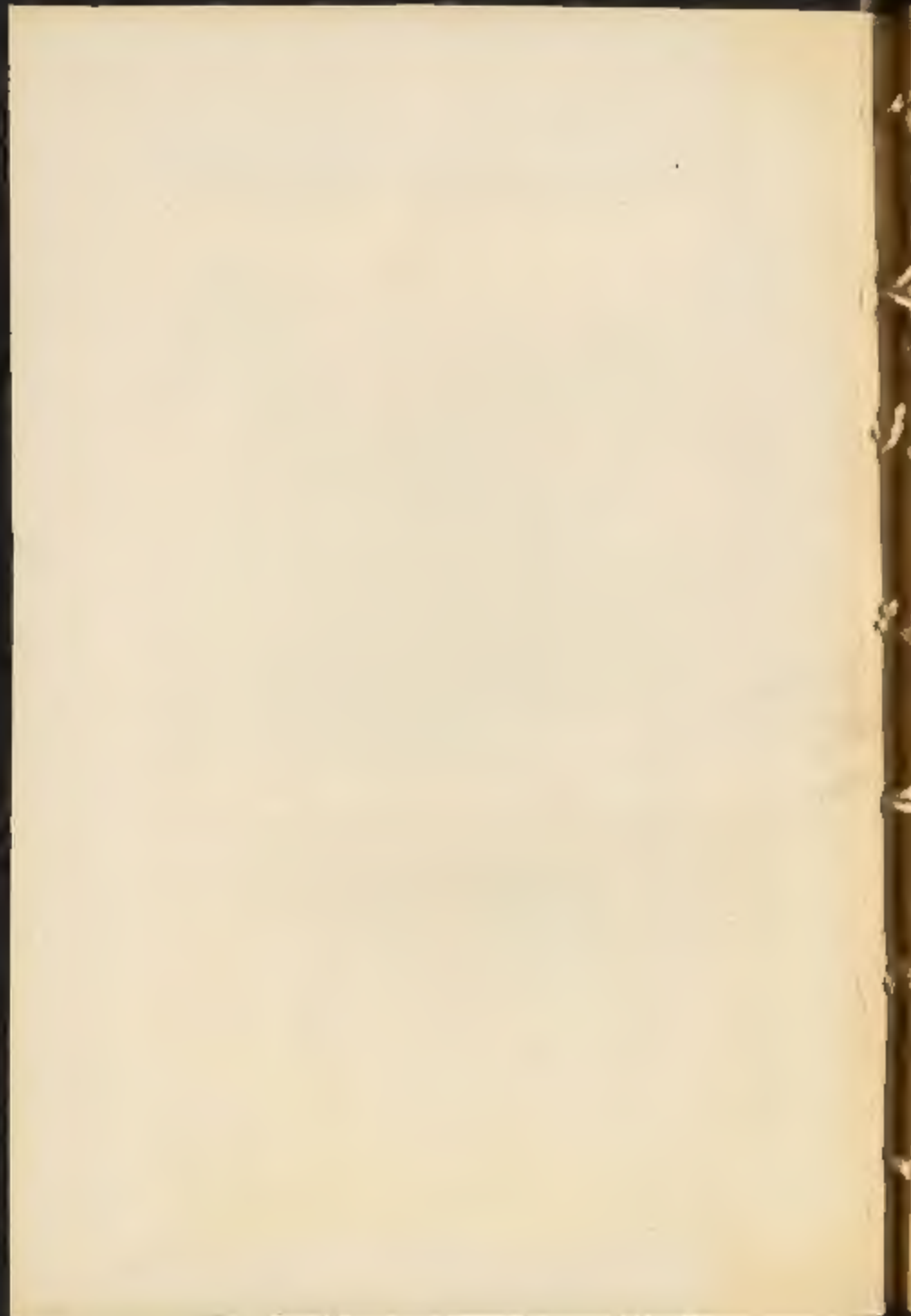
والآن ، توشك الرحلة التي بدأناها معاً ، أيها القارئ ، أن تنتهي ، ويذهب كل منا إلى سبيله .
وإني لأرجو أن نكون قد قضينا في كتابة هذا الكتاب من جوانبي . . وفي قراءته من جانبك — وقتاً طيباً مباركاً فيه .
ولكن قبل أن تمضي . . قف لنذكر معاً هذه الحقائق .
لا بد من تغيير عالمنا العقلي ، أو تهذيبه ، وترويضه حتى يسمح لكل فكر جديد أن يمر به ويمتازه .
لا بد من تبيد الجبن ، وقهر المخاوف ، وشحن ضمير الفرد والمجتمع ، والدولة بالشجاعة القادرة على مواجهة المشكلات ورفضها .
لا بد من التسامح ، والحنان ، والأناة — فهذه الثلاثة ، أمضى سلاح تتسلح به في رحلتنا إلى المجد . فلنعمل بالحكمة القائلة : « ليتصاح بعضنا مع بعض ، وليؤازر بعضنا بعضاً فنحن جميعاً نخوض معركة واحدة — هي الحياة . »

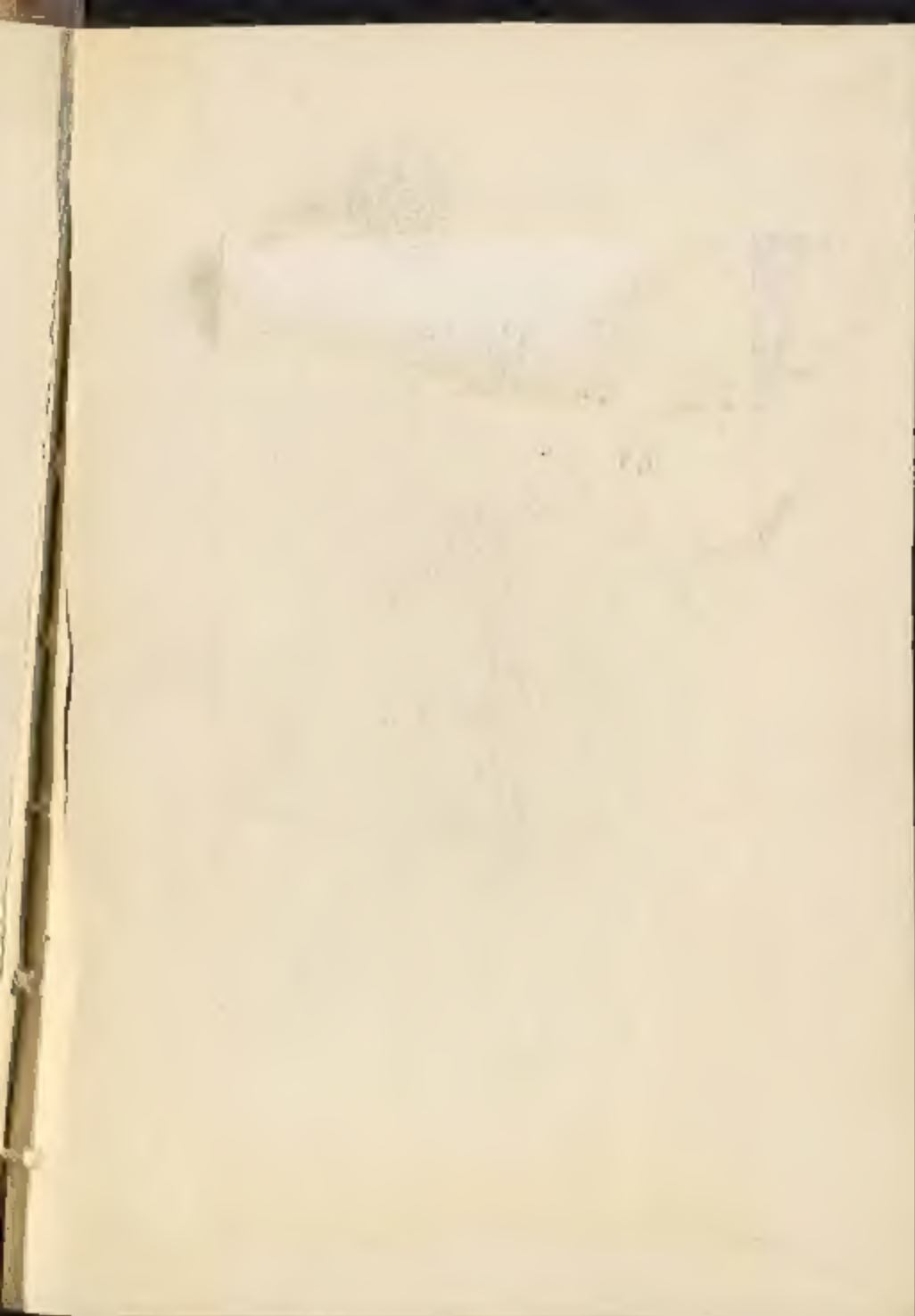
• لا بد من البدء الناجز بالعمل حتى ولو فشلنا . فكما قيل :
والذى يعمل ويفشل ، خير من الذى لا يعمل شيئا وينجح . ولا بد
من أن نخطو الخطوة الأولى فى طريق الواجب المفروض على كل
من الفرد والجماعة والدولة . . . ذاكرين ذلك المثل الصينى : « إن
رحلة طولها ألف ميل — تبدأ بخطوة واحدة » .

• • •

وبعد . . . فلست أعرف ، وأنت تتأهب لعل هذا الكتاب .
ما رأيك فيما قرأت . ؟
أما نحن . . . فقد قلنا كلمات . . . نحسبها مجدية .
قلناها . . . والحاجة إليها أعظم ما نكون .







COLUMBIA UNIVERSITY



0026811863

962

K5263

JUN 8 1962

